سلسلة

رُدَّ إليَّ روحي ٢

جرعات الدواء

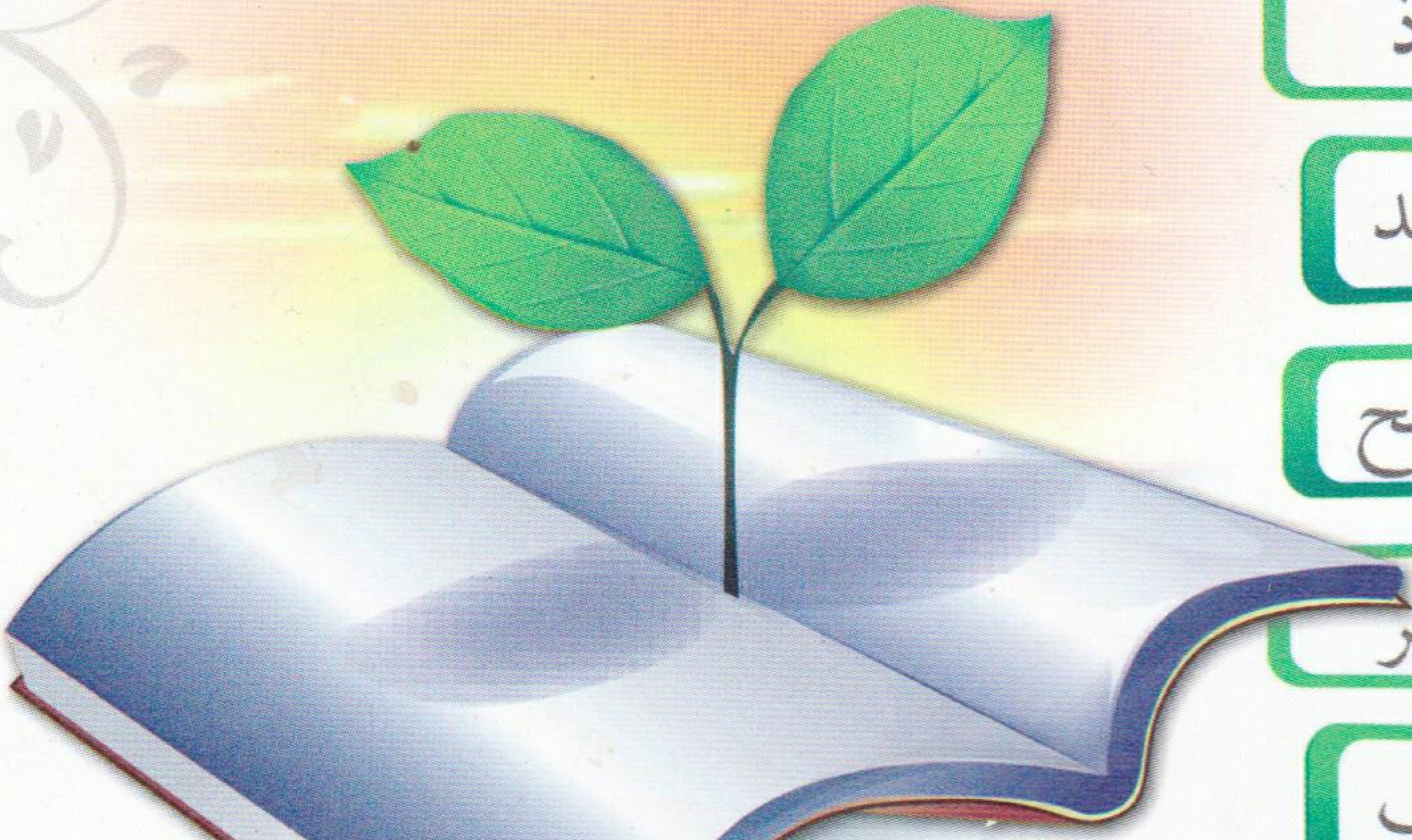

- فرق الإنقاذ
- البيت الجديد
- معاهدة الصلح
- الدواء الأخير
- استراحة القلب
- نفقات العلاج
- قوة التحمل
- عشارية القرآن

د. خالد أبو شادي

مرقاة لثقافة مؤصلة

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع الحقوق محفوظة

اسم الكتاب :	جرعات الدواء
المؤلف	د. خالد أبو شادي
التجهيز الفني	مركز السلام للتجهيزات
الطبعة	الأولى
سنة الطبع	١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م
المقاس	١٥ × ٢١

مركز السلام للتجهيز الفني
عبد الحميد عمر
٠١٠٦٩٦٢٦٤٧

الأندلس الجديدة
للنشر والتوزيع
18 شارع مطر - احمد حلمي - شبرا مصر - تليفون 0101068135
newandalus@hotmail.com

٥

قبل
تناول الدواء

رُدَّ إليَّ روحي

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٢]،

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء:١]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب:٧٠، ٧١] أما بعد:

فهذا هو كتاب «جرعات الدواء» وهو الكتاب الثاني من موسوعة «رُدَّ إليَّ روحي»، وإن كان الكتاب الأول هو مقدمة الموسوعة فإن الكتاب الثاني هو أصل هذه الموسوعة، فالكتاب الأول أساس والكتاب الثاني هو البناء المرتفع فوق هذا الأساس، الكتاب السابق باب البستان وهذا الكتاب هو البستان نفسه برياحينه ووروده وأزهاره وشذاه.

بمعنى آخر.. الكتاب الأول يغطي الجانب النظري لعودة الروح، وهذا الكتاب يترجم الكتاب الأول إلى واقع عملي وبرنامج واقعي وليس مجرد حروف في سطور وكتل في صفحات، فهلم هلم إلى العمل والبذل والنشاط يا أصحاب الهمم العالية والنفوس الصافية.

وأنا واثق أن أثر هذا الكتاب سيكون رائعًا مباركًا ليس بسببي وبسبب جهدي، بل

بسبب ما سبق وقاله الجنيد بن محمد: «لو أن العلم الذي أتكلم به من عندي لفني، ولكنه من حق بدأ وإلى الحق يعود»(١).

تباركت ربي!! ما أشذى نسيم السير إليك!! ما أبرد شعور الرضا عنك!! ما ألذ القرب منك!!

• اللهم اجبر كل كسر منا بنظرة نعيش عليها طوال حياتنا في جنابك، اللهم لا تجعلنا ممن نتجرّع مُرَّ العيش من بعد حلوه، ونتعوَّض من الإكرام بالهوان.. اللهم آمين.

وعن أحمد بن محمد الزيادي قال: سمعت أبا سعيد الخراز يقول: العافية سترت البر والفاجر فإذا جاءت البلوى يتبين عندها الرجال.(٢)

من كلام إبراهيم التيمي أنه يقول: أي حسرة أكبر على امرئ من أن يرى عبدًا كان له خوَّله الله إياه في الدنيا هو أفضل منزلة منه عند الله يوم القيامة، وأي حسرة على امرئ أكبر من أن يصيب مالاً فيرثه غيره فيعمل فيه بطاعة الله تعالى فيصير وزره عليه وأجره لغيره، وأي حسرة على امرىء أكبر من أن يرى من كان مكفوف البصر ففتح له عن بصره يوم القيامة وعمي هو.(٣)

قال جعفر بن برقان: قلت لميمون بن مهران: إن فلانا يستبطئ نفسه في زيارتك. قال: إذ ثبتت المودة فلا بأس وإن طال المكث.(٤)

(١) حلية الأولياء ١٠/ ٢٦٣.
(٢) صفة الصفوة ٢/ ٤٣٨.
(٣) حلية الأولياء ٤/ ٢١٤.
(٤) حلية الأولياء ٤/ ٩١.

مضاعفات القوة العامة

على عتبة هذا الباب:

هي خمسة عشر قرصًا سهلة البلع عظيمة النفع تُمِدُّ القلب بالقوة وتُعِدُّه للعلاج قبل تلقي جرعات الدواء ودورات الاستشفاء، سمِّها إن شئت **مضاعِفات القوة العامة**، وهي غير مضاعفات القوة الخاصة بكل جرعة والتي سأتعرَّض لها عند التحدُّث عن جرعات الدواء، وإياك إياك أن تبخل على نفسك بها، فإن أشد درجات البخل أن يبخل الإنسان على نفسه مع الحاجة، فيمرض أشد المرض ولا يتداوى، ولو أن مريضًا تناول الدواء دون أن يأخذ وصايا الطبيب في الاعتبار لما أفلح دواؤه ولا تم شفاؤه، والآن مع أولى الوصايا:

1 لا تردَّ الدواء أو تتهاون فيه:

قال ابن القيم:

«حذارِ حذارِ من أمرين لهما عواقب سوء: أحدهما: ردُّ الحق لمخالفته هواك، فإنك تُعاقب بتقليب القلب، وردِّ ما يَرِدُ عليك من الحق رأسًا ولا تقبله إلا إذا برز في قالب هواك. قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، فعاقبهم على ردِّ الحق أول مرة بأن قلَّب أفئدتهم وأبصارهم بعد ذلك.

والثاني: التهاون بالأمر إذا حضر وقته، فإنك إن تهاونت به ثبَّطك الله وأقعدك عن مراضيه وأوامره عقوبة لك. قال تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ [التوبة: ٨٣]، فمن سلم من هاتين الآفتين والبليتين العظيمتين فليهنه السلامة»[١].

---

(١) بدائع الفوائد ٣/ ١٨٠.

وهذا ما أبكى أبا الدرداء ﷺ عند موته وهو أشهر من عُرِف عنه التفكر وطول التدبر من صحابة النبي ﷺ، حيث ظلَّت آية واحدة عالقة في ذهنه لا تفارقه لحظة حتى عند موته، وكان مم هداه إليه تدبره: أن هذه الآية هي من أهم ما قرأ؛ فما تذكر غيرها عند الوفاة، فعن أم الدرداء أن أبا الدرداء لما احتضر جعل يقول:

«من يعمل لمثل يومي هذا؟! من يعمل لمثل ساعتي هذه؟! من يعمل لمثل مضجعي هذا؟! ثم يقول: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]»(١).

وكأنه ﷺ خشي أن يكون قد قصَّر في قبول الحق من نبينا ﷺ حين عرضه عليه أول مرة، وظن أنه لم يأخذه كما ينبغي بأقصى قوة وعزم وبأسرع استجابة من أول لحظة، فعاتب نفسه على ذلك حتى علا النحيب قبل الرحيل.

وردُّ الدواء يتمثل في عدم تناوله عمدًا أو سهوًا، أو تناوله مع عدم المواظبة عليه، أو الانصراف إلى غيره والتماس الشفاء في ما عداه، أو الاستخفاف بمفعوله وأثره، وأي من هذه الآفات كفيل بأن يحول بينك وبين شفائك واستعادة عافيتك الإيمانية.

ولعل مما يعينك على تنفيذ هذه الوصية أن تُنزِل نفسك بمنزلة مريض عُرِض عليه أن يتناول الدواء أيامًا معدودة لينال عافية الدهر؛ فهو بمنزلة كسير عليه أن يحتمل مرارة الدواء حينًا لتحصل له الصحة الأبدية، أو بمنزلة الغريق الذي أُلقي إليه طوق النجاة فإن تشبَّث به وإلا صار طعام السمك في قاع البحر، ويدفعك إلى ذلك دفعًا ويذكِّرك به كلما نسيت: بكاء أبي الدرداء ساعة الاحتضار!!

2 أيقن بفاعلية الدواء:

عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: أخي يشتكي بطنه، فقال ﷺ: اسقه عسلاً، ثم أتى الثانية فقال: اسقه عسلاً، ثم أتى الثالثة فقال: اسقه عسلاً، ثم أتاه فقال: فعلت، فقال ﷺ: «صدق الله وكذب بطن أخيك... اسقه عسلاً»، فسقاه فبرأ(٢).

---

(١) حلية الأولياء ١/ ٢١٧.

(٢) صحيح: رواه الشيخان عن أبي سعيد الخدري كما في اللؤلؤ والمرجان رقم: ١٤٣٢.

وإن كان للصحة النفسية دور أساسي في شفاء أي مريض، فإن الصحة النفسية الإيمانية هنا هي الاطمئنان إلى فاعلية الدواء والتأكد من أنه سيجلب الشفاء، فكلما نزل الدواء على قلب أكثر يقينًا وأكمل ثقة كلما كان أثره أعظم والشفاء أقرب، وكلما امتلأ القلب بالشك والرِّيَب كان نزول الدواء عليه كنزول الماء بأرض قيعان لا تُمسك الماء ولا تُنبت الكلأ.

لكن لماذا لا نوقن والله سبحانه هو الذي أرشدنا إلى الدواء وحثَّنا عليه؟! وكيف لا نوقن والدواء جرَّبه ملايين الصالحين من قبلنا فوجدوا أعظم الأثر ووصلوا إلى ما ينشدون؟! وحتى متى لا نوقن والوعد وعد رسول الله وهل أوفى من رسول الله؟! والبشارة بالشفاء جاءتنا على لسانه ولا أصدق؟! فوالله لو أيقنتم بشفائكم لاستكثرتم من دوائكم، ولو انتبهتم من رقادكم لوصلتم إلى مرادكم، فأعطوا أنفسكم من دوائها ما ستقرؤونه يعطِكم ربكم من شفائه ما طلبتموه، وإلا تجرَّعتم جرعات الندم على موائد الأسف، حين ترون أثر الدواء في الدنيا ومفعوله في الآخرة، وتندمون ندامة الكُسَعِيِّ[1] حين رأت عيناه ما صنعت يداه.

3 داوِم تصل:

طالب الشفاء اليوم لا ينال مراده بعبادة يوم وليلة، بل لابد من مداومة، وقد تبين في حديث العسل أن المريض لم يجد أثر الدواء حتى تناول ثلاث جرعات، وليس ذلك في أمراض الأبدان فحسب بل في أمراض القلوب كذلك، فالنفس لا تقبل أثر الطاعة ولا تتشرب فائدتها إلا بعد مدة ومواظبة عليها، وهو ما أفتى به فقهاء القلوب على مر العصور؛ حين أبانوا أثر عدم المواظبة على الدواء في تدهور حالة القلب، فهذا أبو سليمان الداراني يوصي أحمد بن أبي الحوارى :

---

(١) اسمه محارب بن قيس اتخذ قوسًا وأتى على موارد الحمر، فمر به قطيع منها، فرمى عيرًا فأخطه السهم أي جازه وأصاب الجبل، فأورى نارًا، فظن أنه أخطأ، ومر به قطيع آخر فصنع صنيعة الأول، ثم مرَّ قطيع آخر ففعل فعله الأول حتى رمى خمس مرات، ثم عمد بها فكسرها على حجر، فلما أصبح رأى الأعيار الخمسة مصرعة حوله فندم وقال:

ندمت ندامة لو أن نفسي ... تطاوعني بها لقطعت خمسي

تبين لي سفاه الرأي مني ... لعمر أبيك حين كسرت قوسي

وصارت بعد ذلك مثلاً سائرًا:

ندمت ندامة الكُسَعِي لما ... رأت عيناه ما صنعت يداه

كتاب جمهرة الأمثال ٢/ ٣٢٤ بتصرف يسير.

« لِترك الشهوات ثواب ، وللمداومة ثواب ، وإنما أنا وأنت ممن يقوم ليلة وينام ليلتين ، ويصوم يوما ويُفطر يومين ، وليس تستنير القلوب على هذا »[١].

ذلك أن عقبة البدء كؤود، يصعِّبها الشيطان عليك، ويضع أمامك الحواجز والمثبطات، لكن مع البدء وبداية تسلل الإيمان إلى القلب، وانتشار حلاوته في الروح، تلين القلوب للطاعة ويستنير الصدر للإنابة، وصدق ابن الجوزي حين قال:

«إذا استقام للجواد الشوط لم يُحوِج راكبه إلى السوط»[٢].

وضرب لنا أبو حامد الغزالي مثلاً ليقنع كل يائس من الشفاء بجدوى المحاولة وحتمية الشفاء إذا جدَّ في السعي، وقلَّد الصالحين الذين جاهدوا (وفعلوا بها ما يُفعل بالبازي إذا قُصِد تأديبه ونقله من التوثُّب والاستيحاش إلى الانقياد والتأديب، فإنه يُحبس أولاً في بيت مظلم، وتُخاط عيناه حتى يحصل به الفطام عن الطيران في جو الهواء، وينسى ما قد كان أَلِفه من طبع الاسترسال، ثم يرفق باللحم حتى يأنس بصاحبه ويألفه إلفًا، إذا دعاه أجابه، ومهما سمع صوته رجع إليه، فكذلك النفس لا تألف ربها، ولا تأنس بذكره إلا إذا فُطِمت عن عادتها بالخلوة والعزلة أولاً؛ ليحفظ السمع والبصر عن المألوفات، ثم عُوِّدت الثناء والذكر والدعاء ثانيا في الخلوة حتى يغلب عليها الأنس بذكر الله - عز وجل- عوضًا عن الأنس بالدنيا وسائر الشهوات، وذلك يثقل على المريد في البداية، ثم يتنعَّم به في النهاية؛ كالصبي يفطم عن الثدي، وهو شديد عليه إذا كان لا يصبر عنه ساعة، فلذلك يشتد بكاؤه وجزعه عند الفطام، ويشتد نفوره عن الطعام الذي يُقدَّم إليه بدلاً عن اللبن، ولكنه إذا مُنِع اللبن رأسًا يومًا فيومًا وعظم تعبه في الصبر عليه وغلبه الجوع تناول الطعام تكلفًا، ثم يصير له طبعًا، فلو رُدَّ بعد ذلك إلى الثدي لم يرجع إليه، فيهجر الثدي، ويعاف اللبن، ويألف الطعام، وكذلك الدابة في الابتداء: تنفر عن السَّرج واللجام والركوب؛ فتُحمل على ذلك قهرًا، وتُمنَع عن السرج الذي ألفته بالسلاسل والقيود أولا، ثم تأنس به بحيث تترك في موضعها، فتقف فيه من غير قيد، فكذلك تُؤدَّب النفس كما تؤدَّب الطير والدواب)[٣].

---

(١) حلية الأولياء ٤/ ١٧٩

(٢) المدهش ص ٢٩٩.

(٣) الإحياء ٣/ ٦٨.

إن النفس إذا وجدت لذة العبادة، وأحست بأثر جرعات الدواء بدد فيها نور اليقين ظلام المادة، وأطفأ برد العفو نار الذنب، كالرضيع الذي يستغني عن اللبن بألوان الأطعمة المختلفة ليزهد بعدها في ثدي أمه.

والمعنى أنك كلما تناولت جرعة دواء زادت سرعة سيرك، وانتفض قلبك وكأنما نشط من عقال؛ ذلك أن المسافر إذا عاين البلد التي يريد دخولها أسرع واستحث دابته على السير بغير ما كانت عليه عند بدايات سفره والهدف عنه غائب، وكذلك القلب إذا ذاق حلاوة الإيمان ووجد أثر العافية صار أقوى عزمًا وأشد قوة لقربه من غايته وتلمح قلبه لأنوار ما سعى إليه.

4 لحظة التأخير القاتلة:

تأخير المحاولة ليس في صالحك، وتأجيل جرعة الدواء عن ميعادها يزيد المرض رسوخًا، والمقاومة انهيارًا، والنفس إلفًا لما يضرها، وبغضًا لما ينفعها، لأن التأخير يمنح الفرصة للسم بأن يسري إلى القلب ويتمكن منه، والقلب منبع الحياة، فينشأ عن ذلك أبشع الأثر، وبتأخرك عن تناول الجرعة المقررة مرة بعد مرة ستصل يومًا حتمًا إلى الجرعة الحرجة التي لو لم تتناولها لمات قلبك في الحال، ولا عزاء في القلوب الغافلة!!

أخي.. التسويف سُم الأعمال وعدو الكمال، ومن ترك المبادرة اليوم وارتمى في أحضان (سوف) وقع فريسة لأسدين عظيمين: أحدهما: تراكم ظلمة المعصية على قلبه حتى تصير رينا وطبعًا وأقفالاً يستحيل معها الشفاء، والثاني: أن يباغته الموت فتضيع فرصة للنجاة، لذا صاح فيك الصاحب شرف الدين الأنصاري:

دع التسويفَ وامضِ إلى المعالي ... بعزمٍ من ذبابِ السيفِ أمضى

وخذْ في الجدِّ وارفضْ من أباهُ ... من الأهلين والإخوانِ رَفْضا

واصغِ لما أشرتُ به فإني ... صحبتُكَ منه كأسَ النصحِ مَحْضا

أخي المريض:

لا تشغل نفسك كثيرًا بسؤال: كيف حال قلبي الآن، وليكن همك الأول: هل بدأت رحلة العلاج أم ليس بعد. فإن هذا الطريق من مشى فيه خطوة تلقفته أيادي الرحمة الإلهية والعناية الربانية لتوصله إلى ألذ نهاية وفي سرعة البرق.

يا من اشتكى قلبه..

أوجع الألم حرقة الندم، ومن راقه طعم الأماني فاته أسمى المعالي، ومن أقلقه خوف الهلاك هجَرَ أرجو وسوف وعسى، ومن أيقن أن الأماني تُنقِص العقل عافت نفسه كل تأخير؛ وعلم أن المرء كلما كبر صعبت عليه المحاولة، ذلك أنه ليس أشد من فطام الكبير، ومن العناء رياضة الهَرِم.

أخي طالب الشفاء: «إحالتك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفس»(١).

هكذا قالها ابن عطاء وصدق، فإن كنت تظن أن الشيطان سيعطيك مهلة للتوبة، أو سيمنحك الفرصة لتلتقط أنفاسك، أو سيتركك فارغًا لتراجع نفسك وتتعافى، فاعلم أنك واهم، فالعجل العجل.. والبدار البدار، واذكر أن الكسل آفة أعجز المرضى، وما بسقت فروع ندم إلا من بذرة كسل، ومن ملَّ الحركة حُرِم البركة، ومن أضاع الفرصة تجرَّع الغُصة، فخاطب نفسك بقولك: إن كان لك في الشفاء نصيب فالآن وإلا فهيهات، فإن من أجَّل أمره إلى الغد لم يفلح إلى الأبد، وفي المقابل: ما حُرِم مبادِر إلا فى النادر، فهيا!! الآن.. وفي التو واللحظة.. ليس الأمر شاقًّا.. ووالله ما هي إلا سفرة قلب وأنت على الفراش.. دون أن تفارق مكانك.. كل المطلوب منك أن تُشهِد ربك على إرادة الشفاء، وأن تبرم العقد معه على شراء العفو، وتقطع تذاكر الرجوع إليه، فإن فعلت.. فاجعل دون الوفاء بعهدك الموت!!

وسر عن قريب واستجب واجتنب (غدًا) ... وشمر عن الساق اجتهادا بنهضةِ
وكن صارمًا كالسيف فالموت في (عسى) ... وإياك (مهلا) فهي أخطر علةِ

---

(١) شروح الحكم العطائية ص ١٥٢.

وجُـدْ بسـيف العـزم (سـوف) فـإن تجُـدْ　　تجدْ خيرًا فالنفس إن جُدْتَ جَدَّتِ

كم عمرك الآن؟!

وفي ضوء نشاطك أو كسلك، ومبادرتك أو تقاعسك،وانتباهتك أو غفلتك تستطيع أن تحدِّد عمرك الحقيقي اليوم، وأعني بذلك عمرك المحسوب بميزان الإيمان لا بذاكرة الأيام، وبحساب الكرام البررة لا بسجلات موظَّف الحي الذي تسكنه، وهو ما يقلب كثيرًا من الرجال أطفالاً، ويرفع بعض الأطفال إلى مقام الرجولة ، والسبب : الأعمال ، وهو ما فطن إليه الشاعر العاقل حين قال :

إذا لم يكــن مــرُّ الســنين　　عـن الفضـل في الإنسـان سمِّيتـه
ومـا تنفـع الأيـام حـين تعُـدُّها　　ولم يَستَفِد فيهنَّ عِلمًا ولا فضلا

وهو ما قال به ابن القيم:

«فما كان من وقته لله وبالله فهو حياته وعمره، وغير ذلك ليس محسوبًا في حياته وإن عاش عيش البهائم، فإذا قطع وقته في الغفلة والسهو والأماني الباطلة، وكان خير ما قطعه به النوم والبطالة، فموت هذا خير له من حياته، وإذا كان العبد - وهو في الصلاة - ليس له من صلاته إلا ما عقل منها، فليس له من عمره إلا ما كان فيه بالله ولله»(١).

تزوَّجت البطالة بالتواني　　فأولدهـا غلامًـا مع غلامة
فأما الابـن سمَّوْه بفقـر　　وأما البنـت سمَّوْها ندامـة

5 اختر دواءك بنفسك:

هذه نصيحة أهداها إليك عبد الله بن مسعود ﷺ فأمسكها بكلتا يديك وعضَّ عليها بناجزيك، فقد كان ابن مسعود قليل الصوم، وكان يقول :

---

(١) الجواب الكافي ص ١٠٩.

«إذا صمت ضعفت عن الصلاة؛ وأنا أختار الصلاة على الصوم»[(١)].

وكان بعضهم إذا صام ضعف عن قراءة القرآن، فكان يكثر الفطر حتى يقدر على التلاوة وكل إنسان أعلم بحاله وما يُصلحه.

كل منا مريض في جانب من الجوانب، وكلنا يحتاج إلى الدواء، لكن نوع الدواء الشافي يختلف من مريض إلى آخر؛ لأن النفوس تتباين وتختلف اختلافا شاسعا، وبالتالي فليس كل دواء يُحدِث نفس الأثر في جميع النفوس.

قد تشكو قسوة قلبك وتفقد حلاوة القرب منه، فلا يكون هناك دواء أفضل لحالتك من ركعتين في جوف الليل تغتسل فيهما بالدموع، وربما كان أفضل دواء في حق غيرك أن يخرج من ماله صدقة لله، وثالث يُشفى بعبرة في خلوة، ورابع بمسح رأس يتيم، وخامس بإطعام مسكين، وسادس بمجالسة صالح، وسابع بدعاء خاشع أمام مقبرة أو تشييع ميت وحمل نعش، وثامن بصيام تطوع وإلا قسا قلبه وساءت حاله، وكلٌّ أدرى بدوائه وأعلم بحاله، ولابد لك أن تُجرِّب سائر الأدوية لتعرف أيها أنسب لك، ومداوٍ لحالتك.

قال ابن القيِّم شارحًا:

«ومراضيه متعددة متنوعة بحسب الأزمان والأماكن والأشخاص والأحوال، وكلها طرق مرضاته، فهذه التي جعلها الله لرحمته وحكمته كثيرة متنوعة جدًّا لاختلاف استعدادات العباد وقوابلهم، ولو جعلها نوعًا واحدًا مع اختلاف الأذهان والعقول وقوة الاستعدادات وضعفها لم يسلكها إلا واحد بعد واحد، ولكن لما اختلفت الاستعدادات تنوَّعت الطرق؛ ليسلك كل امرئ إلى ربه طريقًا يقتضيها استعداده وقوته وقبوله»[(٢)].

وابن القيم بذلك يُثبِت أنه قد تعلَّم الدرس جيدًا من أستاذ الأساتذة ابن تيمية الذي قال: «الناس يتفاضلون في الإيمان كتفاضلهم في شعبه، وكل إنسان يطلب ما يمكنه طلبه، ويُقدِّم ما يقدر على تقديمه من الفاضل، والناس يتفاضلون في هذا الباب، فمنهم من يكون العلم أيسر عليه

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص ٤٥ – ط دار التراث.

(٢) طريق الهجرتين ١/ ٢٨٤.

من الزهد، ومنهم من يكون الزهد أيسر عليه، ومنهم من تكون العبادة أيسر عليه منهما، فالمشروع لكل إنسان أن يفعل ما يقدر عليه من الخير كما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، وإذا ازدحمت شعب الايمان قدَّم ما كان أرضى لله وهو عليه أقدر، فقد يكون على المفضول أقدر منه على الفاضل، ويحصل له أفضل مما يحصل من الفاضل، فالأفضل لهذا أن يطلب ما هو أنفع له وهو فى حقه أفضل، ولا يطلب ما هو أفضل مطلقًا إذا كان متعذِّرًا في حقه أو متعسرًا يفوته ما هو أفضل له وأنفع؛ كمن يقرأ القرآن بالليل فيتدبره وينتفع بتلاوته والصلاة تثقل عليه ولا ينتفع منها بعمل، أو ينتفع بالذكر أعظم مما ينتفع بالقراءة، فأي عمل كان له أنفع ولله أطوع أفضل في حقه مِن تكلف عمل لا يأتي به على وجهه، بل على وجه ناقص، ويفوته به ما هو أنفع له»[١].

ومن ذلك ما فعله جعفر بن سليمان حين عرف أنسب دواء له وجرَّبه فوجده أجدى ما يكون فانطلق يحكي:

«كنتُ إذا وجدت من قلبي قسوة نظرت إلى وجه محمد بن واسع نظرة، وكنت إذا رأيت وجه محمد بن واسع حسبت أن وْجهه وجه ثكلى»[٢].

أخي.. إذا أحسست بنفسك تسبح منك نحو ساحل الفتور، ولمست قلبك فأحسست بقساوته، وطلبت عينك فوجدتها جافة من قلة الدمع، وبحثت عن روحك فوجدتها سارحة في ما يُغضب الله؛ فهرول مسرعًا إلى أسرع ما يشفيك وأعظم ما يُحدِث أثره فيك، لتغرف منه وتشرب فترتوي وتهتدي بإذن باريك.

٥ شدِّد ثم أرخِ:

البداية القوية تضمن النهاية السعيدة والعزمة الفتية تكفل دوام الصحة أعوامًا مديدة، فلا بد من عزمة وقرار حاسم ووقفة محورية تعترف فيها ليس فقط أنك مريض؛ بل وتعلن أنك في أمس الحاجة للدواء، ويُرى ذلك في شدة انطلاقك وحماسك وبدون هذه البداية تتعثَّر في النهاية بل قبل

(١) الفتاوى ٧/ ٦٥١، ٦٥٢.
(٢) حلية الأولياء ٢/ ٣٤٧.

النهاية، وصدق الشاعر إذ يقول:

فقسا ليزدجروا ومن يكُ حازمًا   فليقْسُ أحيانا على من يرحم

قد يقسو الأب على ابنه وهو صغير في سن التنشئة ليقيمه على الجادة، ويغرس في نفسه منذ الصغر ما يجهل الطفل حكمته في صغره ولن يعرف قيمته إلا عند كبره، وهذه القسوة هي عين الرحمة، وهذه الغلظة من ورائها أرق المشاعر، وإلا شاب الولد على ما شبَّ عليه، وما شبَّ عليه ليس فيه من الأدب والذوق والأخلاق شيء، أليس كذلك؟

فإن قلت: بلى؛ سألتك: وهل أحد أحق بالرحمة من نفسك التي بين جنبيك؟! وهل أولى بالشفقة من روحك التي هي سِر حياتك؟ فما بالك تؤدِّب ولدك وتهمل نفسك؟! وتعِظ غيرك وتنسى قلبك؟!

ومن التشديد: صفاء الابتداء وقوة الانطلاق من أول خطوة. قال أبو عثمان الحيري: «من لم تصح إرادته ابتداء؛ فإنه لا يزيده مرور الأيام عليه إلا إدبارًا»[1].

ومن التشديد: أخذ النفس بالعزم، وعدم إرخاء الحبل لها والسماح لها بالتفلت والهرب، وذلك بإلزامها من الطاعات ما يهذِّب سلوكها ويلين طبعها، والإكثار عليها من النوافل حتى تذل طبيعتها الأمارة بالسوء وتستسلم للخير، وهذا فعل الله وتشريعه، ومثال ذلك: أن الله أمر الصحابة بصبر الواحد منهم إلى العشرة ثم خفَّف عنهم ذلك إلى الاثنين، ومن ذلك أنه حرَّم على المسلمين الأوائل في الصيام إذا نام أحدهم أن يأكل بعد ذلك أو يجامع حتى اعتادته النفوس ثم خفَّف عنهم، ومن ذلك أنه أوجب عليهم تقديم الصدقة بين يدي مناجاة رسوله فلما وطَّنوا على أمر الله خفَّفه عنهم، ومن ذلك أنه فرض قيام الليل عامًا كاملة لتعتاده النفس ثم نزلت آية التخفيف بجعله نافلة. قال ابن القيِّم: «وقد يفعل الملوك ببعض رعاياهم قريبًا من هذا، وقد يفعل بعض الحمَّالين قريبًا من هذا فيزيدون على الحمل شيئًا لا يحتاجون

(١) مدارج السالكين ٢/ ٣٦٥.

إليه، ثم يحطُّ تلك الأشياء فيسهل حمل الباقي عليهم»[١].

ومن التشديد: قضاء الطاعة إذا فاتتك حتى لا تسترسل النفس في ترك الطاعة والتقصير، فتعتاده ويصعب عليها المواظبة من بعد.

ومن التشديد: تلقي الأمر للتنفيذ لأن لغة المواعظ وحدها لا تنفع، بل لا بد من مزجها بصيغة الأمر والنهي، واستقبال جرعات الشفاء بالامتثال والتسليم، والحفاوة بها حفاوتك بمن طال غيابه عنك ثم أقبل لزيارتك؛ لذا كان على سالك طريق الشفاء اليوم أن يتحلى بجوهرتين ثمينتين هما الجِدُّ والعزم، (والفرق بين الجِدِّ والعزم: أن العزم صدق الإرادة واستجماعها، والجد صدق العمل وبذل الجهد فيه، وقد أمر الله سبحانه وتعالى بتلقي أوامره بالعزم والجد فقال: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣]، وقال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥]، وقال: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢]، أي بجد واجتهاد وعزم لا كمن يأخذ ما أُمر به بتردد وفتور)[٢].

وقد يكون الأمر صعبًا أن تجمع بين الجد والفهم كما جاء في شعر المتنبي:

وما الجمع بين الماء والنار في يدي … بأصعب من أن أجمع الجدَّ والفهما

لكنه يسير على من يسَّره الله عليه، قريب إلى من سعى إليه.

الهــول المفــزع !!

ومن هذا التشديد الشافي والتكليف المعافي ما رواه الحاكم في المستدرك من حديث بشير بن الخصاصية ﷺ قال: أتيت رسول الله ﷺ لأبايعه على الإسلام فاشترط عليَّ: «تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وتصلي الخمس، وتصوم رمضان، وتؤدي الزكاة، وتحج

(١) بدائع الفوائد ٣/ ٧٠٢.
(٢) المدارج ١/ ٤٧٠.

البيت وتجاهد في سبيل الله».

قال: قلت: يا رسول الله.. أما اثنتان فلا أطيقهما!! أما الزكاة فما لي إلا عشر «ذَوْد» - أي: عشر رؤوس من الإبل - هُنَّ رسل أهلي وحمولتهم!! وأما الجهاد فيزعمون أنه من ولّى - أي هرب من المعركة - فقد باء بغضب من الله، فأخاف إذا حضرني قتال كرهت الموت وخشعت نفسي. قال: فقبض رسول الله ﷺ يده ثم حرَّكها، ثم قال: **«لا صدقة ولا جهاد فبم تدخل الجنة؟!»**.

قال بشير: ثم قلت: يا رسول الله.. أبايعك فبايعني عليهن كلهن(١).

والفائدة: لابد من جهد.. لابد من عطاء، ولابد من بذل.. لابد من فداء، إنها شروط النجاة لا شروط سُكنى الفراديس، وسمات المسلم العامي لا المسلم المجاهد، إنها أساسيات الدين ومتطلبات العقيدة ونفقات دخول الجنة، ولو كنت تعيش في زمن النبي ﷺ وواجهك هذه المواجهة لصدمك رده عليك كما سبق وصدم بشيرًا وهزه، لكنها صدمة لازمة وهزة شافية ووقفة مؤلمة تدفعك إلى مراجعة شريط حياتك لتنظر ما دفعت من ثمن لتشتري الجنة، فبين جنبات هذا الحديث جرعة مهمة من جرعات الدواء ولمحة من لمحات الشفاء.

أخي.. افهمني!! السلعة واحدة، والثمن واحد، وما كان الله ليحابي قومًا على حساب آخرين، فتكون السلعة رخيصة لنا وغالية على غيرنا.

يرحمك الله!!

ولأن ديننا دين العزم والقوة ولا مجال فيه للكسل روى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال:

«إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب، فإذا عطس أحدكم وحمد الله كان حقًا على كل مسلم سمعه أن يقول: يرحمك الله، فأما التثاؤب فإنما هو من الشيطان؛ فإذا تثاءب أحدكم فليرُدَّه ما استطاع، فإن أحدكم إذا تثاءب ضحك منه الشيطان». رواه البخاري، وفي رواية لمسلم: **«فإن أحدكم إذا قال: ها.. ضحك الشيطان منه»**(٢).

---

(١) صحيح: المستدرك على الصحيحين ٢/ ٨٩. قال الحاكم: حديث صحيح ووافقه الذهبي.

(٢) صحيح: مشكاة المصابيح ٣/ ٢٤ حديث رقم: ٤٧٣٢.

لما كان التثاؤب مما يُرضي الشيطان؛ أراد النبي ﷺ أن ينفِّرك منه قدر المستطاع ويحذرك من الوقوع فريسة لمثبِّطات العزم ومقدِّماته، وأما العطاس فعلى العكس من ذلك؛ هو نعمة ربانية جاءت لتوقظك وتنشِّطك إلى العمل؛ لذا كان على العاطس أن يحمد الله، وكان حقًّا على من كل سمعه من المسلمين أن يشاركه الفرحة بهذه الصحوة التي جاءته من غير سعي منه أو ترتيب، فيدعو له بالرحمة.

همة هِرَّة!!

رأى الجنيد هرة تسعى وراء فأر؛ فدخل الفأر جحره وبقيت هي أمام الجحر ترقَّب، وكل شعرة من جسدها واقفة تعلن النفير، مستحضرة أعلى درجات العزم والتوثب، فخطر للجنيد خاطر استحال خاطرة جاء فيها:

«يا مسكين.. ألم تحصِّل في الهمَّة درجة هرة؟! وإذا حصَّلت.. أيكون مطلوبك كمطلوبها؟!».

أنت طالب جنة وهي طالبة لقمة وهمتها أعلى من همتك!! أنت طالب شفاء وهي طالبة عناء ومع ذلك عزمها أشد وأصدق!! أنت تسعى لباقٍ وهي تسعى لفانٍ ومع هذا تغلبك!! قطة هجرت الكسل وهبَّت إلى العمل وأنت نائم في بيتك يا بطل؟!

7 أرخِ ثم شدِّد:

وهي طريقة التشريع الإلهي أيضًا في بعض ملامحه يصفها ابن القيم فيقُول:

« فينقل عباده بالتدريج من اليسير إلى ما هو أشد منه لئلا يفجأ هذا التشديد بغتة فلا تتحمله ولا تنقاد له، وهذا كتدريجهم في الشرائع شيئًا بعد شيء دون أن يؤمروا بها كلها وهلة واحدة، وكذلك المحرمات.

ومن هذا أنهم أمروا بالصلاة أولاً ركعتين ركعتين؛ فلما ألفوها زيد فيها ركعتين أخريين في الحضر.

ومن هذا أنهم أُمروا أولاً بالصيام وخُيِّروا فيه بين الصوم عينًا وبين التخيير بينه وبين

الفدية؛ فلما أَلِفوه أُمروا بالصوم عينًا.

ومن هذا أنهم أُذِن لهم بالجهاد أولاً من غير أن يوجبه عليهم؛ فلما توطَّنت عليه نفوسهم وباشروا حسن عاقبته وثمرته أُمِروا به فرضًا.

وحكمة هذا التدريج: التربية على قبول الأحكام والإذعان لها والانقياد لها شيئًا فشيئًا، وكذلك يقع مثل هذا في قضائه وقدره مقدر على عبده بل لا بد منه اقتضاه حمده وحكمته، فيبتليه بالأخف أولاً ثم يرقيه إلى ما هو فوقه حتى يستكمل ما كتب عليه منه»[(١)].

والمشاهد أن كثيرًا من المرضى يشاهدون من منَّ الله عليهم بالعافية والسمو في آفاق المتعة الإيمانية، فيسعون في إدراكهم، ويحاولون مطاولة النجم في علاه بقفزة واحدة، وعندما يفشلون يرجعون خائبين تاركين المحاولة ويائسين من الشفاء، ولو أنهم صعدوا السلَّم درجة درجة، وبدؤوا بالانتهاء عن ما حرَّم الله، ثم ساروا إلى الفرائض فأتموها، وأتبعوا ذلك بالنوافل التي لا تشق عليهم، لوجدوا في نهاية الطريق ما وجد هؤلاء، ولكنكم قوم تستعجلون.

أيها المتعجِّلون!! أنتم لا ترون سوى قمة الهرم ولكنكم لا تلمحون ما بُذِل فيه من عرق وجهد، أنتم لا تبصرون إلا اللمحة الأخيرة واللقطة المبهجة والمشهد السعيد، أما المسلسل الطويل من المجاهدة والصراع والمثابرة والكفاح فما خطر ببالكم قط؛ لذا طمعتم في نيل العلا برقدة في الفراش والغرق في أماني الحالمين، وهذا محال في سوق الآخرة.

ولعل هذا ما قصده كلٌّ من ثابت البناني وعتبة الغلام وهما يرويان قصة كفاحهما المتشابه بل المتطابقة؛ حتى عبَّر كلاهما عنها بنفس الكلمات تمامًا، فقال كل منهما على حدة دون سابق اتفاق:

«كابدتُ الصلاة عشرين سنة، وتنعَّمت بها عشرين سنة»[(٢)].

وهذه اللذة والتنعم بالخدمة إنما تحصل بالمصابرة والتعب أولاً، فإذا صبر المريض

---

(١) بدائع الفوائد ٣/ ١٨٣، ١٨٤.

(٢) حلية الأولياء ٢/ ٣٢١ وخبر عتبة في الحلية ١٠/ ١٠.

وصدق في صبره أفضى به صبره إلى اللذة كما قال أبو زيد: «ما زلت أسوق نفسي إلى الله وهي تبكي حتى سقتها وهي تضحك»[١].

8 نقطة الضعف المدمِّرة:

لكلٍ منا نقطة ضعفه التي يتسلل منها الشيطان إلى قلبه لينقل إليه العدوى ويبث النجوى، وهي تختلف من مريض لآخر، لكن الحاذق اليوم هو من عرف نقطة ضعفه[٢]، وابتعد عن كل ما يوصل إليها، فإن كانت نقطة ضعفه النساء سعى في شغل فراغه وتجنَّب أماكن الاختلاط والتبرج.

وإن كان انهياره في الخلوة في مواجهة الذنوب؛ حرص على الذوبان في مجتمع الصالحين وعدم التفرد ما استطاع إلى أن تقوى مناعته.

وإن كانت نقطة ضعفه شرهه في جمع المال زار من هو أفقر منه وعاد أصحاب الأمراض المستعصية حتى يعتبر، وبهذا يغلق الباب أمام تفاقم المرض، بل يُشفى منه بمرور الوقت بإذن الله.

إن معرفة نقطة الضعف هي نصف الطريق إلى الشفاء؛ ولذا كان من جميل الدعاء:

«اللهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه».

فالمشاكل العويصة تُحَلُّ بمعرفة الحق أولاً، ثم بامتلاك الطاقة النفسية والقوة الروحية لاتباع هذا الحق، فإن عرفت نقطة ضعفك فقد قطعت شوطًا طويلاً في طريق العلاج، وكثير

---

(١) المدهش ص ٤٦٣.

(٢) قال ابن قدامة وهو يرشدك إلى كيفية التعرف على نقطة ضعفك:

« فمن أراد الوقوف على عيب نفسه فله في ذلك أربع طرق:

الطريقة الأولى: أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس، يعرف عيوب نفسه وطرق علاجها، وهذا قد عزَّ في هذا الزمان وجوده، فمن وقع به فقد وقع بالطبيب الحاذق فلا ينبغي أن يفارقه.

الطريقة الثانية: أن يطلب صديقًا صدوقًا بصيرًا متدينًا، وينصبه رقيبًا على نفسه لينبِّهه على المكروه من أخلاقه وأفعاله.

الطريقة الثالثة: أن يستفيد معرفة نفسه من ألسنة أعدائه، فإن عين السخط تبدي المساوئ، وانتفاع الإنسان بعدو مشاجر يذكر عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يُخفي عنه عيوبه.

عداتي لهم فضل علي ومنة ... فلا أبعد الرحمن عني الأعاديا

هموا بحثوا عن زلتي فاجتنبتها ... وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

الطريقة الرابعة: أن يخالط الناس، فكل ما يراه مذمومًا فيما بينهم، يجتنبه». مختصر منهاج القاصدين من ربع المهلكات بتصرف.

من الناس لا يعرف عيبه، ومنهم من يعرف ويجادل عنه أو ينفيه وكأنه تهمة، وليس هذا من سمات المؤمنين في شيء، فإن صاحب القلب الحي يفرح بمن أهدى إليه عيوبه، ويتخذ صاحبًا يُحصي عليه، ويُلِحُّ على من يخالطه في أن يرشده إلى نقائصه.

وقد يقوى المرء في جانب ويضعف في آخر، وقد يعرف نقطة ضعفه وقد لا يعرفها، وليس غير التجربة خير برهان، ولذلك لما اختلف الناس في أيهما أزهد عمر بن عبد العزيز أم أويس القرني؟ قال أبو سليمان الداراني: «كان عمر بن عبد العزيز أزهد من أويس القرني، لأن عمر ملك الدنيا بحذافيرها وزَهَد فيها، ولا ندري حال أويس لو ملك ما ملكه عمر كيف يكون؟ ليس من جرَّب كمن لم يُجرِّب»[1].

ونفس الرأي نطق به مالك بن دينار:

«يقولون مالك زاهد، أي زهد عند مالك وله جبة وكساء، إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز أتته الدنيا فاغرة فاها فتركها»[2].

يوم العرض على القلب

وقد سبق وأن أرشدك نبيك ﷺ إلى أهمية معرفة نقطة الضعف حين قال:

«تُعرَض الفتن على القلوب عرض الحصير عودًا عودًا، فأي قلب أُشْرِبَهَا نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نُكِت فيه نكتة بيضاء؛ حتى يصير القلب أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مُرْبَادًّا كالكوز مُجَخِّيًا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أُشْرِبَ من هواه»[3].

والإتيان بالفعل «تُعرض» بصيغة المضارع دلالة على أن العرض مستمر طيلة الحياة لا ينتهي حتى تنتهي أنت إلى قبرك، لكن الفتن تختلف؛ ففتنة الشباب غير فتنة الشيوخ؛ لأن شهوة النساء مثلاً في قلوب الشباب أقوى، وطول الأمل والحرص في قلوب الشيوخ أبقى،

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٢٠٨.

(٢) الزهد للبيهقي ص ٧٢ – مؤسسة الكتب الثقافية ودار الجنان.

(٣) صحيح: رواه مسلم وأحمد عن حذيفة كما في حديث رقم: ٢٩٦٠ في صحيح الجامع.

فلكل عمر فتنته، وقد يصمد الرجل أمام فتنة سنين؛ فإذا كان آخر عمره هوى فيها، بل ولكل جنس أيضا فتنته، ففتن الرجال غير فتن النساء، بل لكل زمن فتن، والشيطان في كل الأحوال ملحاح لا يدع المحاولة مع أي أحد وفي أي عمر كان.

ومعنى «عُودًا عُودًا» أي تُعاد وتكرَّر مرة بعد مرة؛ لذا أوردها النووي في رواية بلفظ «عَوْدا عَوْدا»، ومعنى عرض الحصير أي كما يُنسج الحصير عودًا عودًا، وذلك أن ناسج الحصير عند العرب كلما صنع عودًا أخذ آخر ونسجه، فشبَّه عرض الفتن على القلوب واحدة بعد أخرى بعرض قضبان الحصير على صانعها واحدًا بعد واحد، فمن القلوب من يُشرَب هذه الفتنة، ومعنى أُشربها أي استسلم لها حتى دخلت فيه دخولاً تامًّا وحلت منه محل الشراب، ومنه قوله تعالى ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ﴾ [البقرة: ٩٣] أي حب العجل.

يا تائها عن معرفة نقطة ضعفه: أما عرفت قصتك؟! أما دريت خبرك؟! أنت الذي كانت له الفتنة لقلبه كحصان طروادة، استخدمها الشيطان ليتسلل بها إلى قلعته، ويجتاز كافة حراسات القلب وجنوده؛ حتى إذا دخل وتمكن استمر الزحف، فانهارت المناعة واستسلمت القلعة!!

وأمام هذا السيل المنهمر الذي تتابع على القلب يسودُّ القلب، ويظل يهوي وينتكس ويذوي ويرتكس حتى يصبح كالكوز مُجَخِّيًا أي مقلوبًا، وهل يبقى في الكوب المقلوب شيء؟ وكذلك هو لا يبقى ولا يثبت فيه أي خير، ومعنى آخر لقوله «منكوسًا» أي تنقلب عنده حقائق الأمور، فيرى الباطل حقًّا والحق باطلاً، والهلاك نجاة والنجاة هلاكًا، والحامض حلوًا والسكر ملحًا، وهذه عاقبة كل من استسلم لضعفه وركع لهواه.

ومن يك ذا فمٍ مُرٍّ مريضٍ يجد مُرًّا به الماءَ الزلالا

وتأمَّل قوله: «مُربادًّا» أي يحمل بقايا بياض في عموم سواد، وهذا دلالة على أنه ما كان أسود يوم خلقه الله، بل كان أبيض ناصع بياض الفطرة ليحمل الخير ويدوم عليه؛ لكنه اختار بإرادته الذي هو أدنى، وقدَّم الخبيث على الطيب، وطرد خيره مؤثرًا شرَّه، وأحيا فجوره وأمات بِرَّه، فلم يبق من البياض والفطرة والإيمان إلا بقع من البياض الغارقة في

لجة الخطيئة وطوفان السواد.

والحديث في مجمله يبث الرعب فينا ليدفعنا بقوة إلى ضرورة مراجعة النفس لاكتشاف نقطة الضعف التي يتسلل منها الشيطان ليحوِّل صاحب القلب الحي في النهاية إلى صاحب قلب منكوس، وما ذاك إلا من تهاونه في معرفة عيب نفسه في البدء، وعدم سدِّ هذا المنفذ على الشيطان بسد فولاذي الإيمان وسعيه الحثيث في العلاج، نعم نقطة ضعف واحدة ليس غير كفيلة أن تؤدي إلى انتكاسة قلبك وانقلاب روحك، وأنت السبب إذ لم تسمع وصية الحبيب، أو سمعتها ورميتها وراء ظهرك، ثم تبكي!!

وما مثلك بنقطة ضعفك مع شيطانك إلا كحامل قطعة لحم وحوله كلب جائع، فلا يزال الكلب ملازمًا لك حتى ترمي عنك قطعة اللحم، فإن رميتها ثم زجرته انصرف عنك، وإلا ظل يحوم حولك يطمع في لحظة غفلة أو سِنة نوم ليهجم!!

وفي المقابل ينتصب القلب الحي صخرة شامخة تتكسر عليها أمواج الفتن، وهذا سِرُّ تشبيهه بالصفا. قال القاضي عياض رحمه الله: «ليس تشبيهه بالصفا بيانًا لبياضه، لكن صفة أخرى لشدته على عقد الايمان وسلامته من الخلل، وأن الفتن لم تلصق به ولم تؤثِّر فيه كالصفا، وهو الحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء»(١).

ومن هذه القلوب الحية قلب علم الأولياء عبد القادر الجيلاني الذي محى نقطة ضعفه قبل أن تظهر، وأزالها من أرض قلبه حتى قبل أن تبرز، وانظروا إليه وإلى شدة عزمة وقوة بأسه وهو يقول: «إذا وُلِد لي ولد أخذته على يدي، فأُخرِجه من قلبي، فإذا مات لم يؤثِّر عندي موته شيئًا!!»(٢).

(١) شرح النووي على مسلم ٢/ ١٧٢.
(٢) نزهة الفضلاء ٤/ ١٥٧٥.

9 أغلى ذرة جهد:

إذا حرمك الله المال فلا تبتئس، فما هي إلا فرصة لمضاعفة أجرك وسرعة شفائك، وإذا كنت غارقًا في أعباء عملك الدنيوي ولو لم يكن عندك وقت لطول القيام؛ فجاهدتَ نفسك في قيام ركعتين قبل الفجر انتزعتهما من وقت نومك الذي تحتاج إليه بشدة فما ذلك إلا علامة البطولة، واسمع بشارة ابن القيِّم لك:

«ليس العجب من صحيح فارغ واقف مع الخدمة، إنما العجب من ضعيف سقيم تعتوره الأشغال وتختلف عليه الأحوال؛ وقلبه واقف في الخدمة غير متخلِّف بما يقدر عليه»[1].

لا أريدك بعد اليوم أن تشكو قلة مال أو ضيق وقت أو وطأة حرمان أو شدة فقر، فإنك إن علمت قيمة هذا الكنز الذي بين يديك لشكرت الله على عطائه لك وإن كان في صورة منع، ولحَرصت على إخفائه بعيدًا عن أعين الناس خوفًا من أن يحسدوك، وعرفت أن الله لم يحرمك بل أغناك، وما منعك بل واساك، فإن أجود الجود أن تبذل الموجود، وأعظم الطاعات ما كان رغم ضيق ذات اليد.

وهو ما ردَّ به عثمان بن عفان ﷺ على من قال له : ذهبتم يا أصحاب الأموال بالخير ، تتصدقون وتُعتقون وتحجون وتنفقون ، فقال عثمان :

«وإنكم لتغبطوننا وإنا لنغبطكم ، فوالله لدرهم ينفقه أحد من جهد خير من عشرة آلاف درهم غيض من فيض »[2].

10 لذة التفرد الدافعة:

عدم وجود الأعوان والتفرُّد بالإحسان رغم تفشي الداء، والجهر بالعبادة بين الغثاء، ومقاومة تيار الغفلة والشقاء، والوقوف بقوة في وجه الإعصار ولو كنت وحدك، والتمسك بالنوافل المهجورة والناس تجترئ على الكبائر، كل ذلك يساوي عند الله اليوم الكثير؛ ولذا ما

---

(١) كتاب الفوائد ص ٢٢١ - دار النفائس.

(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص ١٤٦.

كان عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- مبالغًا حين قال:

«الخيرُ أعمله اليوم أحب إلي من مثليه مع رسول الله ﷺ، لأنا كنا مع رسول الله ﷺ يهمنا الآخرة ولا تهمنا الدنيا، وإن اليوم مالت بنا الدنيا»(١).

وهذا في زمان كان يزدحم فيه الصحابة والتابعون، فكيف بزماننا هذا؟! فليبتسم قلبك، ولتضحك روحك وأنت تسمع هذه البشارة:

«إنَّ من ورائكم أيام الصَّبر؛ الصبر فيه مثل قَبْضٍ على الجمر، للعامل فيهم مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله». قيل: يا رسول الله.. أجر خمسين منهم؟! قال: «أجر خمسين منكم»(٢).

فلينشرح صدرك كذلك، ولتقر عينًا وأنت تسمع رسول الله ﷺ يقول: **«طوبى للغرباء: أناس صالحون في أناس سوء كثير من يعصيهم أكثر ممن يُطيعهم»(٣).**

11 مواسم الاستشفاء:

ومواسم الاستشفاء هي الأزمنة التي طرح الله فيها البركة وألقى في ثناياها الرحمة؛ فالشفاء فيها أسهل، والهداية أقرب، والمغفرة أرجى، وطلب الأمن من صاحب الأمان أوقع، والرحمات تنهمر بحيث لو كُشِف الحجاب عن الأبصار لعاينت تنزل الرحمات كالأمطار الغزار، فكم لله فيها عين حُرِّمت على النار، وكم وُضِع فيها من ثقل الأوزار، وكم أُعطي سائلٌ سؤله، وراغبٌ أمله، لذا تغتاظ الشياطين، وتُسرُّ الملائكة، وتنخذل النفس الأمارة بالسوء أمام زحف قوات التقوى، ويجيب داعي الخير الكثيرَ من الخلق ومن أول كلمة، فاغتنم مواسم الأرباح هذه فقد دنا رحيلها، وادخل من أبواب التوبة قبل موعد إغلاقها، وبادر شمس المنية قد لاح إشراقها ، وبالله!! لا تترك هذه الفرصة فتندم!!

ويدخل في هذا: الانغماس في أجواء الاستشفاء فترة من الزمن، والتعرض لسيل مكثف

---

(١) حلية الأولياء ١/ ٢٨٧.

(٢) صحيح : رواه ابن ماجه رقم : ٤٠١٤ وصححه الألباني في الصحيحة رقم : ٤٩٤.

٣) صحيح : رواه أحمد عن ابن عمرو كما في ص ج ص رقم : ٣٩٢١.

من نفحات الحق أثناء موسم من مواسم الخير المنهمر كشهر رمضان كل عام، أو عشر ذي الحجة، أو فترة أقصر كيوم الجمعة من كل أسبوع، وكل هذا يعظِّم مفعول الدواء فيعجِّل بتطهير القلبْ ويُسرِّع بشفائه ببركة هذه الأزمنة المباركة والنفحات الطيبة.

الأزمنة الكريمة عند الله مثل السنين المخصصة للزارعين تكثر بركتها ويفيض نتاجها ويعم خيرها، وكالليالي المقمرة للمسافرين تُطوى لهم فيها الأرض وتُقطع المسافات ويدنو الوصول ويلوح الهدف، فكذلك العامل لله في الأوقات الشريفة تزكو أعماله فيها أضعاف ما تزكو فيما سواها، لأنه سبحانه اصطفاها لعباده من بين غيرها، وهو سبحانه يعطي ما يشاء من يشاء ومتى يشاء.

أخي.. مدَّت مواسم الخير أمواجها بأشهى الفوائد وأنت ما رميتَ شبكتك تصطاد!! فبالله عليك ماذا تصنع موسم القحط؟! إليك تشير وصية العقلاء:

«إن فاتك زمن المدِّ، فمدُّ السيد للسؤال حيلة المفلس»(١).

وليس الأمر مقصورًا على المواسم الفاضلة فحسب، بل يتعدَّاه ليشمل كل ساعات المد الروحي التي تمر بها لتغتنمها في غمر ما مات من أنحاء قلبك وثنايا روحك، وهذه الساعات هي أي ساعة أشرقت عليك فيها أنوار قربه ولذائذ عفوه، واغتنامها بأن تغسل فيها بمياه الخشية ذنبك، وتستنصر الله على من بغى عليك من هواك، و يا الله.. صرخة معناها: ما أسرع نصرته إلى المستنجدين، فمدَّ يديك لتستقي سحُب رحمته، وتتقلَّب في رضوانه، وادع الله أن يُديم عليك النعمة الزائرة ويثبِّت الهداية العابرة، ويُركِّزها في القلب، واسمع وصية العرب تقول:

«اسْرِ وَقَمَرٌ لَكَ»(٢)

أي اغتنم طلوع القمر؛ فسِر في ضوئه ما دام طالعًا قبل أن يغيب فتخبط الظلمة وتضلَّ الطريق، وأنت كذلك اغتنم شروق شمس الهداية في قلبك وبادر غروبها بذلاً وعملاً وجدًّا واجتهادًا قبل أن تُدلي ظلمة الأهواء أستارها.

---

(١) المدهش ص ٢١٨.
(٢) المستقصى في أمثال العرب ١/ ١٥٩.

بادر الفرصة واحذر فوتها فبلوغ العز في نيل الفرص
فابتدر مسعاك واعلم أنَّ مَنْ بادر الصيد مع الفجر قنص

12 السر الدفين:

وهي وصية النبي ﷺ:

«من استطاع منكم أن يكون له خبيء من عمل صالح فليفعل»(١).

فلابد -نعم لابد- لكل مريض أن يكون له عبادة سرية مع الله لا يعلم بها أحد سواه، إنه دواء فوق الدواء، وضمانٌ للشفاء، وتكثيرٌ للحسنات، ودليل الإخلاص ونقاء النيات، وقد حثَّنا الله ورسوله عليه في كل عبادة:

- ففي الذكر: «ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه»، وقول ربنا في الحديث القدسي: «عبدي.. إذا ذكرتني خاليًا ذكرتك خاليًا، وإن ذكرتني في ملأ ذكرتك في ملأ خير منهم وأكبر»(٢).
- وفي الصدقة: «ورجل تصدق بصدقة حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه». عن محمد بن واسع قال: «لقد أدركت رجالاً كان الرجل يكون رأسه مع رأس امرأته على وسادة واحدة قد بل ما تحت خده من دموعه لا تشعر به امرأته، ولقد أدركت رجالاً يقوم أحدهم في الصف فتسيل دموعه على خده ولا يشعر به الذي إلى جانبه».
- وفي الدعاء: قول ربنا: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقال عقبة بن عبد الغافر: «دعوة في السر أفضل من سبعين في العلانية، وإذا عمل العبد في العلانية عملاً حسنًا وعمل في السر مثله قال الله لملائكته: هذا عبدي حقًّا»(٣).

(١) صحيح: رواه الضياء عن الزبير كما في صحيح الجامع رقم: ٦٠١٨.
(٢) صحيح: رواه البيهقي عن ابن عباس كما في صحيح الجامع رقم: ٤٣٢٤.
(٣) حلية الأولياء ٢/ ٢٦١.

- وفي الصوم: قال عيسى ابن مريم عليه السلام: «إذا كان يوم يصوم أحدكم؛ فليدهن لحيته، ويمسح شفتيه، وليخرج إلى الناس حتى كأنه ليس بصائم»[١].
- وفي الصلاة: «صلاة الرجل تطوعًا حيث لا يراه الناس تعدل صلاته على أعين الناس خمسًا وعشرين»[٢]، وقال: «تطوع الرجل في بيته يزيد على تطوعه عند الناس، كفضل صلاة الرجل في جماعة على صلاته وحده»[٣].

الخلوة سلاح ذو حدين

ومن لوازم عبادة السر وجود الخلوة، فالمطلوب منك كي تضاعف أثر دوائك أن تخفيه، وذلك في خلوة من الناس، فإن قضيت خلوتك في معصية الله؛ فقد حوَّلت الدواء إلى وباء، وجعلت من العسل علقمًا.

أخــــي ..

سمكة قوية بين يدي صياد ضعيف، ماذا تتوقع؟! تهرب السمكة وتخطف معها الشبكة!!

والمعنى: الخلوة باب من أبواب الخير؛ لكنها مع الضعيف ثغرة يتسلل منها شيطانه إلى قلبه، فيقلب المكسب إلى أعظم خسارة.

والله الذي يطلع على الأسرار يفضح من يفعل ذلك من الأبرار والفجار. قال حكيم زمانه وواعظ عصره يحيى بن معاذ الرازي:

«من خان الله في السر هتك سره في العلانية»[٤].

يا كاتم السر ومخفيه ... أين من الله تواريه

بارزت بالعصيان رب العُلا ... وأنت من جارك تُخفيه

---

(١) شعب الإيمان ٥/ ٣٥١.
(٢) صحيح: رواه ابن عدي عن صهيب كما في صحيح الجامع رقم: ٣٨٢١.
(٣) صحيح: رواه ابن أبي شيبة عن رجل كما في صحيح الجامع رقم: ٢٩٥٣.
(٤) شعب الإيمان ٥/ ٤٦٠.

يقول الإمام ابن القيم في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾[الطارق:٩].

«في التعبير عن الأعمال بالسر لطيفة، وهو أنَّ الأعمال نتائج السرائر الباطنة، فمن كانت سريرته صالحة، كان عمله صالحًا، فتبدو سريرته على وجهه نورًا وإشراقًا وحياء، ومن كانت سريرته فاسدة، كان عمله تابعًا لسريرته، لا اعتبارًا بصورته، فتبدو سريرته على وجهه سوادًا وظلمة وشينًا، وإن كان الذي يبدو عليه في الدنيا إنما هو عمله لا سريرته، فيوم القيامة تبدو عليه سريرته، ويكون الحكم والظهور لها»(١).

وفي المقابل ينشر الله المسك والريحان والنور والإيمان لكل من أطاعه في السر، واسمع خبر محمد بن أسلم:

«وقيل لأحمد بن نصر: يا أبا عبد الله!! صلى عليه ألف ألف من الناس قال بعضهم: ألف ألف ومائة ألف من الناس؛ يقول صالحهم وطالحهم: لم نعرف لهذا الرجل نظيرًا، فقال أحمد بن نصر: «يا قوم أصلحوا سرائركم بينكم وبين الله، ألا ترون رجلاً دخل بيته بطوس فأصلح سره بينه وبين الله، ثم نقله الله إلينا فأصلح الله على يديه ألف ألف ومائة ألف من الناس»(٢).

وخبر معروف في هذا الشأن معروف؛ قال عنه ابن الجوزي:

«فهذا معروف؛ كان منفردًا بربه، طيِّب العيش معه، لذيذ الخلوة به، ثم قد مات منذ نحو أربعمائة سنة، فما يخلو أن يُهدى إليه كل يوم ما تقدير مجموعة أجزاء من القرآن، وأقله من يقف على قبره فيقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ويُهديها له، والسلاطين تقف بين يدي قبره ذليلة؛ هذا بعد الموت، ويوم الحشر تُنشر الكرامات التي لا توصف»(٣).

ويشرح وهب بن منبِّه العلاقة الوطيدة بين السر والعلانية؛ والصلة الخفية بين الخلوة والجلوة، ويبيِّن قدر كل منهما ودرجته بالنسبة إلى أخيه في قوله:

«ولا تظن أن العلانية هي أنجح من السريرة، فإنَّ مثل العلانية مع السريرة، كمثل ورق الشجر مع عرقها، العلانية ورقها، والسريرة عرقها، إن نُخِر العرق هلكت الشجرة كلها، ورقها وعودها،

(١) التبيان في أقسام القرآن ١/ ٦٤.

(٢) حلية الأولياء ٩/ ٢٤٠، ٢٤١.

(٣) صيد الخاطر ص ٢٨٦.

وإن صلحت صلحت الشجرة كلها، ثمرها وورقها، فلا يزال ما ظهر من الشجرة في خير ما كان عرقها مستخفيًا، لا يُرى منه شيء، كذلك الدين لا يزال صالحًا ما كان له سريرة صالحة، يصدق الله بها علانيته، فإن العلانية تنفع مع السريرة الصالحة، كما ينفع عرق الشجرة صلاح فرعها، وإن كانت حياتها من قبل عرقها، فإن فرعها زينتها وجمالها، وإن كانت السريرة هي ملاك الدين، فإنَّ العلانية معها تزيِّن الدين وتجمِّله، إذا عملها مؤمن لا يريد بها إلا رضاء ربه عز وجل»[١].

للخلوة ست فوائد

والخلوة من أنجع الوسائل في رؤية عيوب النفس ومعرفة آفاتها. قال ابن الجوزي:

«فعليك بالعزلة والذكر والنظر في العلم، فإن العزلة حمية، والفكر والعلم أدوية، والدواء مع التخليط لا ينفع، وقد تمكنت منك أخلاط المخالطة للخلق والتخليط في الأفعال، فليس لك دواء إلا ما وصفت لك، فأما إذا خالطت الخلق وتعرَّضت للشهوات، ثم رُمْت صلاح القلب رُمتَ الممتنع»[٢].

والخلوة تكون بذلك بابًا من أبواب التوبة، وقد لمح هذا المدخل مقتفي الأثر الماهر أبو الفرج ابن الجوزي حيث أدهشنا في كتابه المدهش (المدهش) بهذا الفضل فقال:

«خُلِق قلبك صافيًا في الأصل، وإنما كدَّرته الخطايا، وفي الخلوة يركد الكدر»[٣].

ولذا جعلها يحيى بن معاذ من أبرز علامات التوبة الصادقة والمميزة لها عن التوبة الكاذبة، فقال: «وعلامة التائب: إسبال الدمعة، وحب الخلوة، والمحاسبة للنفس عند كل همة»[٤].

وأوصى بها وريث الأنبياء ودرة الأتقياء الحسن البصري آمرًا كل تائب: «وابكِ في ساعات

---

(١) الحلية ٤/ ٧٠.
(٢) صيد الخاطر، ص ٣٩.
(٣) المدهش ص ٢٠٧، ٢٠٨.
(٤) صفة الصفوة ٤/ ٩٠.

الخلوة لعل مولاك يطلع عليك، فيرحم عبرتك، فتكون من الفائزين»[١].

- **والخلوة** وسيلة إلى اقتناص خواطر الخير وصيد الأفكار الجيدة التي لا ترد في الزحام وبين الناس؛ كما حكى تجربته في ذلك الإمام أبو سليمان الخطابي فقال:

إذا خلوتُ صفا ذهني وعارضني ... خواطرٌ كطراز البرق في الظلم
وإن توالى صياح الناعقين على ... أذني عرتني منه لكنة العجم[٢]

وكما قال آخر:

وأطيب أوقاتي من الدهر خلوة ... يقرُّ بها قلبي ويصفو بها ذهني
ويأخذ لي من سورة الفكر نشوة ... فأخرج من فنٍّ وأدخل في فنٍّ
ويفهم ما قد قال عقلي تصوري ... فنقلي عن أذني وسمعي بها مني
وأسمع من نجوى الدفاتر طُرفة ... أزيل بها همي وأجلو بها حُزني
يسامرني قوم لديَّ حديثهم ... فما غاب منهم غير شخصهم عني

- **والخلوة** ميزان دقيق يقيس به العبد إيمانه ويعرف صدقه وإخلاصه. قال ابن القيم: «من فقد أنسه بالله بين الناس ووجده في الوحدة فهو صادق ضعيف، ومن وجده بين الناس وفقده في الخلوة فهو معلول، ومن فقده بين الناس وفي الخلوة فهو ميت مطرود، ومن وجده في الخلوة وفي الناس فهو المحب الصادق القوي في حاله»[٣].

- **والخلوة** طريق موصل إلى محبة الله كما قال ذلك ابن القيِّم في الوسيلة الثامنة من أصل عشرة لنيل هذا الشرف:

«الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة»[٤].

ونصيب كل منا من هذا الحب حسب مقدار خلوته وإخلاص نيته، وفي ذلك فليتنافس

---

(١) الرقة والبكاء ص ٥٥.
(٢) الإمام الخطابي رائد شرّاح البخاري ص٢٥ – ملحق مجلة الأزهر عدد ذي الحجة ١٤١٣هـ.
(٣) الفوائد ص ٤٣.
(٤) مدارج السالكين ٣/ ١٧.

المحبون. قال ابن الجوزي:

«الخلوة شرك لصيد المؤانسة، فأخفى الصيادين شخصًا وأقلهم حركة أكثرهم التقاطًا للصيد، ما صاد هرًّا صاح»[(١)].

- **والخلوة** عند بعض أطباء القلوب من بعض ثمن الجنة، فقد قال يحيى بن معاذ وقد سُئل يومًا: ما العبادة؟! فقال: «حرفة حانوتها الخلوة وربحها الجنة»[(٢)].

- **والخلوة** تكون أسهل في اعتكاف رمضان أو رحلة عمرة أو حج، لكنها تحتاج إلى مجاهدة أشد واهتمام أكبر في أي وقت غير هذا؛ لأنك عندها تنتزع نفسك من وسط أعبائك واهتماماتك وأموالك وعيالك لتجمع همك على الله وحده، وقد يمل الإنسان الخلوة، وهو ما نقله العلامة الخطابي عن أحد الحكماء وهو يشرح لماذا يمل الإنسان من الجلوس وحده، فقال:

«قال بعض الحكماء: إنما يستوحش الإنسان بالوحدة لخلاء ذاته، وعدم الأفضلية من نفسه؛ فيتكثر حينئذٍ بملاقاة الناس، ويطرد الوحشة عن نفسه بالكون معهم، فإذا كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة ليستعين بها على الفكرة، ويتفرَّغ لاستخراج الحكمة»[(٣)].

ابتداء وانتهاء

فإذا حصَّلت الخلوة وتلذَّذت بها ارتقيت ولابد إلى مرتبة أخرى!! إليها أشار أبو سليمان الداراني حين قال له أحمد بن أبي الحواري: صليتُ في الخلوة، فاستلذذت بها لأنه لم يطلع عليَّ أحد، فقال له أبو سليمان: إنك لضعيف حيث خطر ببالك غيره.

ولذا كان أكمل الأحوال أن يكون الإنسان والجدار عندك سواء، وأما من كان في حالة الابتداء فكتمان العبادات له أنفع لأنه لم تتهذب له نفسه بعد، ولهذا أشار أبو سليمان إلى تلميذه بأنه ضعيف.

---

(١) المدهش ص ٥٢٣.
(٢) صفة الصفوة ٤/ ٩٧.
(٣) العزلة ص١٧.

13 أنفق يُنفق عليك:

إن كل دواء سيأتي ذكره في باب (جرعات الدواء) إذا صاحب تعاطيك له دعوة غيرك إلى تناوله والأخذ به؛ كان ذلك عاملاً مساعدًا على تعظيم أثر الدواء على قلبك أيها الداعي ومضاعفة أثره ومفعوله، فإذا وفَّقك الله لطاعته، وحفظك من مواطن الزلل، فاعلم أن لهذه النعمة تبعات، وهذه التبعات هي شكر هذه النعمة، وهذا الشكر يتمثل في دعوة الآخرين للنجاة، أما كفر هذه النعمة فهو: الاغترار بحالك، وعدم الاكتراث بنجاة من حولك، وعندها قد تنزع منك نعمة الهداية، فرُبَّ جيد لا يليق به العقد فيُخلع، ورُبَّ أرض أجدبت بعد الزرع فتُهجر!!

الدعوة كذلك تزيد مناعة الجسم الإيمانية وتحميه من السقوط في المستقبل، فيدعو الداعية نفسه وهو يدعو غيره، ويعظ قلبه مع قلوب مستمعيه، بل إن من أصابه المرض فترة تصبح فرصته أكبر في شفاء غيره وهدايته، وكيف لا وقد عرف الداء بنفسه وعانى منه بقلبه، ثم حافظ على جرعات الدواء ومرَّ بكل مراحل الشفاء حتى برئ. قال ابن القيِّم مبرهنًا ومؤكِّدًا:

«يصير كالطبيب ينتفع به المرضى في علاجهم ودوائهم، والطبيب الذي عرف المرض مباشرة وعرف دواءه وعلاجه أحذق وأخبر من الطبيب الذي إنما عرفه وصفا؛ هذا في أمراض الأبدان وكذلك في أمراض القلوب وأدوائها، وهذا معنى قول بعض الصوفية: أعرف الناس بالآفات أكثرهم آفات، وقال عمر بن الخطاب: إنما تُنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية، ولهذا كان الصحابة أعرف الأمة بالإسلام وتفاصيله وأبوابه وطرقه، وأشد الناس رغبة فيه ومحبة له وجهادًا لأعدائه، وتحذيرًا من خلافه لكمال علمهم بضده، والمقصود أن من بُلي بالآفات صار من أعرف الناس بطرقها، وأمكنه أن يسدَّها على نفسه وعلى من استنصحه من الناس ومن لم يستنصحه»[1].

والتائب من الذنب أصدق لهجة في الدعوة وأقوى حجة في الإقناع لأن من ذاق الحلاوة كره المرارة، بل حذَّر غاية التحذير منها لأنه سبق واكتوى بنارها من قبل؛ فصار يصيح في

---

(١) مفتاح دار السعادة ص٣٣٦ – الجزء الأول – ط دار الحديث بتصرف.

الطرقات يحذِّر الغافلين وينذر المغترين، وصدق سهل بن عبد الله حين جزم قاطعًا بأنه:

«لا يعرف الرياء إلا مخلص، ولا يعرف النفاق إلا مؤمن، ولا يعرف الجهل إلا عالم، ولا يعرف المعصية إلا مطيع»[(١)].

العدو الصديق!!

يا صاحب المروءة.. يا أبيًّا لا يقبل الضيم.. يا من استزله الشيطان ببعض ما كسب:

ساعَدَك شيطانك من حيث أراد أن يغويك، وهداك من حيث أراد أن يضلك، وثقَّل ميزان حسناتك من حيث قصد إثقال كفة السيئات، فإن «القلب يكون ذاهلا عن عدوه معرضًا عنه مشتغلاً ببعض مهماته؛ فإذا أصابه سهم من عدوه استجمعت له قوته وحاسته وحميته، وطلب بثأره إن كان قلبه حرًّا كريمًا؛ كالرجل الشجاع إذا جُرِح فإنه لا يقوم له شيء، بل تراه بعدها هائجًا طالبًا مقدامًا، والقلب الجبان المهين إذا جُرِح كالرجل الضعيف المهين إذا جُرِح ولى هاربًا والجراحات في أكتافه، وكذلك الأسد إذا جُرِح فإنه لا يطاق، فلا خير فيمن لا مروءة له يطلب أخذ ثاره من أعدى عدوه، فما شيء أشفى للقلب من أخذه بثأره من عدوه، ولا عدو أعدى له من الشيطان، فإن كان قلبه من قلوب الرجال المتسابقين في حلبة المجد جدَّ في أخذ الثأر، وغاظ عدوه كل الغيظ وأضناه»[(٢)].

وصدق محمد إقبال وهو يخلب الألباب بعباراته، ويُدمي القلوب بإشاراته قائلاً:

كم عدوٍّ لك في الحق صديق ... أنت بالأعداء ذو غصن وريق

يوقِظ الخصم قواك الهاجدة ... مثل ما تُحيي المواتَ الراعدة[(٣)]

ومن هنا أتوجه بهذه النصيحة للكل: المرضى والأصحاء، والضعفاء قبل الأقوياء، والسائرين في بداية الطريق والبالغين منتهاه، والمتمتعين بالعافية الإيمانية واللذين لا يزالون

---

(١) شعب الإيمان ٥/ ٣٤٩.

(٢) مفتاح دار السعادة ص ٢٩٥.

(٣) ديوان الرموز والأسرار ص٤٧.

يتعثرون في حبائل الشيطان، وأدعوهم جميعًا للبذل والعطاء والكرم والسخاء، وآمرهم بما أمرهم به **ابن عطاء الله السكندري** حين قال:

«لينفق ذو سعة من سعته: الواصلون إليه،
ومن قدر عليه رزقه: السائرون إليه»[1].

رحم الله **ابن عطاء**، فكلماته كالقمر في الضياء، لكن الشمس أضوأ، والشمس هنا هي حديث رسولنا ﷺ: **«بلِّغوا عني ولو آية»**[2].

أخي.. **كن ذكيًّا وأقبل على ما ينفعك واعتبر هذه الوصية دعوة إلى تكثير أجرائك من إخوانك اليوم، ليعملوا لك ولحسابك لتحصد أنت من ورائهم الخير والثواب والربح والجنة. قال أحمد بن حرب: «مثل الذي يعلم الناس الخير ويرشدهم إليه مثل من استأجر أجراء يعملون له بأبدانهم وأموالهم الليل والنهار في حياته وبعد مماته»**[3].

وهل تاجر أخروي ورابح رباني مثل العالم المجاهد **عبد الله بن المبارك**؟! الذي لم يضيِّع لحظة واحدة في غير خير وبر، ولا خير مثل الدعوة إلى الله، ولا بر أبرَّ من إنقاذ الناس من الضلال، وذلك لما حضرت الوفاة **عبد الله بن المبارك** جعل رجل يُلقِّنه: قل: لا إله إلا الله، فأكثر عليه، فقال: «إنك ليس تُحسن، وأخاف أن تؤذي بها رجلاً مسلمًا بعدي، إذا لقنتني فقلتُ: لا إله إلا الله، ثم لم أُحدِث كلامًا بعدها فدعني، فإذا أحدثتُ كلامًا بعدها فلقِّنِّي حتى تكون آخر كلامي»[4].

وتذكر أنك إن لم تُزِل الفخ سقطت فيه

---

(١) شروح الحكم العطائية ص ١٦٦.

(٢) صحيح: رواه أحمد والبخاري والترمذي عن ابن عمرو كما في صحيح الجامع رقم: ٢٨٣٧. قال المعافى النهرواني في كتاب الجليس: «الآية في اللغة تطلق على ثلاثة معانٍ: العلامة الفاصلة والأعجوبة الحاصلة والبلية النازلة، فمن الأول: قوله تعالى: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾، ومن الثاني: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾، ومن الثالث: جعل الأمير فلانًا اليوم آية، ويجمع بين هذه المعاني الثلاثة أنه قيل لها آية لدلالتها وفصلها وإبانتها». فتح الباري ٦/ ٤٩٨.

(٣) تنبيه المغترين ص٤٨.

(٤) مختصر تاريخ دمشق ١٤/ ٣٠ - ط دار الفكر عام ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م - تحقيق سكينة الشهابي.

بمعنى أنك إن لم تُزِل أسباب التعثر وقعت، وإن لم تقطع أسباب الهلاك هلكت، وإن لم تسعَ في القضاء على موارد العَطَب.. أُخِذتَ، وإن سمحت للمنكرات أن تنتشر حولك فسيعم الوباء الذي سينالك رذاذه يومًا ما ولابد.

14 دواء الملول:

وذلك أن النفس بطبيعتها ملولة لا تستطيع الإقامة على دواء واحد دون تغير؛ لذا كان من رحمة الله بنا أن يسَّر لنا ألوانا من العبادات تتقلَّب بينها النفس المؤمنة، فلا يفتر عزمها، ولا يكلُّ سعيها، كما أدرك ذلك ابن عطاء فأرشدنا إليه في قوله:

«لما علم الحق منك وجود الملل؛ لوَّن لك الطاعات»[(١)].

والنفوس ليست نسخًا متشابهة، وكما تختلف البصمات تختلف أيضًا الملكات والميول والرغبات، ولنتعلم من الإمام مالك الذي كتب إليه عبد الله القمري العابد الزاهد يحضه على الانفراد والتفرُّغ للعبادة فكتب إليه الإمام بحنكة الخبير وتجارب الحكيم قائلاً:

«إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فرُبَّ رجل فُتِح له في الصلاة، ولم يُفتح له في الصوم، وآخر فُتِح له في الصدقة، ولم يُفتَح له في الصوم، وآخر فُتِح له في الجهاد، فنشر العلم أفضل أعمال البر، وقد رضيتُ بما فُتِح لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر»[(٢)].

واسمع إلى فقه محمد بن المنكدر وسلوكه طريق التنويع واسلكه كما سلكه ثم أخبرك بما وجده في النهاية قائلاً:

«بات أخي عمر يصلي، وبِتُّ أغمِّز قدم أمي، وما أُحِبُّ أن ليلتي بليلته»[(٣)].

وليس التنويع مطلوبًا في ميدان الأعمال فحسب بل يتعدَّاه إلى ميدان العلوم كذلك،

---

(١) شروح الحكم العطائية ص ٢٥٠.
(٢) سير أعلام النبلاء ٨/ ١١٤.
(٣) سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٥٩.

وصدق الشاعر إذ يقول:

احرص على كل علم تبلغ الأملا ... ولا تواصل لعلم واحد كسلا

النحل لما رعت من كل فاكهة ... أبدت لنا الجوهرين: الشمع والعسلا

الشمع بالليل نور يُستضاء به ... والشهد يُبري بإذن البارئ العللا[١]

ودواء الملول إما أن يكون تناول دواء آخر وعدم التركيز على دواء واحد فحسب، وإما بالترفيه عن النفس بشيء من المباح مستصحبًا معه نية صالحة، فأما الدواء الأول فلابد أن يكون لديك دومًا خطة إنقاذ بديلة تلجأ إليها عند استخدامك لدواء وتكرارك له مع فشلك في الانتفاع به، وعندها يكون اللجوء إلى دواء ثاني وثالث هو الحل السريع.

وأما **الدواء الثاني** للملل فهو من قبيل ما ورد عن **كعب بن عجرة** قال: مرَّ على النبي ﷺ رجلٌ، فرأى أصحاب النبي ﷺ من جلَده ونشاطه ما أعجبهم، فقالوا: يا رسول الله.. لو كان هذا في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: **«إن كان خرج يسْعى على وَلَده صغارًا فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يُعِفُّها فهو في سبيل لله، وإن كان خرج يسعى رياءً ومُفاخَرَةً فهو في سبيل الشيطان»**[٢].

التفاعل مع سنة الفترات

الفتور: انكسار وضعف، إشارة إلى أن هذا الضعف قد سُبق بقوة، وذلك الانكسار تقدمته صلابة، ولهذا قال علماء اللغة: «فتر: أي سكن بعد حِدّة، ولان بعد شِدّة»[٣].

ولعل من حكمة وقوع الفتور لك أن تعلم قدر النعمة التي سُلِبت منك، فإذا ما رجعت يومًا إليك احتضنتها بقوة عالما قدرها غير مفرِّط فيها أو مضيِّع. قال ابن عطاء:

«رُبَّما وَرَدَت الظُّلم عليك، ليُعرِّفك قدر ما مَنَّ به عليك»[٤].

---

(١) درة الحجال ٣/ ٤٩.

(٢) صحيح: رواه الطبراني والبيهقي في شعب الإيمان عن كعب بن عجرة كما في صحيح الجامع حديث رقم: ١٤٢٨.

(٣) لسان العرب ١٠/ ١٧٤.

(٤) الحكم العطائية ص ٧٠ – ط دار السلام – ط الأولى لعام ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

والآن.. خذوا هذه الكلمات من الإمام ابن القيم وهو يمارس فن الوعظ، ويصوغ الهداية على شكل عبارة، فيدهش العقول ويطمئن القلوب بقوله:

«تخلل الفترات للسالكين أمر لازم لا بد منه، فمن كانت فترته إلى مقاربة وتسديد، ولم تخرجه من فرض، ولم تُدخِله في محرَّم رُجِي له أن يعود خيرًا مما كان»[١].

لكن غيوم الفتور أنواع وهي ليست على درجة واحدة، بل تختلف على حسب درجة الإيمان؛ «منها ما يكون سريع الحصول سريع الزوال، ومنها ما يكون سريع الحصول بطيء الزوال، ومنها ما يكون بطيء الحصول سريع الزوال، ومنها ما يكون بطيء الحصول بطيء الزوال»[٢].

15 ارتدِ العدسة المصغِّرة:

أخي.. سحائب شفائك قد أبرقت، فليكن وابلها سالمًا من صواعق العجب، وقد جُبِلت النفس على إحسان الظن بحالها، وتزكية عملها، والخنفساء تسمي بنتها القمر، ولا يتم شفاء أو يؤثِّر دواء إلا باستصغار عملك الصالح ورؤيته صغيرًا في جنب الله، وقد قيل: الإحساس بالتقصير أولى درجات الكمال.

بل يقرِّر **ابن عطاء** أن أشفى جرعة دواء وأقربها إلى القبول وإحداث الأثر هي التي مُزِجت بسطور هذه الوصية. قال رحمه الله:

«لا عمل أرجى للقبول من عمل يغيب عنك شهوده، ويُحتَقَر عندك وجوده»[٣].

ومما يعينك على هذه الرؤية الخوف من الاستدراج، وقدوتك في ذلك **أحمد ابن حنبل**. قال **الخلال**: «قلت لأبي عبد الله: ما أكثر الدَّاعي لك!

قال: أخاف أن يكون هذا استدراجًا، بأيِّ شيء هذا؟

وقلت له: قدم رجل من طرسوس، فقال: كنَّا في بلاد الرُّوم في الغزو إذا هدأ الليل،

---

(١) مدارج السالكين ٣/ ١٢٦.
(٢) الفوائد ١/ ١٩٥.
(٣) شرح الحكم العطائية ص ١٨٩.

رفعوا أصواتهم بالدُّعاء، ادعوا لأبي عبدالله، وكنا نمد المنجنيق ونرمي عنه، ولقد رُمي عنه الحجر والعلج على الحصن مترِّس بدرقة فذهب برأسه وبالدرقة، فتغيَّر وجهه وقال: ليته لا يكون استدراجًا، فقلت: كلا»(١).

ومما يعينك على هذه الرؤية رؤية العون الإلهي. جاء في دعاء ابن الجوزي:

«اللهم إنك افترضت علينا ما لا نطيق أداءه إلا بتوفيقك؛ فوفِّقنا لأداء ما افترضته، وحرَّمت علينا ما لا نمتنع من مواقعته إلا بحفظك فاحفظنا عن مواقعة ما حرَّمته؛ فلا نعتمد إلا عليك»(٢).

فوالله لولا الله يُسعد عبده بتوفيقه والله بالعبد أرحم
لما ثبت الإيمان يومًا بقلبه على هذه العلات والأمر أعظم
ولا طاوعته النفس في ترك شهوة مخافة نار جمرها يتضرَّم
ولا خاف يومًا من مقام إلهه عليه بحكم القسط إذ ليس يظلم

قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩-٧٠]، وتأمل قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ مما يفيد الحصر، ومع أن فضل الله أنواع وألوان، ولكن أُريد هنا المبالغة في قوة هذا الفضل بالذات حتى وكأنه الفضل الوحيد لتخشع النفس وتذل ولا تغتر.

هذا الفضل الذي لو غاب لاندثر الخير وانقرض واختفى الهدى من على وجه الأرض واحتضر: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١].

أخذ ابن القيم الآية السابقة وأسقط معناها على أجل العبادات وأشرفها وهي عبادة الذكر معلنًا أنك ليس لك فيها أدنى فضل إن رُزِقتها بل هو الذي دفعك لذكره واختارك لقربه.

---

(١) تاريخ الإسلام ١١/ ٢١١.
(٢) التذكرة في الوعظ ص ٥٨.

قال رحمه الله: «وذكر العبد لربه محفوف بذكرين من ربه له: ذكر قبله به صار العبد ذاكرًا له، وذكر بعده به صار العبد مذكورًا كما قال تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٢]»[١].

ومما يعينك على هذه الرؤية وضع النفس دومًا في قفص الاتهام، وهو ما سماه ذو النون بإنصاف الرب فقال: طوبى لمن أنصف ربه عز وجل. قيل: وكيف يُنصِف ربه؟ قال: «يُقِرُّ له بالآفات في طاعته، وبالجهل في معصيته، وإن آخذه بذنوبه رأى عدله، وإن غفر له رأى فضله، وإن لم يتقبل منه حسناته لم يره ظالمًا لما معه من الآفات، وإن قبلها رأى إحسانه لما جاد به من الكرامات»[٢].

ومما يعينك على هذه الرؤية الخوف من الخاتمة. قال خير النساج: «لا نسب أشرف من نسب من خلقه الله بيده فلم يعصمه، ولا علم أشرف من علم من علَّمه الله الأسماء كلها فلم ينفعه في وقت جريان القدر والقضاء عليه، ولا عبادة أتم ولا أكثر من عبادة إبليس؛ فلم يُنجِه ذلك من المسبوق عليه»[٣].

ومما يعينك على هذه الرؤية عقد المقارنة مع السابقين وقراءة قصص الصالحين والتنزه في كتب التراجم والسير، مما يورثك معرفة قدر نفسك إن كان قد أوقعك في الغرور طول المكث بين من هو أدنى منك إيمانًا وأقل تقوى.

(١) المدارج ٢/ ٤٣٣.

(٢) حلية الأولياء ٩/ ٣٦٦

(٣) طبقات الصوفية ص ٣٢٨ - أبو عبد الرحمن السلمي - تحقيق نور الدين شريبة - ط مكتبة الخانجي ط ٢ لعام ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م

٦

جرعات الدواء

رُدَّ إليَّ روحي

غرس الأرض بالخيرات

على عتبة هذا الباب:

- إن كنت قد حرست الأبواب الستة للقلب؛ ووضعت عليها الحراسات المشددة، فإن ذلك وحده ليس كافيًا، فلابد لك بعد التخلية من تحلية، ومن غرس الأرض بالخيرات بعد تطهيرها من الآفات، لأن زكاة القلب معنى زائد على طهارته، والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣]، وزكاة القلب هي مقصودنا وهدفنا في هذا الباب.
- الدواء على الرف، والشفاء في متناول اليد، وما لم يقع السهم في مقتل فالعلاج في الإمكان.
- أنت من تصنع دواءك في البداية، ثم دواؤك هو من يشفيك بإذن الله في النهاية.
- لا يوجد إنسان فاسد، بل يوجد إنسان يجهل مواطن الصلاح فيه.
- كل مريض ليس له هدف مثل سفينة ليس لها رُبّان كلاهما ينتهي به الأمر إلى القاع.
- احذر: كيف ترجو الشفاء دون أخذ الدواء؟! كيف يدوم اللهب دون حرق الحطب؟! كيف يكون علم دون وجود عمل؟! وهل يُسمَّى العلم في هذه الحالة علمًا؟! قال الحسن في قوله تعالى: ﴿ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ﴾ [الأنعام: ٩١]:

«عُلِّمتم فعلِمْتُم ولم تعملوا، فوالله ما ذلكم بعلم»[١].

- إياك أن تقول حاولت وفشلت، فكلمة المحاولة هنا مرادفة لكلمة الكذب لأنها تبرير للفشل وتقديم للعذر ورفع لراية الاستسلام أمام أول هجمة من هجمات الشيطان.

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ص ٧٠٦.

- إن لم تتناول دواء فلا تشرب سمًّا، إن لم تبْنِ فلا تهدم، إن لم تُطِع فلا تعصِ، فإن عصتك نفسك في الطاعة فلم تطاوعك، فاعصها أنت في المعصية ولا تطاوعها.

- ورود الإمداد بحسب الاستعداد: وهي حكمة عطائية تعني أن كل جرعة مقدارها يختلف على حسب استعداد صاحبها، وتهيئته لقلبه، وحالة روحه، ومن قال لا أستطيع تناول جرعة دواء فلن ذلك يستطيع بالفعل؛ لأنه خسر المعركة مع نفسه قبل أن تبدأ معركته مع عدوه، فوفَّر على الشيطان مشقة اللقاء، وأسعده باستعداده الهزيمة.

- المجتمع محراب التعبد، والأصل في المؤمن أن يكون غُدُوه ورواحه لله كما في آية الأنعام: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، وعلى هذا فالثواب المترتب على إتقان عمل وقضاء مصالح الخلق ليس بعيدًا عن ثواب أداء عبادة واجبة أو صلاة راتبة.

- مَرَّ رجلٌ على حذيفة بن اليمان ﷺ وحوله فتيانٌ جلوس، فقال: ما لهؤلاء الأحداث حولك؟! فقال: «وهل الخير إلا في الشباب؟! أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾، وقوله: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ ﴾. وقوله: ﴿ قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا ﴾، وإن الله لم يبعث نبيًّا إلا وهو شاب»[1].

أخي.. قد تُشفى عند كبرك ولكنه شفاء بعد ذهاب الصحة وزوال العافية، وعندها تطلب العمل في موسم الخريف بعد أن تساقطت أوراق العمر وذبلت أزهاره، فلا تسعفك قوتك وتخونك صحتك، فتعرف عندها قيمة شبابك المنقضي. وثمن عمرك الضائع، لتردِّد في توجع قصيدة رثاء مع الشاعر الذي ما تاب إلا بعد ما شاب، وما أفاق حتى بلغت التراق. فقال باكيًا:

---

(١) تنبيه مغترين ص ٤٠ - عبد الوهاب الشعراني - ط مصطفى البابي الحلبي.

مـرَّ الشبـاب فلـم أقـدر أرجِّعـه ‏ ‏ ‏ ولم أُحيِّه إلا بعـد مـ نصـرف

والمرء يجهل قدر الشيء يُمكنه ‏ ‏ ‏ حتى إذا فاته إمكنه عرف

ويحك أخي الشاب.. تقدَّم واعصر عمرك عصرًا، واستخلص منه كل خفقة فرغة. وقدِّم لنفسك من البر ولو ذرة، واذكر أن الأنفاس أمانات وودائع لديك، واعلم كذلك أن اليوم فيه مئات فرص الشفاء وهي تمُرُّ بك مَرَّ السحاب تنتظر براعة المقتنص ويقظة النبيه، فاربح نفسك اليوم باستغلال جميع أوقاتك وإمكاناتك قبل أن تُنزع غدًا إلى قبرك.

أتُنفق العمر في الدنيا مجازفةً ‏ ‏ ‏ والمال يُنفق فيها بالموازين

تقديم ابن القيم

قال ابن القيِّم وهو يُشرِّفنا بمشاركته في تقديم هذا الباب:

«ها هنا من الأدوية التي تشفي من الأمراض ما لم يهتدِ إليها عقول أكابر الأطباء، ولم تصل إليها علومهم وتجاربهم وأقيستهم من الأدوية القلبية والروحانية، وقوة القلب واعتماده على الله، والتوكل عليه، والالتجاء إليه، والانطراح والانكسار بين يديه، والتذلل له، والصدقة، والدعاء، والتوبة والاستغفار، والإحسان إلى الخلق، وإغاثة الملهوف، والتفريج عن المكروب، فإن هذه الأدوية قد جرَّبتها الأمم على اختلاف أديانها ومللها، فوجدوا لها من التأثير في الشفاء ما لا يصل إليه علم أعلم الأطباء ولا تجربته ولا قياسه، وقد جرَّبنا نحن وغيرنا من هذا أمورا كثيرة، ورأيناها تفعل ما لا تفعل الأدوية الحسية»[1].

معارج
مرقاة لثقافة مؤصلة

(١) زاد المعاد بتصرف ٤/ ٩.

جرعات الدواء

القاعدة هنا: من صبر على مرارة الدواء عوفي، وأمامك الآن عشرة جرعات لا تدري في أيها الشفاء؛ لذا ينصحك الأطباء أن تجرِّبها كلها، ولا خطورة من زيادة أي جرعة بل هي على العكس: مستحبة وأنفع إن شاء الله...

والآن مع أولى هذه الجرعات...

وهي:

أولا:
عشارية القرآن

قال الله عز وجل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [محمد: ٢٤] إنه الاستفهام التعجبي الاستنكاري من عدم تناول الدواء مع توفره وعظيم أثره وسرعة مفعوله، فلم يكتف الله بإنزال الدواء فحسب بل أنزل هذه الآية لحثّ الناس على تناوله، ووالله لولا ذلك لكلّت الألسُن عن تلاوته وغفلت القلوب عن أنواره.. ألا ما أرحم الله بنا وأحرصه علينا.

يقول سيد قطب عن هذه الآية:

«ويتساءل في استنكار: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، وتدبر القرآن يزيل الغشاوة، ويفتح النوافذ، ويسكب النور، ويحرِّك المشاعر، ويستجيش القلوب، ويخلص الضمير، وينشئ حياة للروح تنبض بها وتشرق وتستنير ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا !﴾ فهي تحول بينها وبين القرآن وبينها وبين النور؟ فإن استغلاق قلوبهم كاستغلاق الأقفال التي لا تسمح بالهواء والنور!»[1].

بل يرى ابن القيِّم قراءة القرآن أنفع الأدوية وأنجعها في علاج القلب، فلم ينزل الله سبحانه من السماء شفاء قط أعمّ ولا أنفع ولا أعظم في إزالة الداء من القرآن، فقال في كلام جليل كأنما أُوحي به إليه:

«وبالجملة فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر، فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة والتي بها فساد القلب وهلاكه»[2].

---

(١) في ظلال القرآن.

(٢) مفتاح دار السعادة ص ٢٣٠ - الجزء الأول - ط دار الحديث.

ويرى ابن القيم أيضًا أن كل ما على المسلم أن يفعله لعلاج قسوة قلبه: **أن يقبل على القرآن** فيقول: «ملاك ذلك كله: أمران: أحدهما: أن تنقل قلبك من وطن الدنيا فتسكنه في وطن الآخرة، ثم تقبل به كله على معاني القرآن واستجلائها، وتدبر وفهم ما يراد منه، وما نزل لأجله، وأخذ نصيبك من كل آياته، تنزلها على داء قلبك، فهذه طريق مختصرة قريبة سهلة موصلة إلى الرفيق الأعلى»(١).

ولأهمية دواء القرآن داوم عليه الصالحون حتى في أحلك الظروف، فلما وقعت في رجل عروة بن الزبير الآكلة، فقال له الوليد بن عبد الملك: اقطعها. قال: لا، فترقَّت إلى ساقه، فقال الوليد: اقطعها وإلا أفسدت جسدك، فقُطعت بالمنشار وهو يسبِّح لم يمسكه أحد، فقال: لقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا، ولم يدع وِرْدَه تلك الليلة!!(٢)

ولأهمية هذا الدواء حافظوا عليه حتى آخر لحظات الحياة، وتشبثوا به وهم يودِّعون الدنيا، لعلمهم أنه ليس بعدها إلى هذا الدواء سبيل، وليس في الدار المنتقَل إليها قطرة واحدة منه، وهذا ما فهمه الجنيد وعمل بمقتضاه. قال أبو محمد الجريري: كنتُ واقفًا على رأس الجنيد في وقت وفاته، وكان يوم جمعة وهو يقرأ القرآن فقلت: له يا أبا القاسم.. ارفق بنفسك قال: «يا أبا محمد.. ما رأيتُ أحوج إليه مني في هذا الوقت وهو ذا تُطوى صحيفتي»(٣).

أيكم سجد؟!

ويكمل شهيد القرآن سيد قطب مشاركته في كتابنا ويحكي تأثره بسورة النجم محاولاً معرفة سِر سجود المشركين بعد قراءة الرسول ﷺ لهذه السورة وهم على شركهم كما ورد في الحديث الصحيح فيقول:

«كنت بين رفقة نسمر حينما طرق أسماعنا صوت قارئ للقرآن من قريب يتلو سورة النجم، فانقطع بيننا الحديث لنستمع وننصت للقرآن الكريم، وكان صوت القارئ مؤثرًا

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٢٨.
(٢) الاعتبار والأحزان ص ٥٥.
(٣) تاريخ بغداد ٧/ ٢٤٨.

وهو يرتّل القرآن ترتيلاً حسنًا.

وشيئًا فشيئًا عشت معه فيما يتلوه؛ عشت مع قلب محمد ﷺ في رحلته إلى الملأ الأعلى.

عشت معه وهو يشهد جبريل - عليه السلام - في صورته الملائكية التي خلقه الله عليها؛ ذلك الحادث العجيب المدهش حين يتدبره الإنسان ويحاول تخيله! وعشت معه وهو في رحلته العلوية الطليقة عند سدرة المنتهى وجنة المأوى.

عشت معه بقدر ما يسعفني خيالي، وتحلق بي رؤاي، وبقدر ما تطيق مشاعري وأحاسيسي، وتابعته في الإحساس بتهافت أساطير المشركين حول الملائكة وعبادتها وبنوتها وأنوثتها إلى آخر هذه الأوهام الخرفة المضحكة، التي تتهاوى عند اللمسة الأولى.

ووقفت أمام الكائن البشري ينشأ من الأرض، وأمام الأجنة في بطون الأمهات، وعلم الله يتابعها ويحيط بها، وارتجف كياني تحت وقع اللمسات المتتابعة في المقطع الأخير من السورة.. الغيب المحجوب لا يراه إلا الله، والعمل المكتوب لا يندُّ ولا يغيب عن الحساب والجزاء، والمنتهى إلى الله في نهاية كل طريق يسلكه العبيد، والحشود الضاحكة والحشود الباكية، وحشود الموتى، وحشود الأحياء، والنطفة تهتدي في الظلمات إلى طريقها، وتخطو خطواتها وتبرز أسرارها فإذا هي ذكر أو أنثى، والنشأة الأخرى، ومصارع الغابرين، والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشَّى!

واستمعت إلى صوت النذير الأخير قبل الكارثة الداهمة: ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۞ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ۞ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾[النجم:٥٦-٥٨].

ثم جاءت الصيحة الأخيرة، واهتز كياني كله أمام التبكيت الرعيب: ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۞ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۞ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۞ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴾ [النجم: ٥٩-٦٢].

فلما سمعت: ﴿ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴾.. كانت الرجفة قد سرت من قلبي حقًّا إلى أوصالي، واستحالت رجفة عضلية مادية ذات مظهر مادي لم أملك مقاومته؛ فظل جسمي كله يختلج، ولا أتمالك أن أثبته، ولا أن أكفكف دموعًا هاتنة، لا أملك احتباسها مع الجهد

والمحاولة! وأدركت في هذه اللحظة أن حادث السجود صحيح، وأن تعليله قريب؛ إنه كامن في ذلك السلطان العجيب لهذا القرآن، ولهذه الإيقاعات المزلزلة في سياق هذه السورة، لم تكن هذه أول مرة أقرأ فيها سورة النجم أو أسمعها، ولكنها في هذه المرة كان لها هذا الوقع، وكانت مني هذه الاستجابة، وذلك سر القرآن؛ فهناك لحظات خاصة موعودة غير مرقوبة تمس الآية أو السورة فيها موضع الاستجابة، وتقع اللمسة التي تصل القلب بمصدر القوة فيها والتأثير؛ فيكون منها ما يكون!»[1].

قلوب المستمعين ثلاثة

قال ابن القيِّم: «والناس ثلاثة: رجل قلبه ميت فذلك الذي لا قلب له فهذا ليست هذه الآية ذكرى في حقه.

الثاني: رجل له قلب حي مستعد لكنه غير مستمع للآيات المتلوة التي يخبر بها الله عن الآيات المشهودة: إما لعدم ورودها أو لوصولها إليه، ولكن قلبه مشغول عنها بغيرها، فهو غائب القلب ليس حاضرًا، فهذا أيضًا لا تحصل له الذكرى مع استعداده ووجود قلبه.

والثالث: رجل حي القلب مستعد تليت عليه الآيات فأصغى بسمعه وألقى السمع وأحضر قلبه ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه، فهو شاهد القلب مُلقِي السمع، فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات المتلوة والمشهودة.

فالأول: بمنزلة الأعمى الذي لا يُبصر.

والثاني: بمنزلة البصير الطامح ببصره إلى غير جهة المنظور إليه فكلاهما لا يراه، والثالث: بمنزلة البصير الذي قد حدق إلى جهة المنظور وأتبعه بصره وقابله على توسط من البعد والقرب، فهذا هو الذي يراه»[2].

ويكمل بنود هذا المشروع الإمام الآجري في كتابه «آداب حملة القرآن» ويستعرضها قائلاً:

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٢٠، ٣٤٢١.
(٢) مدارج السالكين ١/ ٤٤٢.

«فالمؤمن العاقل إذا تلا القرآن إستعرض القرآن، فكان كالمرآة يرى بها ما حَسُن من فعله وما قَبُح منه، فما حذَّره مولاه حذِره، وما خوَّفه به من عقابه خافه، وما رغَّب فيه مولاه رغِب فيه ورجاه، فمن كانت هذه صفته أو قارب هذه الصفة فقد تلاه حق تلاوته، ورعاه حق رعايته، وكان له القرآن شاهدًا وشفيعًا وأنيسًا وحِرْزًا، ومن كان هذا وصفه نَفَع نفسه ونَفَع أهله، وعاد على والديه وعلى ولده كلُّ خير في الدنيا والآخرة».

لذا لابد لك أخي المريض أن تُعطي لهذا الكتاب قدره، وتنظر إليه من اليوم نظرة مختلفة، وتعامله بغير ما اعتدت عليه من قبل، وحين ينير الله بصيرتك ويرفع الغشاوة عن قلبك.

عندها فحسب ترى ما رأى محمد إقبال من أن القرآن مفتاح تغيير العالم بأسره، واسمعه حين يقول:

«إنه ليس بكتاب فحسب، إنه أكثر من ذلك، إذا دخل في القلب تغيَّر الإنسان، وإذا تغيَّر الإنسان تغيَّر العالم»[1].

وحين تُحرَم هذه البصيرة تفقد مصدر قوتك وبوصلة هدايتك ويصبح «لا اتصال لك به إلا إذا حضرتك الوفاة، فتُقرأ عليك سورة يس لتموت بسهولة، فواعجبًا! قد أصبح الكتاب الذي أُنزل ليمنحك الحياة والقوة يُتلى الآن لتموت براحة وسهولة»[2].

1 افهم ما تقرأ:

إن معرفة الهدف من قراءة كتاب الله -عز وجل- هو من أهم شروط العلاج، ونستطيع أن نوجز هذا الهدف في كلمة واحدة ألا وهي التدبر، والتدبر في اللغة هو تأمل دُبُر الأمر أي عاقبته، وتدبر القرآن هو تحديق القلب في معانيه، وجمع الفكر على معرفته وتفهمه، وذوبان معانيه في الروح فتسري في الدم إلى القلب فتشفيه، وهو الغرض من إنزاله. قال تعالى:

---

(١) روائع إقبال ص ١٧٢ - أبو الحسن الندوي - الطبعة الرابعة ١٩٨٣ م - نشر مجلس نشريات الإسلام - كراتشي باكستان.
(٢) روائع إقبال ص ٤٣.

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وتدبر القرآن يقف في مقدمة أدوية علاج القلب بلا منازع، كما ينص على ذلك صريح القرآن: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

فلو داواك كل طبيب داء ... بغير كلام ليلى ما شفاكا

والقرآن شفاء لما في الصدور، أي دواء للقلوب من أمراضها التي هي أشد من أمراض الأبدان كالشك والنفاق والحسد والحقد وأمثال ذلك، لكن.. كيف يكون القرآن شفاء ونحن لا نعرف معناه، وهل يحدث به علاج دون فهم فحواه، فمعرفة معاني القرآن إذن هي أول خطوة في الطريق بلا شك.

ولا يُجنى جناه دون معرفة معناه، فكم من الناس يقرأ ولا يزيد إيمانًا ولا يتغير سلوكًا ولا ينصلح بمقدار ذرة، مع أن الآية الواحدة كانت تخلق من الصحابي خلقًا آخر.

> إنك لتجد عشرات الملايين في رمضان بين أيديهم المصاحف يقرؤون القرآن ويسعون في ختمه مرة بعد مرة، لكن هل تجد عُشرهم أو نصف العشر منهم يفهمون ما يقرؤون أو يتدبرون في ما يؤمرون؟! ولو حدث وأن أعطيت رجلا جريدة يقرؤها ثم طلبت إليه بعد ساعة أن يُخبرك بأهم عناوين الأخبار. فقال: لا أدري، هل تراه قد قرأ أم تظنه كاذبًا في دعواه؟! وهل قراءة القرآن هي تحريك الألسنة بالأحرف والكلمات أم أنها فهم ما توصي به الأحرف والكلمات؟!

ولمزيد الفهم لما تقرأ تعلم مناسبة نزول الآيات، وفي ذلك يقول سيد قطب:

«ولا يفهم النصوص القرآنية حق الفهم إلا من يواجه مثل هذه الظروف التي واجهتها أول مرة؛ هنا تتفتح النصوص عن رصيدها المذخور، وتتفتح القلوب لإدراك مضامينها الكامنة. وهنا تتحول تلك النصوص من كلمات وسطور إلى قوى وطاقات، وتنتفض الأحداث والوقائع المصورة فيها؛ تنتفض خلائق حية موحية، دافعة، دافقة، تعمل في واقع الحياة. وتندفع بها حركة حقيقية في عالم الواقع وعالم الضمير»[1].

---

(١) في ظلال [illegible]

ومعرفة المعاني هي نصيب العقل في المهمة الثلاثية المشتركة بينه وبين اللسان والقلب، والتي تستهدف سبر أغوار كتاب الله والتداوي به، كما سبق ووصف ذلك **أبو حامد الغزالي** فقال:

«وتلاوة القرآن حق تلاوته هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب، فحظُّ اللسان: تصحيح الحروف بالترتيل، وحظُّ العقل: تفسير المعاني، وحظُّ القلب: الاتعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار، فاللسان يُرتِّل والعقل يترجم والقلب يتعظ»(١).

الحسن يشتكي أهل زمانه!!

قال الحسن: «إن هذا القرآن قد قرأه عبيدٌ وصبيان لا علم لهم بتأويله، لم يأتوا الأمر من قِبَلِ أوله. قال الله عز وجل: ﴿ **كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ** ﴾ [ص: ٢٩]، وما تدبر آياته إلا اتباعه، أما والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول:

قد قرأتُ القرآن كله فما أُسقِط منه حرفًا واحدًا، وقد والله أسقطه كله، ما يرى له القرآن في خلُق ولا عمل، حتى إن أحدهم ليقول:

والله إني لأقرأ السورة في نَفَس، لا والله ما هؤلاء بالقُرَّاءِ ولا بالعلماء ولا الحكماء ولا الورعة، ومتى كانت القراءة هكذا؟! لا أكثر الله في الناس مثل هؤلاء»(٢).

---

(١) إحياء علوم الدين ١/ ٢٨٧.

(٢) الزهد لابن المبارك ص ٢٧٤ - دار الكتب العلمية - تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي.

2 التكرار يورث الاعتبار:

عن إبراهيم بن الأشعث قال: «سمعتُ فضيلا يقول ذات ليلة وهو يقرأ سورة محمد وهو يبكي ويردد هذه الآية: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] وجعل يقول: ونبلو أخباركم، ويردد وتبلو أخبارنا، إن بلوت أخبارنا فضحتنا وهتكت أستارنا، إنك إن بلوت أخبارنا أهلكتنا وعذبتنا، ويبكي»(١).

وكانت هذه عادة السلف يُردِّد أحدهم الآية إلى الصبح، فيقرأ القرآن بتفكُّر حتى إذا مرَّ بآية وهو محتاج إليها في شفاء قلبه، كررها ولو مائة مرة، بل ولو استغرق الأمر معك الصلاة كلها، فقراءة آية بتفكُّر وتفهم خير من ختم القرآن كله بغير ذلك، وهذه القراءة أنفع للقلب وأرجى لزوال الداء وحدوث الشفاء، وبالتالي أدعى إلى بلوغ ذروة الإيمان وتذوق حلاوة القرآن.

وتسألني: لماذا التكرار؟!

وأقول: لأنك لا تدري متى يُفتح الباب، ومتى ينشرح الصدر والفؤاد، ولعل ساعة رضاه عنك في متناول يدك وأنت لا تشعر، ولعل دموع خشيتك محبوسة تنتظر آية منك تُتلى في خشوع لتنهمر، أو خلوة في وجل لتتفجر، وتسألني متى وأقول: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾، وتطلب مني الرد: في أي ليلة هذا فأقول: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ﴾، وتُلِحُّ في السؤال: من المُوَفَّق لذلك فأقول: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾

فهم هذا جيدًا أبو سليمان الداراني فأوصاني وأوصاك قائلاً: «فإذا وجدت قلبك في القيام فلا تركع، وإذا وجدته في الركوع فلا ترفع»(٢).

3 أنت المخاطب:

عن ثابت البناني أنه قرأ: ﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾، فقال: «تأكله إلى فؤاده وهو حي، لقد تبلّغ فيهم العذاب»، ثم بكى وأبكى من حوله، لكن ألم تسأل نفسك: لم خَصَّ الأفئدة بالذكر؟!

---

(١) التوابين ص ٢٠٨.

(٢) مختصر منهاج القاصدين ص ٦٥.

والجواب: لأن الألم إذا وصل إلى الفؤاد مات صاحبه، أي أنه في حال من يموت من شدة الألم لكن حيل بينه وبين الموت، وهذا هو الذي أبكى ثابتًا، وحريٌّ به أن يبكيك.

قال ابن أبي ذئب: «حدَّثني من شهد عمر بن عبد العزيز وهو أمير المدينة وقرأ عنده رجل: ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا﴾ [الفرقان: ١٣]، فبكى عمر حتى غلبه البكاء وعلاه نشيجه، فقام من مجلسه ودخل بيته وتفرَّق الناس»[(١)].

واسأل نفسك ثانية: لماذا بكى عمر حتى علا نشيجه؟! والجواب: لأنه استشعر أن المخاطب هو عمر، والمُلقى في النار عمر، والداعي في ثبور عمر، والباكي في جهنم عمر، وهذا المكان الضيِّق المذكور في الآية محجوزٌ باسم عمر، بكيتَ يا خامس الخلفاء ودرة الأتقياء من آية ما أبكت أكثرنا، ولو تدبرها المرء منا لتحول الضحك فيه إلى بكاء، وامتلأت عينه دمعًا من دماء، ألا ما أعظم العقوبة التي ضُرب بها القلب القاسي، ألا ما أشد مصيبة غير المتدبِّرين، يحسبون الله يخاطب غيرهم ولعل الله لا يعني بهذه الآية غيرهم.

عن مُزاحِم بن زُفَر قال: «صلى بنا سفيان الثوري المغرب فقرأ حتى بلغ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾[(٢)]، بكى حتى انقطعت قراءته، ثم عاد فقرأ الحمد لله»[(٣)].

واسأل نفسك ثالثة: لماذا بكى سفيان؟! ولعلك تعرف ما أبكاه حين تفهم بحق معنى هذه الآية، وتتدبر فيها كما سبق وتدبَّرها ابن القيِّم فقال:

«فأسعد الخلق أهل العبادة والاستعانة والهداية إلى المطلوب، وأشقاهم من عدم الأمور الثلاثة، ومنهم من يكون له نصيب من ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ ونصيبه من ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾

---

(١) التخويف من النار - ابن رجب الحنبلي - ط دار ابن خلدون.

(٢) قال ابن القيِّم: «ثم إن القلب يعرض له مرضان عظيمان إن لم يتداركهما العبد تراميا به إلى التلف ولابد: وهما الرياء والكبر. فدواء الرياء: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، ودواء الكبر: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، وكثيرًا ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ تدفع الرياء، ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ تدفع الكبرياء». بدائع الفوائد ١/ ٥٤.

(٣) حلية الأولياء ٧/ ١٧.

معدوم أو ضعيف، فهذا مخذول مهين حزين، ومنهم من يكون نصيبه من ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قويا ونصيبه من ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ضعيفًا أو مفقودًا، فهذا له نفوذ وتسلط وقوة، ولكن لا عاقبة له، بل عاقبته أسوء عاقبة، ومنهم من يكون له نصيب من ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ولكن نصيبه من الهداية إلى المقصود ضعيف جدًّا، كحال كثير من العُبَّاد والزُّهاد، الذين قلَّ علمهم بحقائق ما بعث الله به رسوله ﷺ من الهدى ودين الحق»[١].

يا ليتنا عقلنا عن الله ولو حرفًا.. ليتنا نقترب من الله ولو شعرة.. ليتنا نعيش في أنواره ولو لحظة.

4 تذوق حلاوة المناجاة

وهي وصية النبي ﷺ: «إن أحدكم إذا قام يصلي إنما يناجي ربه، فلينظر كيف يناجيه؟»[٢].

وهذه الوصية هي العلامة الفارقة بين أبناء الدنيا وأبناء الآخرة كما في توصيف يحيى بن معاذ: «أبناء الدنيا يجدون لذة الكلام، وأبناء الآخرة يجدون لذة المعاني»[٣].

وسُمِّيت: مناجاة من جهة قيام العبد بالذكر وتلاوة القرآن من جهة، ومن جهة الدعاء وسؤال الله من جهة أخرى، فيُسرُّ العبد إلى ربه بحاجته ويبوح إليه بما أهمه وأحزنه، وقد يأتي الرد من الرب على العبد كلامًا كما في حديث الفاتحة[٤]، وقد يأتي أفعالاً: حبًّا ولطفًا، أو هداية وبرًّا، أو فتحًا ويسرًا، أو رزقًا وبركة، أو فرحًا وسعادة لا توصفان، ولهذا سماها يحيى بن معاذ بالوليمة حين قال: «كم بين من يريد الوليمة للوليمة وبين من يريد حضور الوليمة ليلتقي الحبيب في الوليمة»[٥].

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٢/ ١٧٩.

(٢) صحيح : انظر حديث رقم : ١٥٣٨ في صحيح الجامع.

(٣) حلية الأولياء ١٠/ ٦٣، ٦٤.

(٤) إذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين يقول الله: حمدني عبدي .. الحديث.

(٥) شعب الإيمان ١/ ٣٧٣.

وقوله «كيف يناجيه» تُلقي في القلب وجوب التعظيم والتبجيل، وموافقة القلب اللسان، والإقبال على الله بالكلية، وتفريغ القلب له ولذكره، وإجلال كلامه عند تلاوته، وضرورة تدبره، فلا يليق لعاقل أن يتلقى شكر هذه النعمة الجليلة التي هي مناجاة ملك الملوك بشغل قلبه بشيء من متاع الدنيا الفاني، فاطلب قلبك قبل الصلاة؛ فإن وجدته فكبِّر وإلا فسلِّم!! وكأن القرآن يصيح فيك ويقول: فرِّغ قلبك من غيري أسكنه.

قال **الطيبي**: «شبَّه العبد وتوجهه إلى الله تعالى في الصلاة وما فيها من القراءة والأذكار وكشف الأسرار واستنزال الرحمة مع الخشوع والخضوع بمن يناجي مولاه ومالكه، فمن شرائط حسن الأدب أن يقف محاذيه، ويُطرق رأسه، ولا يمُدُّ بصره إليه، لأن الآداب الظاهرة والباطنة مرتبط بعضها ببعض»[(١)].

ويلزم لهذه المناجاة الهدوء والسكون وعدم التشويش؛ لذا أخرج **الإمام أحمد** في مسنده أن رسول الله ﷺ خرج على الناس وهم يصلون وقد علت أصواتهم بالقراءة فقال: «**إن المصلي يُناجي ربه فلينظر بما يُناجيه، ولا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن**»[(٢)].

ويلزم لهذه المناجاة لزوم الأدب واستحضار عظمة الموقف. قال ﷺ: «**إن أحدكم إذا كان في صلاته فإنه يناجي ربه، فلا يبزقن بين يديه ولا عن يمينه، ولكن عن يساره وتحت قدمه**»[(٣)].

ومن معاني المناجاة كذلك الحب والوداد والقرب والوصال، ومن أنس بمولاه استوحش ممن سواه، لذا قال **عبد الله بن مسعود** ﷺ:

«لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن، فإن كان يُحب القرآن ويعجبه فهو يحب الله سبحانه ورسوله ﷺ، وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله سبحانه ورسوله ﷺ»[(٤)].

ولذا «كان السلف يستشعرون هذا المعنى وهم يقرأون القرآن، حتى أنهم كانوا يتلقونه تلقي الغائب الغريب لرسالة جاءت على شوق من الحبيب»[(٥)]؛ ولذا كانت الليالي الطوال تمر

---

(١) فيض القدير ٢/ ٤١٦.
(٢) صحيح: انظر حديث رقم: ١٦٠٣ في السلسلة الصحيحة.
(٣) صحيح: انظر حديث رقم: ١٥٤١ في صحيح الجامع.
(٤) الإحياء ١/ ٢٧٣.
(٥) مدارج السالكين ٣/ ١٧.

عليهم دون أن يشعروا، بل كان أكثر ما يزعجهم طلوع الفجر، وما أقصر ليلة مملوءة بالسرور!!.

إن الليــالي للأنــام مناهــل   تُطـوى وتُنشَـر دونهـا الأعمـار
فقصـارهن مـع الهمـوم طويلـة   وطـوالهن مـع السـرور قصـار

ولمثل هذا التعظيم كان عكرمة بن أبي جهل ﷺ إذا نُشِر المصحف غُشِي عليه ويقول: «هو كلام ربي.. هو كلام ربي»(١).

قُبلة الملك

ويلزم لهذه المناجاة تعطير الفم لملاقاة الحبيب ومناجاة الملِك ومقابلة الملَك، وهذا سِرٌّ من أسرار الأمر بالسواك، فعن علي بن أبي طالب ﷺ أنه أمر يومًا بالسواك قائلاً: قال النبي ﷺ: «إن العبد إذا تسوَّك ثم قام يصلي قام الملك خلفه، فسمع لقراءته، فيدنو منه أو كلمة نحوها حتى يضع فاه على فيه، وما يخرج من فيه شيء من القرآن إلا صار في جوف الملك، فطَهِّروا أفواهكم للقرآن»(٢).

وامتثل قتادة الأمر على نحو عجيب فقال: «ما أكلتُ الكرّاث منذ قرأت القرآن»(٣).

رِقّة قلب

قال الأصمعي: «أقبلتُ ذات مرة من مسجد بالبصرة إذ طلع أعرابي جِلف جاف على قعود له متقلِّدًا سيفه وبيده قوسه، فدنا وسلَّم وقال: ممن الرجل؟ قلت: من بني أصمع. قال: أنت الأصمعي؟ قلت: نعم. قال: ومن أين أقبلت؟ قلت: من موضع يُتلى فيه كلام الرحمن. قال: وللرحمن كلام يتلوه الآدميون؟! قلت: نعم. قال: فاتلُ عليَّ منه شيئًا، فقرأت: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾ إلى قوله: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ فقال: يا أصمعي حسبك، ثم قام إلى

---

(١) الإحياء ١/ ٢٨١.
(٢) صحيح: انظر حديث رقم: ١٢١٣ في السلسلة الصحيحة.
(٣) شعب الإيمان ٢/ ٣٨٢.

ناقته فنحرها وقطَّعها بجلدها، وقال: أعنِّي على توزيعها، ففرَّقناها على من أقبل وأدبر، ثم عمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما ووضعهما تحت الرَّحل وولَّى إلى البادية وهو يقول: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾، فمقَتُّ نفسي ولُمتها، ثم حججت مع الرَّشيد، فبينما أنا أطوف إذا أنا بصوتٍ رقيق، فالتفَتُّ فإذا أنا بالأعرابي وهو ناحل مُصفرٌّ، فسلَّم عليَّ وأخذ بيدي فقال: اتلُ عليَّ كلام الرحمن، وأجلسني من وراء المقام فقرأت: ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴾ حتى وصلتُ إلى قوله تعالى ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾، فقال الأعرابي: لقد وجدنا ما وعدنا ربُّنا حقًّا، وقال: وهل غير هذا؟ قلت: نعم.. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ فصاح الأعرابي وقال: يا سبحان الله.. من الذي أغضب الجليل حتى حلف!! ألم يصدِّقوه في قوله حتى ألجأوه إلى اليمين؟ فقالها ثلاثًا وخرجت بها نفسه»[1].

5 الليل أحلى:

قال عمر بن الخطاب ﷺ: قال رسول الله ﷺ: **«من نام عن حزبه أو عن شيء منه؛ فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كُتِب له كأنما قرأه من الليل»**[2].

> **وفي هذا دلالة على أن الأفضل في قراءة وِرد القرآن قراءته بالليل، وكأن القرآن تعهد أن لا يبوح لأحد بما بين دفتيه من أسرار إلا على ضوء النجوم حين تتفتح الحقائق في غيبة الأهواء الدنيوية والأشغال المعيشية والسموم الشيطانية في أحضان سجدة أو سحابة عَبرة أو سريان رجفة من خشية الله تعالى!!**

قال النووي: «وإنما رجحت صلاة الليل وقراءته لكونها أجمع للقلب وأبعد عن الشاغلات والملهيات والتصرف في الحاجات وأصون عن الرياء وغيره من المحبطات مع ما جاء الشرع به من إيجاد الخيرات في الليل، فإن الإسراء برسول الله ﷺ كان ليلاً»[3].

---

(١) تفسير القرطبي ص ٦٢١٢ – ط دار الشعب.
(٢) صحيح: انظر حديث رقم: ١٣٤٣ في صحيح ابن ماجة وأخرجه مسلم.
(٣) شرح النووي لمسلم ١/ ٢٨.

ويزيدك ابن الجوزي وهو يدبّج عبارة من عبارات المحبين فيقول: «ظلمة الليل للتواصل أهنئ من ضياء النهار عند المحب، وصلهم سِرُّهم، وما أحوج السِرَّ إلى سِتره بسحُب الحُجُب»[١].

6 الصوت الحسن:

وعن أبي هريرة ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يجهر بالقرآن»[٢]، وقال ﷺ: «ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن يجهر به»[٣].

والمراد التلذذ به كما يستلذ أهل الطرب بالغناء، ولا شك أن النفوس تميل إلى سماع القراءة بالترنم أكثر من ميلها لمن لا يترنم، لأن للتطريب تأثيرًا في رقة القلب وإجراء الدمع، وكان بين السلف خلاف في جواز قراءة القرآن بالألحان، أما تحسين الصوت وتقديم حَسَن الصوت على غيره فلا نزاع بينهم على جوازه.

ولذا أحب النبي ﷺ أن يسمع صاحب الصوت الحسن، وليس صوت أحسن من صوت عبد الله بن مسعود ﷺ يتلو عليه صدر سورة النساء، فسمع منه ﷺ وبكى لتلاوته حتى اخضلت لحيته، وورث ابن مسعود هذه الطريقة وسار على نفس النهج وأحب ما أحب حبيبه، فكان يحب أن يسمع القرآن من غيره، فعن علقمة بن قيس قال: كنت رجلاً قد أعطاني الله حسن الصوت بالقرآن، فكان عبد الله بن مسعود يُرسل إلي فأقرأ عليه، قال: فكنتُ إذا فرغت من قراءتي قال: زدنا من هذا؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «حسن الصوت زينة القرآن»[٤].

7 التلذذ بالثواب:

إن معرفة ثواب الأعمال يهيج القلب لاستقبالها باطمئنان وحب وشوق، واسمع لتشتاق:

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أيحب أحدكم إذا رجع إلى أهله أن يجد فيه ثلاث خلفات عظام سمان؟!» قلنا: نعم. قال: «فثلاث آيات يقرؤهن أحدكم في صلاته خير

---

(١) التذكرة في الوعظ ص ١٩٠.

(٢) صحيح: انظر حديث رقم: ١٣٠٧ في صحيح أبي داود وهو في البخاري ومسلم بلفظ مشابه كما في اللؤلؤ والمرجان رقم: ٤٥٥.

(٣) صحيح: انظر حديث رقم: ١٣٠٤ في صحيح أبي داود.

(٤) حسن: انظر حديث رقم ١٨١٥ في السلسلة الصحيحة.

له من ثلاث خلفات سمان عظام»(١).

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«يُقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة: اقرأ واصعد، فيقرأ ويصعد بكل آية درجة حتى يقرأ آخر شيء معه»**(٢).

وعن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«القرآن شافع مُشفَّع، وماحل مُصَدَّق، من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه قاده إلى النار»**(٣).

وماحِل مُصَدَّق أي خصم مجادل مُصدَّق، من قولهم: محل بفلان إذا سعى به إلى السلطان، فمن اتبع القرآن وعمل بما فيه كان شافعًا له مقبول الشفاعة، لكنه كذلك مصدق فيما يرفع من مساوئ العبد إذا ترك العمل به.

الدموع: كنز المرأة الثمين

ولأن النساء شقائق الرجال فإليكن أيتها المريضات هذا المثال لتنسجن على المنوال وتدركن المنال بإذن الله. قال القاسم: «كنتُ إذا غدوتُ أبدأ ببيت عائشة أُسلِّم عليها، فغدوتُ يومًا فإذا هي قائمة تسبِّح وتقرأ: ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الطور: ٢٧]، وتدعو وتبكي وتُرَدِّدُها، فقمت حتى مللت القيام، فذهبت إلى السوق لحاجتي، ثم رجعت فإذا هي قائمة كما هي تصلي وتبكي»(٤).

يا أختاه.. الدواء منك قريب وفي متناول يدك، فقد خلقك الله أعذب مشاعرًا وأرق عواطف، فدمعتك أقرب من دمعة الرجل بكثير، وهذا هو كنزك الثمين وأغلى حليك: **«عينان لا تمسهما النار أبدا: عين بكت من خشية الله،...»**(٥).

---

(١) صحيح: انظر حديث رقم ٣٠٤٩ في صحيح ابن ماجة وهو في صحيح مسلم، والخلفات جمع خلفة وهي الحامل من النوق. وهي من أعز أموال العرب.

(٢) صحيح: انظر حديث رقم: ١٣١٧ في صحيح أبي داود.

(٣) صحيح: انظر حديث رقم: ٢٠١٩ في السلسلة الصحيحة.

(٤) صفة الصفوة ٢/ ١٥، ١٦ - ط دار الفكر.

(٥) صحيح: انظر حديث رقم: ٤١١٣ في صحيح الجامع.

8 ما المطلوب مني:

وصف أبو بكر الآجري [ت: ٣٦٠] صفات حامل القرآن في كتابه أخلاق أهل القرآن:

«ليس همته متى أختم السورة، همته متى أستغني بالله.. متى أكون من المتقين.. متى أكون من المحسنين.. متى أكون من المتوكلين.. متى أكون من الخاشعين.. متى أكون من الصابرين.. متى أكون من الصادقين.. متى أكون من الخائفين.. متى أكون من الراجين.. متى أزهد في الدنيا.. متى أرغب في الآخرة.. متى أتوب من الذنوب.. متى أعرف النعم المتواترة.. متى أشكره عليها.. متى أعقل عن الله الخطاب.. متى أفقه ما أتلو.. متى أغلب نفسي على ما تهوى.. متى أجاهد في الله حق الجهاد.. متى أحفظ لساني.. متى أغض طرفي.. متى أحفظ فرجي.. متى أحاسب نفسي.. متى أتزود ليوم معادي.. متى أكون عن الله راضيًا.. متى أكون بالله واثقًا.. متى أكون بزجر القرآن متعظًا.. متى أكون بذكره عن ذكر غيره مشتغلا.. متى أحب ما أحب.. ومتى أبغض ما أبغض.. متى أنصح لله.. متى أخلص له عملي.. متى أُقصِّر أملي.. متى أتأهب ليوم موتي وقد غُيِّب عني أجلي.. متى أعمر قبري.. متى أفكر في الموت وشدته.. متى أفكر في خلوتي مع ربي.. متى أفكر في المنقلب.. متى أحذر مما حذرني منه ربي»(١).

فإذا لم تأخذ بنصيحة الآجُري وعمي قلبك عن أوامر الله في كتابه كنت «مثل العاصي إذا قرأ القرآن وكرره، كمثل من كرر كتاب الملك وأعرض عن عمارة مملكته وما أُمر به في الكتاب، فهو مقتصر على دراسته، مخالف أوامره، فلو ترك الدراسة مع المخالفة كان أبعد من الاستهزاء واستحقاق المقت»(٢).

هذا وإلا كنت من المغرورين الذين سرد حكايتهم ابن قدامة، ولم يحمله اختصاره وإيجازه في كتابه مختصر منهاج القاصدين أن يغفل ذكرهم فانبرى يفضحهم:

«وفرقة أخرى اغتروا بقراءة القرآن، فهم يهذُّونه هذًّا، وربما ختموا في اليوم مرتين،

(١) أخلاق حملة القرآن ص ١٤٤ – تحقيق محمود النقراشي – مكتبة النهضة بالقصيم – ط الأولى ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧م.
(٢) مختصر منهاج القاصدين ص ٥٤.

فلسان أحدهم يجرى به وقلبه يتردد فى أودية الأماني، ولا يتفكر فى معاني القرآن ولا يتعظ بمواعظه، ولا يقف عند أوامره ونواهيه، فهذا مغرور يظن أن المقصود من القرآن التلاوة فقط، ومثال ذلك مثال عبد كتب إليه مولاه كتابًا يأمره فيه وينهاه، فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به، بل اقتصر على حفظه وتكراره، ظانًّا أن ذلك هو المراد منه، مع مخالفته أمر مولاه ونهيه»(١).

وهؤلاء مع إتقانهم للتلاوة ضيَّعوا على القلب الحلاوة، وبرعوا في نقل الرسالة وما برعوا في العمل بما جاء في الرسالة، أهل تجويد القراءة لا تجويد العمل، ولما قرأ رجل سورة من القرآن عند عمر بن عبد العزيز وعنده رهط من هؤلاء قال أحدهم: لحَنَ، فقال له عمر: «أما كان فيما سمعت ما يشغلك عن اللحن»(٢).

9 فيم الاستعجال:

قال ابن القيم:

«كان له حزب يقرؤه ولا يُخِل به، وكانت قراءته ترتيلاً لا هذًّا ولا عجلة، بل قراءة مفسرة حرفًا حرفًا، وكان يقطع قراءته آية آية، وكان يمد عند حروف المد فيمد الرحمن ويمد الرحيم،»(٣).

الوقوف عند الآيات: عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: كان الرسول ﷺ (يقطع قراءته آية آية) ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ثم يقف ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ثم يقف»(٤).

وما كان رسول الله يفعل إلا أنه ينفذ الأمر الرباني الذي صدر عليه ونُشِر على الناس أجمعين: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء:١٠٦] أي مهل وتؤدة وتأنٍّ، فإنه أيسر للحفظ، وأعون على الفهم.

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص ٢٤٤.
(٢) الحلية ٥/ ٣٤٣.
(٣) زاد المعاد ١/ ٤٨٢ - ط مؤسسة الرسالة.
(٤) صحيح: رواه الترمذي والحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم: ٥٠٠٠.

واقتفى عبد الله بن عباس ﷺ الأثر شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، فعن ابن أبي مليكة قال: «سمعت ابن عباس من مكة إلى المدينة ومن المدينة إلى مكة، وكان يصلي ركعتين، فإذا نزل قام شطر الليل، ويرتل القرآن يقرأ حرفًا حرفًا، ويُكثِر في ذلك من النشيج والنحيب»(١).

حرفًا حرفًا دون عجلة حتى يتدبر، ومتى تدبر فهم، ومتى فهم نقل إلينا ما فهم، فكان كمن يترجم لنا ما غمض علينا من معاني القرآن حتى لُقِّب بترجمان القرآن، فهل علمت الآن كيف بلغ ابن عباس ما بلغ؟

الشيطان يسرق!!

وهذا الداء هو ما سبق وحذّرك منه النبي ﷺ فقال: «هذا أوان يُختلس العلم من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء»، فقال زياد بن لبيد الأنصاري: يا رسول الله.. وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونُقرِئه أبناءنا ويُقرِئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة، فقال: «ثكلتك أمك يا زياد!! إن كنتُ لأعُدُّك من أفقه أهل المدينة!! هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى، فماذا يُغني عنهم؟!»(٢).

> إنها قراءة المتعجّلين منكم، يريد الشيطان منك أن تمر على الآية بسرعة فيفوتك خيرها، وتُحرِم بركتها، ولا تقطف ثمرتها، فلا تزيد بها إيمانًا، أو تبكي وجلًا، أو تُمضي عملًا، أو تقدِّم جهادًا،، فهل ستتركه يفعل ذلك بك وأنت المريض السقيم وأحوج ما تكون اليوم إلى الدواء؟!

---

(١) الحلية ٢/ ٣٦٥.

(٢) صحيح: انظر حديث رقم: ٦٩٩٠ في صحيح الجامع.

10 خوف الطرد يطاردك:

قال رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه عنه أبو مالك الأشعري ﷺ: «والقرآن حُجَّة لك أو عليك»(١).

قال النووي: «فمعناه ظاهر، أي: تنتفع به إن تلوته وعملت به، وإلا فهو حجة عليك»(٢).

في غيبة تدبرك: تكون قراءتك دليل إدانتك، فما أشبه قراءة القرآن بصحيفة تعليمات تنتظر التنفيذ، أو قائمة تكليفات تُحاسب عليها فور قراءتها دون تأخير، ثم يكون العقاب إن أهمل الإنسان أو تعمَّد النسيان.

ولذلك كان أهل المعاصي معاقبين بعدم الانتفاع بالقرآن بسبب هجرانهم له، وإيثارهم شهواتهم عليه. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٥، ٤٦].

ومما يجب أن تخاف منه أيضًا أن تدخل في من عناهم الله بقوله: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة: ٥].

قال ابن القيِّم: «فقاس من حمَّله سبحانه كتابه ليؤمن به ويتدبره ويعمل به ويدعو إليه، ثم خالف ذلك ولم يحمله إلا على ظهر قلب، فقراءته بغير تدبر ولا تفهم ولا اتِّباع له ولا تحكيم له وعمل بموجبه كحمار على ظهره زاملة أسفار؛ لا يدري ما فيها، وحظه منها حمله على ظهره ليس إلا، فحظه من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره، فهذا المثل وإن كان قد ضُرِب لليهود، فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن فترك العمل به، ولم يؤدِّ حقه، ولم يرعه حق رعايته»(٣).

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم والنسائي والترمذي والدارمي وأحمد عن أبي مالك الأشعري كما في مشكلة الفقر رقم: ٥٩.
(٢) صحيح: صحيح مسلم بشرح النووي ٣/ ١٠٢.
(٣) إعلام الموقعين ١/ ١٦٥.

ثانيا: الجوع الشافي

فوائد الصوم العلاجية:

ومن أعظم آثار الصوم شأنًا وأنصعها برهانًا وأعلاها خطرًا:

1 الحرية:

أفضل ما في الصوم أنه يحرِّر الإنسان من سلطان غرائزه وقيود شهواته، ويتيح له أن ينطلق من سجن جسده، ويتحكم في مظاهر حيوانيته، ويلتحق بالملائكة في السمو إلى المستوى الإيماني الرفيع، وصون حواسه عن الشرور والآثام، إنه كسر القيد الثقيل وتنسم نسائم الحرية، وهل الحرية إلا حرية القلب؟!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«فإنَّ أسْرَ القلب أعظم من أسر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن؛ فإن من استُعْبِد بدنُه واستُرِقَّ وأُسِر لا يبالي إذا كان قلبُه مستريحًا من ذلك مطمئنًّا، بل يمكنه الاحتيال في الخلاص؛ وأما إذا كان القلب - الذي هو مَلِك الجسم - رقيقًا مستعبدًا متيَّمًا لغير الله؛ فهذا هو الذلُّ، والأسرُ المَحْض، والعبودية الذليلة لما استعْبد القلب، ولو كان في الظاهر ملكَ الناس؛ فالحريةُ حرية القلب، والعبودية عبودية القلب»(١).

فلينزل هذا الدواء على قلبك نزول الماء من الظمآن كما أوصاك بذلك رسول الله ﷺ:

«ألا أُخبِركم بما يذهب وَحَر الصدر؟ صوم ثلاثة أيام من كل شهر»(٢).

---

(١) الفتاوى الكبرى ٥/ ١٨٢ بتصرف.

(٢) صحيح: رواه النسائي عن رجل كما في ص ج ص رقم: ٢٦٠٨ في صحيح الجامع، ومن جميل ما اطَّلعت عليه من أبحاث أحد علماء الإعجاز العلمي أنَّه ذكر في سبب ترغيب رسول الله ﷺ للمسلمين أن يصوموا الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر هجري، أنَّ البحر يمد في هذه الأيام بسبب ضوء القمر، ويصيب البحر الجزر في الليالي الظلماء، وكذلك الدم فإنَّه يزيد ضخه في هذه الأيام، فأمر عليه الصلاة والسلام بصيامها؛ لأنَّ الشيطان يزيد عتوُّه فيها.

ووَحر الصدر: غِشُّه ووساوِسُه، وقيل: الحِقْد والغَيْظ والعَداوَة، وقيل: أشدُّ الغَضَب، وهي كلها أمراض قلوب يقضي عليها الصوم كما أخبر بذلك الحبيب ﷺ.

ويُقال إن أَصل هذه الكلمة من الدُّوَيْبَّة التي يقال لها الوَحَرَة، فشبَّه النبي ﷺ العداوة والغلَّ ولصوقها بالصدر بالتصاق الوَحَرَةِ بالأرض، ومع هذا يقضي الصوم على كل هذا، وذلك في ثلاثة أيام فقط إذا حافظت عليها.

وأشار إلى فاعلية هذا الدواء مقارنة بغيره من الأدوية في قوله لأبي أمامة: «**عليك بالصوم، فإنه لا مِثْل له**» وفي رواية: «**لا عدل له**». إنه قطع الطريق على الشيطان ومباغتته وإتيانه من حيث لا يحتسب.

أما عن سِرِّ فاعلية الدواء وسبب قوته فقد أوجزها أبو قدامة في سطرين اثنين فحسب حين قال: «أنه قهر لعدو الله، لأن وسيلة العدو الشهوات، وإنما تقوى الشهوات بالأكل والشرب، وما دامت أرض الشهوات مخصبة، فالشياطين يترددون إلى ذلك المرعى، وبترك الشهوات تضيق عليهم المسالك»[١].

وهذا ما شاهده أحمد بن أبي الحوارى أمام عينيه حين قال: خرجت مع أبي سليمان الداراني، فمررنا على زرع، وإذا طائران يلقطان الحب، فلما شبعا أراد الذكر الأنثى، فقال: «يا أحمد.. انظر فيما كان؛ لما شبعا دعته بطنه إلى ما ترى»[٢].

ولأن الروح سماوية علوية، والجسد أرضي سفلي، وكانت منافذ الروح تُغلق بالشبع وملء البطون، وتُفتح بالصوم ومكابدة الجوع، ذلك أن الصوم يُضعف سيطرة البدن على الروح، فتتحرر تلك النفحة العلوية في الإنسان من براثن الجسد والشهوات المقيِّدة، وتنتصر على ما كان يغلبها في الماضي، ولسان حال القلب:

وانكسر القيد يا روحي وحانت ساعة النصر

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص ٤٣ – ابن قدامة المقدسي - ط دار التراث.
(٢) حلية الأولياء ٩/ ٢٦٨.

2 التدريب التربوي:

ومن آثار الصوم كذلك التغلب على نزعات الشهوة، واتخاذ الكف عن الطعام والشراب وسيلة تدريبية إلى كفِّ اللسان عن السب والشتم والصخب، وإلى كفِّ اليد عن الأذى والبطش، وإلى كفِّ البصر عن النظرة الخائنة، وإلى كفِّ السمع عن الإصغاء للغيبة والنميمة وأي قول يُرضي الشيطان ويغضب الرحمن، ولهذا قيل: إذا جاعت النفس شبعت جميع الأعضاء، وإذا شبعت جاعت كلُّها.

إن من أهم فوائد الصوم كذلك تيقن المريض بإمكانية الشفاء وعدم استحالته، والاطمئنان إلى وجود القدرة النافذة والإرادة المُنجِزة طوال ساعات الصوم، مما يجعل الاستمرار على الاهتداء أسهل والمداومة ممكنة إذا وُجِدت النية.

يقول ابن القيِّم مبيِّنًا الحقيقة السابقة:

«وللصوم تأثير عجيب في حفظ الجوارح الظاهرة، والقوى الباطنة، وحميتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة التي إذا استولت عليها أفسدتها، واستفراغ المواد الرديئة المانعة لها من صحَّتها؛ فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها، ويعيد إليها ما استلبته منها أيدي الشهوات»(١).

ولهذا جاء رمضان جرعة إجبارية سنوية يتناولها كل مسلم، لينال الجميع من هذه الجرعة الحد الأدنى والفائدة الأساسية المرتجاة فضلاً من الله ونعمة.

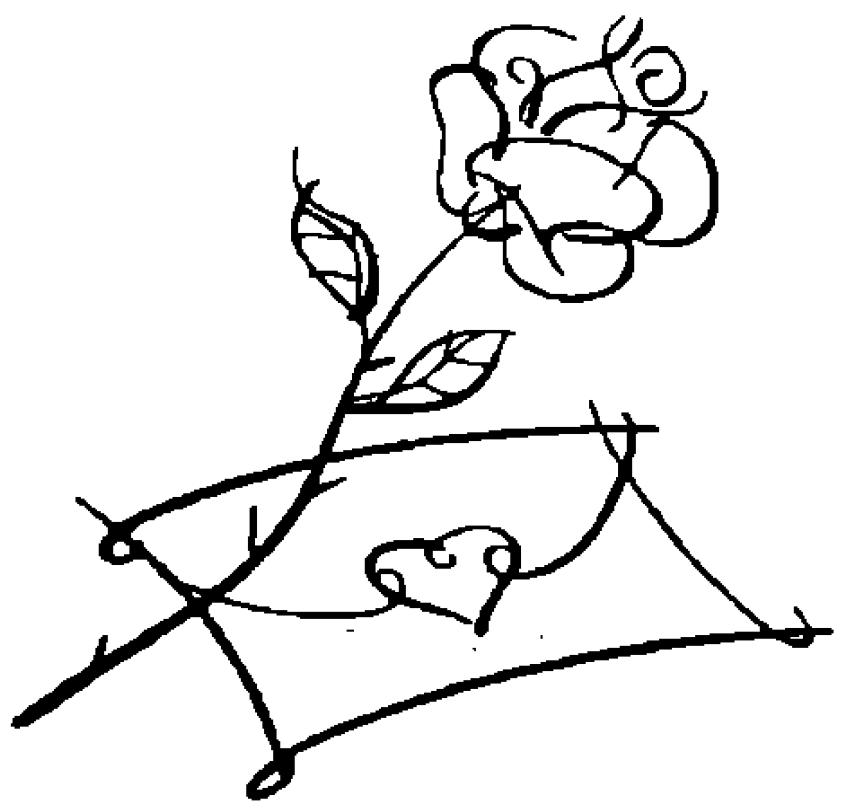

(١) زاد المعاد ٢/ ٢٩.

3 صناعة النفس الذلول:

كما تجمح الدابة أحيانًا فتهوي بصاحبها، كذا تجمح النفس أحيانًا كثيرة فتهوي بصاحبها إلى مهاوي سحيقة من غضب الله وسخطه، وتفور كما تفور القِدر إذا استجمعت غليانًا؛ لذا ألزمنا الله سبحانه بالصوم حتى إذا جاع العاتي منا وظمئ ذلَّت نفسه، وتصدَّع كبره وفخره، وأحس أنه - مهما أوتي - فهو مسكين تُقعده اللقمة إذا فُقدت، وتُضعفه جرعة الماء إذا مُنعت، وهنالك ينزل من عليائه ويخفِّف من غلوائه، ويعترف بفضل الله عليه حتى في كسرة الخبز ورشفة الماء، ومتى عرف فضل الله تواضع، ومتى تواضع استقام، ومتى استقام شُفي مما عاناه من بغي وعتو واستطالة وعلو.

إنها القوة المكتسبة من الصوم ولو كُنتَ في أدنى درجات القوة، وقهر الضعف ولو كنت غارقًا في لجة الضعف، واسمع خبر إبراهيم بن هانئ أبي إسحاق النيسابوري واستنشق عبيره واملأ به صدرك:

نقل عن إمامنا مسائل كثيرة وكان ورعًا صالحًا صبورًا على الفقر قال ابنه إسحاق: كان أحمد بن حنبل مختفيًا ها هنا عندنا في الدار فقال لي: ليس أطيق ما يطيق أبوك يعني من العبادة!!

وداوم على هذا الدواء حتى لانت له واستسلمت على الدوام حتى وهو في أضعف حالاته وهو يحتضر، فقد زاره ملك الموت وهو صائم، فدعا ابنه إسحاق حين حضرته الوفاة فقال: هل غربت الشمس؟! قال: لا، ثم قال: يا أبت! رُخِّص لك في الإفطار في الفرض وأنت متطوع. قال: أمهل، ثم قال: «لمثل هذا فيعمل العاملون»، ثم خرجت نفسه[١].

4 قتل بذور الشر:

قال ابن القيم:

«وأما فضول الطعام: فهو داعٍ إلى أنواع كثيرة من الشر؛ فإنه يحرك الجوارحَ إلى المعاصي، ويثقلُها عن الطاعات، وحسبك بهذين شرًّا، فكم من معصية جَلَبها الشبعُ، وفضول الطعام،

---

(١) صفة الصفوة ٢/ ٤٠١.

وكم من طاعة حال دونها؛ فمن وُقِي شرَّ بطنه؛ فقد وُقِي شرًّا عظيمًا، والشيطان أعظم ما يتحكَّم من الإنسان إذا ملأ بطنه من الطعام»(١).

إلى أن قال رحمه الله: «ولو لم يكن من الامتلاء من الطعام إلا أنه يدعو إلى الغفلة عن ذكر الله عز جل، وإذا غفل القلب عن الذكر ساعةً واحدةً جَثَم عليه الشيطانُ، ووعده، ومنَّاه، وشهَّاه وهام به في كل وادٍ؛ فإن النفس إذا شبعت تحرَّكت، وجالت وطافت على أبواب الشهوات، وإذا جاعت سكنت وخشعت وذلت»(٢).

لقد أثبت العلماء في أحدث أبحاثهم أن الصوم له دور فعال في كبح الرغبة الجنسية، وقد ثبت هبوط مستوى هرمون الذكورة هبوطًا كبيرًا أثناء الصوم الدائم، بل وبعد إعادة التغذية بثلاثة أيام، ثم ارتفع المعدل عاليًا بعد ذلك، مما يؤكِّد إعجاز السنة النبوية والتشريع الإلهي في عصر العلم.

إنها الحماية الأكيدة والدفاع المتين والوقاية من كيد الشيطان، والتي بدورها تؤدي إلى الوقاية من النيران.

قال ﷺ: «الصيام جُنَّة، وهو حصن من حصون المؤمن»(٣).

أخي.. كيف تجمع مع النوم الشبع؟! إن لم يكن قيام فصيام، في متناول يديك شفيعان؛ إن فاتك الأول فعليك بالثاني، وإلا لم تجد من يقف بجوارك يوم لا تنفع الشفاعة عنده إلا بإذنه.

5 دواء الدنيا والآخرة:

قال مالك بن دينار لحوشب: لا تبيتن وأنت شبعان، ودع الطعام وأنت تشتهيه، فقال حوشب: هذا وصف أطباء أهل الدنيا. قال: ومحمد بن واسع يستمع كلامهما، فقال محمد: نعم، ووصف أطباء طريق الآخرة، فقال مالك: «بخ بخ للدين والدنيا»(٤).

---

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٤٩٨.
(٢) السابق ٢/ ٤٩٨.
(٣) حسن: رواه الطبراني عن أبي أمامة كما في ص ج ص رقم: ٣٨٨١.
(٤) حلية الأولياء ٢/ ٣٥١.

وقد كان أسلافنا الكبار ينهون عن كثرة الأكل؛ ويقولون: المعدة بيت الداء، وقد قال لقمان لابنه: يا بني! إذا امتلأت المعدة، نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة، حتى حاتم الطائي قال وهو في الجاهلية:

فإنَّك إن أعطيتَ بطنك سؤله وفرجَك نالا منتهى الذمِّ أجمعا

وقد غدت السمنة داء العصر، وهي تنتج إما عن إسراف في تناول الطعام، أو الضغوط النفسية أو الاجتماعية مما يؤدي إلى الإصابة بالسمنة، والصوم يقضي على العاملين معًا ويولد الاستقرار البدني والنفسي؛ نتيجة الجو الإيماني المحيط بالصائم والذكر والعبادة، وتهذيب النوازع والرغبات، وتوجيه الطاقة النفسية توجيهًا إيجابيًا نافعًا.

مضاعفات القوة

من أراد أن ينال من هذا الدواء أعلى درجات الشفاء وأن يسبق من تناول منه نفس الجرعات معه فعليه بالآتي:

1 الصوم في الحر الشديد:

عن أبي الدرداء ﷺ قال: « خرجنا مع النبي ﷺ في بعض أسفاره في يوم حار حتى يضع الرجل يده على رأسه من شدة الحر، وما فينا صائم إلا ما كان من النبي ﷺ وابن رواحة»(١).

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ بعث أبا موسى على سرية في البحر، فبينما هم كذلك قد رفعوا الشراع في ليلة مظلمة إذا هاتف فوقهم يهتف: يا أهل السفينة!! قفوا أخبركم بقضاء قضاه الله على نفسه، فقال أبو موسى: أخبرنا إن كنت مخبرًا. قال: إن الله تبارك وتعالى قضى على نفسه أنه من أعطش نفسه له في يوم صائف سقاه الله يوم العطش. قال: فكان أبو موسى يتوخى اليوم الشديد الحر الذي يكاد الإنسان ينسلخ فيه حرًّا فيصومه(٢).

إن المتسابق الفذ والمريض الذي يريد تحصيل أعلى درجات الشفاء هو الذي يقتدي بأبي موسى، فيختار اليوم شديد الحر فيصومه، لكي يسبق غيره ويفوق سواه، ولهذا سمى الحسن البصري أهل الصيام في أيام الحر: الرعيل الأول لأنهم تقدَّموا صفوف الأتقياء وسبقوا صفوة الأنقياء، فعن الحسن أنه عُرِض عليه طعام فقال: إني صائم، فقيل له: في هذا الحر الشديد!! قال: «إني أحب أن أكون في الرعيل الأول»(٣).

بل كانوا يتمنون الحر الشديد ليحصدوا الثواب الجزيل المضاعف، ومن ذلك ما حدث مع عامر بن عبد قيس لما سار من البصرة إلى الشام كان معاوية ﷺ يسأله أن يرفع إليه حوائجه فيأبى، فلما أكثر عليه قال: حاجتي أن تَرُدَّ عليَّ من حَرِّ البصرة لعل الصوم أن يشتد عليَّ شيئًا،

---

(١) صحيح: رواه الشيخان عن أبي الدرداء كما في اللؤلؤ والمرجان رقم: ٦٨٥.
(٢) حسن: رواه ابن عباس كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٩٧٤.
(٣) الجوع ص ٣١٦ نقلاً عن كتاب من أخبار السلف – زكريا بن غلام قادر – مكتبة الرشد.

فإنه يخِفُّ عليَّ في بلادكم!!»[١].

ومما يعين على هذا الصوم أن يفهم أنه يصبر على العطش فيه ليوم عطش أكبر، ويتحمَّل مشقته ليوم تشيب فيه الولدان، وليتعلم من الأعراب الذين صاروا أساتذة الدنيا بحسن صلتهم بالله وشدة يقينهم بوعده الذي لا يُخلَف وكرمه الذي لا يوصف، واسمع تقتدِ:

خرج الحجاج ذات يوم فأصحر وحضر غداؤه فقال: اطلبوا من يتغدَّى معي، فطلبوا، فإذا أعرابي في شملة، فأُتي به، فقال: السلام عليكم. قال: هلُمَّ أيها الأعرابى.

قال: قد دعاني من هو أكرم منك فأجبته.

قال: ومن هو؟

قال: دعاني الله ربي إلى الصوم فأنا صائم.

قال: وصومٌ في مثل هذا اليوم الحار!!

قال: صمت ليوم هو أحرُّ منه.

قال: فأفطر اليوم وصُمْ غدًا.

قال: ويضمن لي الأمير أني أعيش إلى غد؟!

قال: ليس ذاك إليه.

قال: فكيف تسألني عاجلاً بآجل ليس إليه سبيل؟!

قال: إنه طعام طيب.

قال: والله ما طيَّبه خبَّازك ولا طبَّاخك.

قال: فمن طيَّبه؟!

قال: العافية.

قال الحجاج: تالله ما رأيت كاليوم.. أخرجوه عني[٢].

فإن كان قلبك قاسيًا ولم يرغِّبك ما سبق في تحمل حر هذه الأيام لم يبق في جعبتي إلا خبر مسروق الذي ذكَّرنا فيه بحر يوم القيامة، والطريق إلى تلطيف الجو فيه، فعن الشعبي قال: غُشي على مسروق في يوم صائف وهو صائم، فقالت له ابنته: أفطر. قال: ما أردت بي؟!

---

(١) لطائف المعارف ص ٣٤٧.

(٢) جمهرة العرب ٣/ ٢٥٤، ٢٥٥.

قالت: الرفق. قال: «يا بنية إنما أطلب الرفق لنفسي في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة»(١).

ومثل هذا الأعرابي في وفائه ومثل مسروق في صبره كان حسين بن رستم الأيلي في رجولته وقد دخل على قوم وهو صائم فقالوا له: أفطر، فقال: «إني وعدت الله وعدًا، وأنا أكره أن أُخلِف الله ما وعدته!!»(٢).

2 رفع عملك أثناء صومك:

إذا جمع المرء فضيلة الصوم في يوم شديد الحر مع فضيلة العمل الصالح، ولم تُقعِده شدة الحرارة ومكابدة العطش عن أعمال البر من ذكر ودعاء وسعي في حاجات الناس وصلة رحم، إذا حدث هذا رجحت كفة الصوم، وازداد صاحبه قربًا من الشفاء، وبعدًا عن الأسقام والوباء، وهذا هو سر صيام النبي ﷺ ليومي الاثنين والخميس. قال ﷺ: **«تُعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس، فأُحِبُّ أن يُعرض عملي وأنا صائم»**(٣).

وهو أيضًا سر صيام النبي ﷺ لشعبان حتى ورد عنه أنه **«كان يصوم شعبان كله»**(٤)، ولما سأله **أسامة بن زيد** -رضي الله عنهما- قال: قلت: يا رسول الله!! لم أرك تصوم من شهر من الشهور ما تصوم من شعبان. قال: **«ذاك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان، وهو شهر تُرفع فيه الأعمال إلى رب العالمين، وأحب أن يُرفع عملي وأنا صائم»**(٥).

3 صيام داود:

وإذا جمع العبد مع ما سبق صيام داود -عليه السلام- فقد نما أجره وفاض، فعن **عبد الله بن عمرو بن العاص** ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أفضل الصوم صوم أخي داود: كان يصوم يومًا ويُفطر يومًا، ولا يَفِرُّ إذا لاقى»**(٦).

---

(١) صفة الصفوة ٣/ ٦١٣.
(٢) شعب الإيمان ٣/ ٤١٨.
(٣) صحيح: رواه النسائي عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع حديث رقم: ٢٩٥٩.
(٤) صحيح: رواه الشيخان عن عائشة كما في صحيح الترغيب والترهيب ١/ ٢٤٧.
(٥) حسن: رواه النسائي عن أسامة بن زيد كما في صحيح صحيح الترغيب والترهيب ١/ ٢٤٧.
(٦) صحيح: رواه الترمذي والنسائي عن ابن عمرو كما في ص ج ص حديث رقم: ١١٢٠.

فهو أفضل من صوم الدهر لأنه أشق على النفس بمصادفة مألوفها يومًا ومفارقته يومًا، فتتربى النفس على مخالفة النفس، وتشب على المجاهدة، وتصبح طوع أمر صاحبها، يوجهها إلى الخير فتلبي النداء. قال الغزالي:

«وسِرُّه أن من صام الدهر صار الصوم له عادة؛ فلا يُحِسُّ وقعه في نفسه بالانكسار، وفي قلبه بالصفاء، وفي شهواته بالضعف، فإن النفس إنما تتأثر بما يرد عليها لا بما تمرَّنت عليه، ألا ترى أن الأطباء نَهوا عن اعتياد شرب الدواء، وقالوا: من تعوَّده لم ينتفع به إذا مرض؛ لألف مزاجه له، فلا يتأثر به، وطب القلوب قريب من طب الأبدان»(١).

ويلمح الإمام الخطابي سببا آخر لأفضلية صوم يوم وإفطار يوم لمحه في آخر جملة من الحديث فيقول: «محصل قصة عبد الله بن عمرو أن الله تعالى لم يتعبَّد عبده بالصوم خاصة، بل تعبَّده بأنواع من العبادات، فلو استفرغ جهده لقصَّر في غيره، فالأَوْلى: الاقتصاد فيه ليستبقي بعض القوة لغيره، وقد أشير إلى ذلك بقوله -عليه الصلاة والسلام- في داود عليه السلام: «ولا يَفِرُّ إذا لاقى»، لأنه كان يتقوَّى بالفطر لأجل الجهاد»(٢).

فالغرض من الفطر إذن:

التقوِّي به على الطاعة لئلا يضعف الإنسان عن أعمال الخير، فلو أنه واصل الصوم ولم يفطر، فربما أضعف ذلك قوته وأنهك جسمه ولم يقوَ على قتال الأبطال، فصوم يوم وفطر يوم يجمع له بين الحسنيين وييسِّر له القربتين.

4 الصوم الحقيقي:

يا ركب الشفاء وقافلة المهتدين..

ليس الصوم امتناعًا عن الطعام والشراب فحسب، بل صونًا للجوارح عما حرَّم الله، وكل الصائمين يبحر في بحر الصوم لكن كم منهم يصل إلى شاطئ التقوى؟! كلهم يحرم

---

(١) فيض القدير ١/ ١٧١.

(٢) فتح الباري ٤/ ٢٢١.

نفسه الطعام والشراب لكن.. من ينال مقابل تعبه ومن يذهب حرمانه أدراج الرياح؟! فكل من جمع بين صوم البطن والفرج والجوارح فقد سبق غيره من الصائمين وغلبه، وإلا فما أرخص الصوم الزائف!! قال ميمون بن مهران يقول: «إن أهون الصوم ترك الطعام والشراب»(١).

ولو صام المسلمون حقًّا لكان الحال غير ما نحن فيه اليوم، ولاختفت علامات الفحش وسوء الخلق والأثرة والاعتداء على الغير من مجتمعاتنا، ولرضي عنا ربنا فيسَّر لنا دنيانا وأكرمنا في آخرتنا، ولكننا قوم لا يصومون!!

5 إخفاء الصوم:

وإذا أضاف المريض إلى ما سبق: إخفاء صومه؛ فقد عطَّر عمله بالإخلاص قبل أن يبعث به إلى ربه ليتقبله، والإخلاص أسمى العبادات القلبية؛ لذا يتضاعف ثواب الصائم الخفي أضعافًا مضاعفة. قال ﷺ: «**وكل عمل لصاحبه إلا الصيام يقول الله: الصيام لي وأنا أجزي به**».

والمعنى: أتولى الجزاء على الصوم بنفسي، فلا أكله إلى ملك مقرب ولا غيره، لأنه سِرٌّ بيني وبين عبدي، فلما كف نفسه عن شهواتها سرًّا وجهرًا كوفئ بتولي الله سبحانه الإحسان إليه بنفسه فضلاً وبرًّا؛ لذا حرص الصالحون على إخفاء صومهم، فعن علم الزهاد وبركة العصر **معروف الكرخي** أنه سأله رجل: يا أبا محفوظ كيف تصوم؟ فبقي يغالطه ويقول: صوم نبينا ﷺ كان كذا، وصوم داوود كان كذا، فألح عليه فقال: «أصبح دهري صائمًا، فمن دعاني أكلت، ولم أقل: إني صائم»(٢).

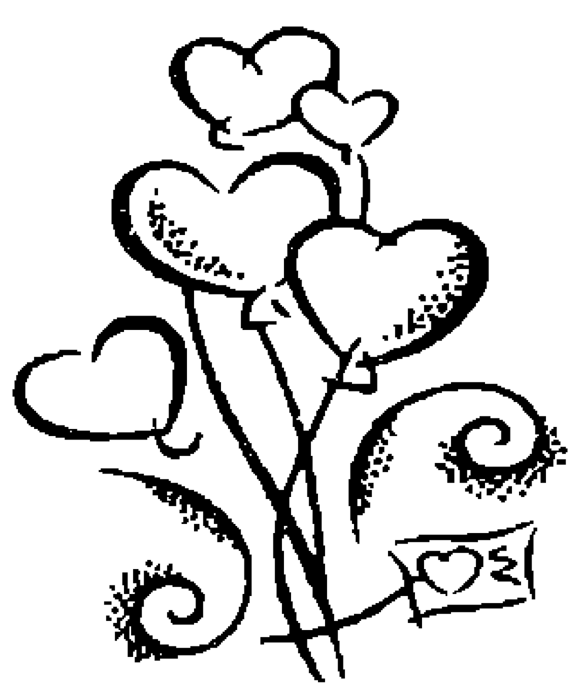

(١) شعب الإيمان ٣/ ٣١٨.
(٢) تاريخ الإسلام.

ثالثًا:
نفقات العلاج

والذي دسَّ سم البخل في قلب المريض هو أعدى أعدائه: شيطانه، حيث تسلل إلى القلب على حين غفلة من صاحبه فنفث فيه من سحره، لكن الله مطلع.. رآه ففضحه، وكانت فضيحته على رؤوس الأشهاد حيث نُشِرت على صفحات القرآن، ليخلد هذا التحذير فينا إلى قيام الساعة. قال عز وجل: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾[البقرة: ٢٦٨].

قال **مقاتل والكلبي**: «كل فحشاء في القرآن فهي الزنا إلا في هذا الموضع فإنها البخل»[١]، ويؤكِّد هذا **ابن القيِّم** قائلاً: «أمَرَه بالفحشاء وهي البخل الذي هو من أقبح الفواحش، وهذا إجماع من المفسرين أن الفحشاء هنا: البخل»[٢].

وهذا السم له تركيبة خاصة ومفعول محدد كما هو واضح في الآية، ومن مفعوله أن يُحدِث أثرين خطيرين: أن يصرف العبد عن كل خير ويرغِّبه في كل شر. قال **ابن القيِّم**:

«وهذان الأمران هما جِماع ما يطلبه الشيطان من الإنسان، فإنه إذا خوَّفه من فعل الخير تركه، وإذا أمره بالفحشاء وزيَّنها له ارتكبها»[٣].

إن خوف الفقر هو أول حلقة في سلسلة طويلة يجر بعضها بعضًا، وهو داء يفتح على صاحبه عشرات الأدواء ودوامة الشقاء؛ لذا كان **سفيان الثوري** يقول:

«إياكم وخوف الفقر، فإنه ليس للشيطان سلاح يقاتل به ابن آدم أشدَّ من خوفه الفقر، لأنه إذا خاف الفقر أخذ من الباطل، ومنع من الحق، وتكلم بالهوى، وظن بربه سوء الظن، فلقي كل سوء»[٤].

---

(١) إغاثة اللهفان ١/ ١٠٧.
(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ١/ ٥٥٤.
(٣) إغاثة اللهفان ١/ ١٠٧.
(٤) تنبيه المغترين ص١٠٣.

قصة وعبرة

يا حارس نعمته وخازن ورثته، ألا تعلم أنه:

قد يجمع المال غير آكله ويأكل المال غير من جمعه

واسمع لتعرف صدق ما أقول:

قال فرقد: دخلنا على الحسن [ت: ١١٠] فقلنا: يا أبا سعيد! ألا يعجبك مِن محمد بن الأهتم؟ فقال: ماله؟ فقلنا: دخلنا عليه آنفًا وهو يجود بنفسه، فقال: انظروا إلى ذاك الصندوق - وأومأ إلى صندوق في جانب بيته - فقال: هذا الصندوق فيه ثمانون ألف دينار أو قال درهم لم أؤدِّ منها زكاة، ولم أصل منها رحمًا، ولم يأكل منها محتاج، فقلنا: يا أبا عبد الله.. فلمن كنت تجمعها؟! قال: لروعة الزمان، ومكاثرة الأقران، وجفوة السلطان.

فقال الحسن: انظروا من أين أتاه شيطانه فخوَّفه روعة زمانه، ومكاثرة أقرانه، وجفوة سلطانه؟ ثم وجَّه إليك الخطاب قائلاً:

أيها الوارث! لا تُخْدَعنَّ كما خُدِع صاحبك بالأمس، جاءك هذا المال لم تتعب لك فيه يمين، ولم يعرق لك فيه جبين، جاءك ممن كان له جموعًا منوعًا، من باطل جمعه، من حق منعه، ثم قال: إن يوم القيامة لذو حسرات، الرجل يجمع المال ثم يموت ويدعه لغيره، فيرزقه الله فيه الصلاح والإنفاق في وجوه البِر، فيجد ماله في ميزان غيره!![1]

وما تزوَّدَ مما كان يَجمعه إلا حنوطًا غداةَ البين معْ خِرَقِ
وغيرَ نفحةِ أعوادٍ تُشَدُّ به وقلَّ ذلك مِن زادٍ لمنطلقِ

إنها ليست مصيبة واحدة أن يفقد الإنسان ما جمعه بالموت، بل مصيبتان ومصيبتان عظيمتان. قال يحيى بن معاذ: مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلها في ماله عند موته. قيل: ما هما؟! قال: «يُؤخذ منه كله، ويُسأل عنه كله»[2].

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٢٧٤.
(٢) صفة الصفوة ٤/ ٩١، ٩٢.

أخي.. ما زال يصرخ فيك الصارخ: ما حكَّ جلدك مثل ظفرك، فتولَّ أنت جميع أمرك، ولماذا تترك نفسك فريسة لأهلك ينفقون بالنيابة عنك من مالك بعد موتك، يتصدقون أو يغفلون، يُرسلون إليك من مالك أو به يشتغلون وعليه يقتتلون.

من هنا حسم ميمون بن مهران الموازنة قائلاً: «لأن أتصدَّق بدرهم في حياتي أحب إليَّ من أن يُتصَدَّق عني بعد موتي بمائة درهم»(١).

إن المال نعمة من الله إما أن نقضي بها الحياة الزائلة هنا أو نبني بها الحياة الدائمة هناك، ومن هنا حرص الأذكياء على تحويل المال من نعمة مؤقتة زائلة إلى نعمة دائمة باقية، وليس ذاك إلا بإنفاقه، ولقد أحسن أبو العباس أحمد بن مروان يصف كل جامع لورثته بخيل على نفسه:

وذو حرص تراه يلُمُّ وفرًا ... لوارثه ويدفع عن حماه
ككلب الصيد يمسك وهو طاوٍ ... فريسته ليأكلها سواه(٢)

البخلاء يختنقون

وعلى الضد من ذلك يكون حال البخيل؛ فإن هو همَّ يومًا بالصدقة ضاق صدره وانقبضت يده، خوفًا من نقص المال بعد أن صار جمعه كل همه وغايته، يقول ابن القيم وهو يصف بركات الإحسان ومضاعفات داء البخل في دقة واقتدار: «فإن الكريم المحسن أشرح الناس صدرًا، وأطيبهم نفسًا، وأنعمهم قلبًا، والبخيل الذي ليس فيه إحسان أضيق الناس صدرًا، وأنكدهم عيشًا، وأعظمهم همًّا وغمًّا»(٣).

وقد ضرب النبي ﷺ لذلك مثلاً من أبلغ ما يكون فقال:

«مثل البخيل والمُتصدِّق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثُدِيِّهما إلى تراقيهما(٤)،

---

(١) الحلية ٤/ ٨٧.
(٢) المستطرف ص ٨٠.
(٣) زاد المعاد، لابن القيم: ٢/ ٢٥، ٢٦.
(٤) تراقيهما: جمع ترقوة، وهي العظم البارز أعلى الصدر.

فأما المنفق فلا ينفق شيئًا إلا سبغت على جلده حتى تُخفي بنانه وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن يُنفق شيئًا إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسعها فلا تتسع»(١).

وهذا مثل رائع غزير الفوائد ضربه النبي ﷺ للبخيل والمتصدق، فشبَّههما برجلين أراد كل منهما أن يلبس درعًا يستتر به من عدوه، والدرع أول ما يقع على الصدر والثديين إلى أن يُدخِل الإنسان يديه في كميها، فجعل المنفق كمن لبس درعا فهي تتسع عليه كلما أنفق وتظل تتسع حتى تستر جميع بدنه بل وتصل إلى الأرض حتى تمحو آثار أقدامه من ورائه حين يمشي، بعكس البخيل فهو كمثل رجل غُلَّت يداه إلى عنقه، وكلما أراد لبس الدرع اجتمعت في عنقه فلزمت ترقوته.

والمراد: أن الجواد إذا همَّ بالصدقة انشرح لها صدره وطابت بها نفسه، فتوسع في الإنفاق حتى صار عنده عادة لا يستطيع الانقطاع عنها، والمراد كذلك أنها تستر عوراته في الدنيا والآخرة كما يستر هذا الثوب السابغ جسد من يلبسه، وأن الصدقة تمحو خطايا صاحبها كما يمحو الثوب الطويل آثار أقدام لابسه إذا مشى.

والبخيل بعكس هذا كله ضيِّق الصدر إذا حدَّث نفسه بالصدقة شحَّ وانقبضت يداه، وقد اعتاد إمساك المال فصار له عادة لا فكاك منها، مفضوح ببخله بين الناس لا يستره شيء كمن لبس جبة إلى ثدييه، فبقي مكشوف العورة مفتضحًا في الدنيا والآخرة.

أخي.. احذر مالك.. أنفقه وإلا أسرك.. أخرجه من عندك وإلا استعبدك.. أدرك قلبك منه قبل أن يصيبه بالجشع.

إذا المرء لم يُعتِق من المال نفسه … تملَّكه المال الذي هو مالكه

ألا إنما مالي الذي أنا منفق … وليس لي المال الذي أنا تاركه

إذا كنتَ ذا مال فبادر به الذي … يحق وإلا استهلكته مهالكه

---

(١) صحيح: رواه الشيخان وأحمد والترمذي كما في ص ج ص حديث رقم: ٥٨٢٦.

معلّم نبي وشارح وفيّ

والمعلِّم وسيد المعلِّمين هو النبي ﷺ يضرب لنا المثل الثاني تأكيدًا وتعليمًا وتوضيحًا وتبيينًا، حتى لا يعود لأحد منا حجة أو ذريعة. قال ﷺ:

«إنما أخاف عليكم من بعدي ما يُفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها، إنه لا يأتي الخير بالشر، أن مما يُنبِت الربيع يقتل حَبَطا أو يُلِمُّ إلا آكلة الخَضِر، فإنها أكلت حتى إذا امتلأت خاصرتاها استقبلت الشمس فثلطت وبالت، ثم رتعت»[(١)].

والتلميذ هو ابن قيم الجوزية الذي بدأ شرحه لهذا الحديث على صفحات كتابه **إغاثة اللهفان** فقال:

«أخبر ﷺ أنه إنما يخاف عليهم الدنيا، وسمَّاها زهرة؛ فشبهها بالزهر في طيب رائحته وحسن منظره وقلة بقائه، وأن وراءه ثمرًا خيرًا وأبقى منه.

وقوله: **«إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يُلِمُّ»** من أحسن التمثيل المتضمن للتحذير من الدنيا والانهماك عليها والمسرة فيها، وذلك أن الماشية يروقها نبت الربيع فتأكل منه، فربما هلكت حبطًا، والحَبَط انتفاخ بطن الدابة من الامتلاء أو من المرض، فكذلك الشرِه في المال يقتله شَرَهه وحرصه، فإن لم يقتله قارب أن يقتله وهو قوله: **«أو يُلِمُّ»**، وكثير من أرباب الأموال إنما قتلتهم أموالهم، فإنهم جمعوها من غير حِلِّها ووضعوها في غير حقها.

وقوله **«إلا آكلة الخَضِر»**: تمثيل لمن أخذ من الدنيا حاجته، مَثَّله بالشاة الآكلة من الخضر بقدر حاجتها، أكلت حتى اذا امتلأت خاصرتاها، وإنما تمتد من امتلائها من الطعام، وثنَّى الخاصرتين لأنهما جانبا البطن.

وفي قوله **«استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت»**: أنها أعرضت عما يضرها من الشَّره في المرعى، وأقبلت على ما ينفعها من استقبال الشمس التي يحصل لها بحرارتها الانتفاع والفائدة، ثم إنها استفرغت بالبول والثَّلط ما جمعته من المرعى في بطنها،

---

(١) صحيح: رواه الشيخان وأحمد والنسائي وابن ماجة عن أبي سعيد الخدري كما في ص ج ص رقم: ٢٣١٧.

فاستراحت بإخراجه ولو بقي فيها لقتلها، وكذلك جامع المال فإنه من مصلحته أن يفعل به كما فعلت هذه الشاة وإلا هلك».

ولذا رُوِي أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً بدينًا فأشار إلى بطنه وقال: «لو كان هذا في غير هذا لكان خيرًا لك»[1]، أي لو كنت أنفقت ما أكلت على الفقراء صدقة وفضلاً لوقيت نفسك المرض، ولنلت في الجنة الغرض، فإن النعمة إذا أُكِلت صارت بعد قليل إلى المزبلة، وإذا تُصدِّق بها سافرت إلى أعلى عليين.

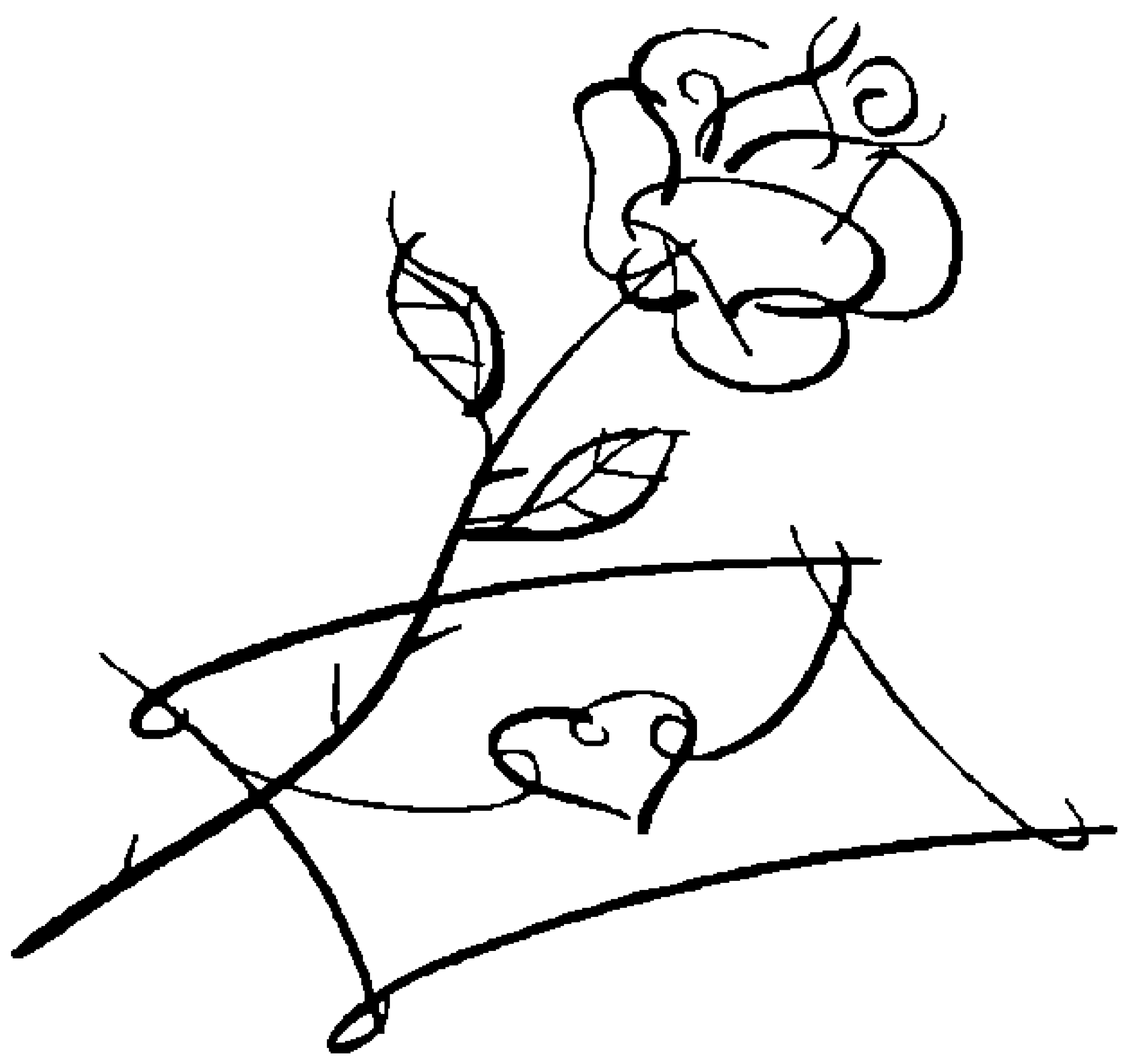

(١) ضعيف كما في السلسلة الضعيفة ٣/ ١١٣١.

مضاعفات القوة

1 مفتاح بوابة البر:

يا مريض القلب.. دواؤك في الصدقة(١)، وأقسم بالله على ذلك، فإن أبيت إلا كتاب الله تطلب منه الدليل، فأعطني سمعك: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل: ٥-٧].

والمعنى أي نُيَسِّر له كل خير، ونحبِّب إليه كل طاعة، ونفتح له أبواب المعروف، ونصده عن المنكرات، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢]، فلابد للدواء حتى يُحدث أثره ويسري مفعوله أن تكون صدقتك من أفضل ما تملك وأكثر ما تحب، وإلا ظللت طريح الفراش خائر الهمة صريع الشيطان، تنوي الطاعة فلا تقدر، وتعزم على الخير فتخونك قواك، وقد حثنا رسول الله ﷺ على هذا النوع الغالي من الإنفاق فقال:

«أفضل الرقاب أغلاها ثمنًا وأنفسها عند أهلها»(٢).

لكن ما هو البِرُّ؟!

أجاب ابن القيم: «فالبر كلمة جامعة لجميع أنواع الخير والكمال المطلوب من العبد»(٣).

قصة آية

لكن ما قصة هذه الآية: ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾، وما أثرها في القلوب الحية؟!

حين أدرك الصحابة - رضي الله عنهم- قيمة هذا الدواء الناجع؛ جرَّبوه واستعملوه،

---

(١) بل ومريض الجسد كذلك. قال ﷺ: «داووا مرضاكم بالصدقة». حديث حسن حسنه الألباني في ص ج ص رقم: ٣٣٥٨.
(٢) صحيح: رواه الشيخان والنسائي وابن ماجة عن أبي ذر كما في ص ج ص رقم: ١١٠٥.
(٣) الرسالة التبوكية ص ٩.

فكان الواحد منهم إذا ازداد حبه لشيء من ماله(١) بذله لله رجاء نيل البر، فعن **أنس بن مالك** ﷺ قال:

«كان **أبو طلحة** أكثر أنصاري بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب. قال **أنس**: فلما أنزلت هذه الآية: ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢] قام **أبو طلحة** إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله.. إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾، وإن أحب أموالي إليّ بيرحاء، وإنها صدقة لله، أرجو بِرَّها وذُخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. قال: فقال رسول الله ﷺ: بخ!! ذلك مال رابح.. ذلك مال رابح»(٢).

ورأى **زيد بن حارثة** ﷺ ما فعله أخوه فغار، وما أربح الغيرة في الطاعات، وما أحبها إلى رب السماوات، ذلك أنه لما نزلت: ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ جاء **زيد بن حارثة** بفرس له كان يحبها فقال: يا رسول الله.. هذه في سبيل الله، فحمل رسول الله ﷺ عليها **أسامة بن زيد**، فكأن زيدًا وجد في نفسه، فلما رأى ذلك منه النبي ﷺ قال: «أما إن الله قد قبلها»(٣).

والمشاهد أن لهذه الآية سرًّا عجيبًا وتأثيرًا فريدًا وأثرًا عظيمًا لكل من كان له قلب حي ووعي ذكي؛ لذا لما سمعها الصحابة باعوا أغلى ما يملكون في سبيل نيل ما إليه يطمحون، لكن أين كان **الصديق** من كل هذا؟! وهل كان غائبًا عن شهود هذا الخير مع أفضليته؟! وهل يترك غيره يسبقه دون أن ينافسه؟! كلا والله، فقد كان الإنفاق من أفضل ما يحب المرء علامة متعارفًا عليها بين أبناء هذا الجيل، وسجية تفيض بها كتب السير عنهم حتى ذكر **عمر بن شبّة** في أخبار المدينة أن دار **أبي بكر** التي أُذِن له في إبقاء الخوخة منها إلى المسجد كانت ملاصقة

---

(١) عن **المفضل الضبي** قال: " المال عند العرب الصامت والناطق، فالصامت: الذهب والفضة والجوهر، والناطق: البعير والبقرة والشاة، فإذا قلت عن حضري: كثر ماله فالمراد الصامت، وإذا قلت عن بدوي: فالمراد الناطق ". فتح الباري ٧/ ٤٩٩.

(٢) صحيح: رواه الشيخان عن أنس بن مالك كما في اللؤلؤ والمرجان رقم: ٥٨٢.

(٣) تفسير الطبري ٣/ ٣٤٥.

للمسجد، ولم تزل بيد أبي بكر حتى احتاج إلى شيء يعطيه لبعض من وفد عليه، فباعها فاشترتها منه حفصة أم المؤمنين بأربعة آلاف درهم(١)، ولسان حاله:

كأنك في الكتاب وجدت أنَّ (لا) محرمة عليك فلا تحلُّ
فما تدرى إذا أعطيت مالاً أيكثر في سماحك أم يقلُّ
إذا حضر الشتاء فأنت شمس وإن حضر المصيف فأنت ظلُّ

وفارس آخر في الميدان وهو أشد الناس شبهًا برسول الله ﷺ كما روت ذلك عنه عائشة رضي الله عنها، وهذا هو عبد الله بن عمر ﷺ حيث لم يطق صبرًا وهو يقرأ هذه الآية في صلاته، فائتمر بأمرها ونفَّذ على الفور ما أرادته الآية وهو داخل الصلاة!! فقد أخرج أحمد في الزهد عن مجاهد قال: «كان ابن عمر قائمًا يصلي، فأتى على هذه الآية: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾، فأعتق جارية له وهو يصلي قد أراد أن يتزوجها»(٢).

وموقف آخر لكن هذه المرة خارج الصلاة وهو يقرأ نفس الآية العجيبة؛ وكان راكبًا يومًا على راحلة عظيمة، فأعجبته فأناخها وجعلها لله تعالى.

وفي موقف ثالث اشترى سكرًا وتصدَّق به، وكثيرًا ما كان يفعل، فقال له أصحابه: لو اشتريت لهم بثمنه طعامًا كان أنفع لهم من هذا، فيقول: «إني أعرف الذي تقولون، ولكن سمعت الله يقول: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ وابن عمر يحب السكر»(٣).

وفهم التابعون الدرس لأنهم تلاميذ نجباء، ولأن المعلِّم واحد، والكتاب الذي يُستقى منه خالد، فتسلَّموا الراية عن طريق الربيع بن خيثم الذي جاءه سائل يسأل، فخرج إليه في ليلة باردة، فاذا هو كأنه مقرور (من القُرِّ وهو البرد)، فنزع بُرنسًا له، فكساه كان يزعم أنه من خزٍّ، فأعطاه إياه، ثم تلا الآية نفسها: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾(٤).

(١) فتح الباري ٧/ ١٤.
(٢) الزهد لأحمد ص ١٩٤.
(٣) الدر المنثور ٢/ ٢٦٢.
(٤) الزهد لأحمد ص ٣٣١.

ومن قبل الربيع كان خامس الخلفاء الراشد عمر بن عبد العزيز، وكان لزوجته فاطمة بنت عبد الملك جارية بارعة الجمال وكان عمر راغبا فيها، وكان قد طلبها منها مرارًا فلم تُعطِه إياها، فلما ولي الخلافة زيَّنتها وأرسلتها إليه، فقالت: قد وهبتكها يا أمير المؤمنين لتخدمك، فقال: من أين ملكتِها؟ قالت: جئت بها من بيت أبي عبد الملك، ففتش كيف تملكها، فقيل: إنه كان على فلان العامل ديون فلما توفي أُخذت من تركته، ففتش عن العامل وأحضر ورثته وأرضاهم جميعًا بإعطاء المال، ثم توجه إلى الجارية -وكان يهواها هوى شديدًا- فقال: «أنت حرة لوجه الله تعالى!!»[(١)].

ولذا لم يكن غريبًا أن يعتبر سعد بن عبادة ﷺ الصدقة أساس صلاح سائر الأعمال، فيدعو قائلاً: اللهم ارزقني مالاً أجود به، فإنه لا يُصلِح الفعال إلا المال، ثم أنشد قائلاً:

أرى نفسي تتوق إلى فعال ... فيقصر دون مبلغهن مالي
فلا نفسي تُطاوعني ببُخل ... ولا مالي يبلّغني فعالي[(٢)]

وما هذا إلا لغيرته في الخير وسعيه لينال ما نال إخوته من الفضل، وتسري في قلبه نفس اللذة.. لذة الانتصار على الهوى، ولذة اليقين بموعود الله، ولذة الإيثار الأخوية، ولذة السمو الأخروية، فلله درُّه من صحابي عالي الهمة وسامق العزم.. هتاف نفسه وحديث قلبه:

يا لهْف نفسي على مالٍ أجود به ... على المقلّين من أهل المروءات
إن اعتذاري إلى من جاء يسألني ... ما ليس عندي لَمِن إحدى المصيبات

2 أخرجها من قلبك أولاً:

قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦١]

---

(١) تفسير أبي السعود ٢/ ٥٨.
(٢) تنبيه المغترين ص ١٣٨، ١٣٩.

قال ابن القيِّم في جلسة تفسير خاصة بهذه الآية:

«فإن ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من الإيمان والإخلاص والتثبيت عند النفقة؛ وهو إخراج المال بقلب ثابت قد انشرح صدره بإخراجه، وسمحت به نفسه، وخرج من قلبه قبل خروجه من يده، فهو ثابت القلب عند إخراجه غير جزع ولا هلع، ولا متبع نفسه ترجف يده وفؤاده»[1].

لكن.. لماذا ختم الله الآية بقوله: ﴿ عَلِيمٌ﴾؟!

والجواب: أي عليم بمكنونات القلوب ومحتويات الضمائر، ومن ثَمَّ عليم بمن يستحق هذه المضاعفة ممن لا يستحق، فلا يظن أحد أن سعة عطاء الله تقتضي وصوله لكل منفق، فإن كان عطاؤه لا يضيق بأحد إلا أنه كذلك ليس لأي أحد، فإنه سبحانه حكيم يضع فضله في مواضعه، ويمنعه من لا يستحق.

احذر: آفتان قلبيتان

قال عز وجل:

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

والآية تشبِّه محسوسًا وهو ثمار الزروع بآخر غير مرئي ولا محسوس وهو ثواب المنفق عند الله، فجعل الله الثواب المترتِّب على الصدقة الخالصة من آفتي الرياء والتردد ضِعف الثواب العادي للصدقة كما تشير الآية: ﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾، قال السدي: «كما أضعفت ثمرة تلك الجنة فكذلك تُضاعف ثمرة هذا المنفق ضعفين»[2].

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ١٨٤.
(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣/ ٦٩.

فلو أن رجلاً نال في الجنة قيراطًا بصدقته فإن المخلص الذي ما تردَّد له قيراطان، وهي كما ترى ليست سوى أعمال قلوب لكنها ترفع صاحبها إلى أعلى عليين؛ لذا فهي منازل نادرة وحِكر عليكم أيها الراغبون في التميُّز بالدرجات والتفرُّد بأعلى المقامات.

إن اليد التي تنفق لابد لها من قلب يعمل معها على التوازي، فالصدقة وحدها لا تكفي، بل لا بد أن يصاحبها عمل قلبي حتى تُقبل، وإلا ذهبت أدراج الرياح، وخسر صاحبها ماله دون أن يجد ثوابه؛ ولذا قال ابن القيِّم معلِّقًا على الآية السابقة:

«فإن المنفق يعترضه عند إنفاقه آفتان إن نجا منهما كان مثله ما ذكره في هذه الآية؛ إحداهما: طلبه بنفقته محمدة أو ثناء أو غرضًا من أغراضه الدنيوية، وهذا حال أكثر المنفقين، والآفة الثانية: ضعف نفسه وتقاعسها وترددها: هل يفعل أم لا، فالآفة الأولى تزول بابتغاء مرضاة الله، والآفة الثانية تزول بالتثبيت، فإن تثبيت النفس تشجيعها وتقويتها والإقدام بها على البذل وهذا هو صدقها، وطلب مرضاة الله إرادة وجهه وحده وهذا إخلاصها»(١).

ومعنى الخلاص من الآفة الثانية أي من ضعف النفس وتقاعسها: أن لا يتردَّد أحدهم أبدًا في إنفاق في مجالات الخير، بل إذا نازعته نفسه مثلاً أن يخرج ألفًا أو ألفين أنفق ألفين، وإذا حدَّثته أن ينفق اليوم أو غدًا أنفق اليوم، فما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أعلاهما قدرًا وأكثرهما أجرًا.

3 البعد عن المَنِّ والأذى

أولا: المَنُّ:

والمَنُّ هو تذكير المنعِم المنعَم عليه بإنعامه، وهو أمر يبعث على الحسرة والألم، لأن المنفق بعد جهاد طويل مع نفسه وصراع مرير مع قلبه؛ قد أحبط عمله بمنِّه وتفضله على غيره وفي طرفة عين، وقديمًا قيل: تناسي المعروف أعظم قلادة في جيد الجود.

وعند أبي حامد الغزالي أن القلب هو مصدر هذا البلاء؛ حيث قال رحمه الله: «وعندي أن

---

(١) طريق الهجرتين ١/ ٥٤٦.

المَنّ له أصل ومغرس، وهو من أحوال القلب وصفاته، ثم يتفرع عليه أحوال ظاهرة على اللسان والجوارح»[١].

وبمزيد تفصيل يشرح ابن القيِّم كلام أخيه أبي حامد قائلاً:

«فالمَنُّ نوعان أحدهما: منٌّ بقلبه من غير أن يصرِّح به بلسانه، وهذا إن لم يُبطِل الصدقة؛ فهو من نقصان شهود منة الله عليه في إعطائه المال وحرمان غيره وتوفيقه للبذل ومنع غيره منه، فلله المنة عليه من كل وجه، فكيف يشهد قلبه مِنَّة لغيره؟!

والنوع الثاني: أن يمُنَّ عليه بلسانه، فيعتدي على من أحسن إليه بإحسانه، ويريه أنه اصطنعه، وأنه أوجب عليه حقًّا، وطوَّقه مِنَّة في عنقه، فيقول: أما أعطيتك كذا وكذا، ويُعدِّد أياديه عنده. قال سفيان: يقول أعطيتك فما شكرت، وقال عبد الرحمن بن زياد: كان أبي يقول: إذا أعطيتَ رجلاً شيئًا ورأيتَ أن سلامك يثقل عليه فكفَّ سلامك عنه، وكانوا يقولون: إذا اصطنعتم صنيعة فانسوها، وإذا أُسدِيت إليكم صنيعة فلا تنسوها: وفي ذلك قيل:

وإن امرأ أهدى إليَّ صنيعة وذكَّرنيها مرة لبخيل

وقيل: صنوان من منح سائله وَمَنَّ ومن منع نائله وضنَّ»[٢].

لكن لماذا حرَّم الله سبحانه على عباده المنَّ؟!

أجاب ابن القيِّم: «وحظر الله على عباده المَنَّ بالصنيعة، واختص به صفة لنفسه، لأن منَّ العباد تكدير وتعيير، ومَنُّ الله سبحانه وتعالى إفضال وتذكير.

وأيضًا فإنه هو المنعم في نفس الأمر، والعباد وسائط، فهو المنعم على عبده في الحقيقة.

وأيضًا فالامتنان استعباد وكسر وإذلال لمن يَمُنُّ عليه، ولا تصلح العبودية والذل إلا لله.

وأيضًا فالمِنَّة أن يشهد المعطي أنه هو رب الفضل والإنعام، وأنه ولي النعمة ومُسديها، وليس ذلك في الحقيقة إلا الله.

وأيضًا فالمانُّ بعطائه يشهد نفسه مترفعًا على الآخذ مستعليًا عليه غنيًّا عنه عزيزًا، ويشهد

---

(١) الإحياء ١/ ٢١٦.

(٢) السابق ١/ ٥٤١.

ذل الآخذ وحاجته إليه وفاقته، ولا ينبغي ذلك للعبد.

وأيضًا فإن المعطي قد تولى الله ثوابه ورد عليه أضعاف ما أعطى، فبقي عوض ما أعطى عند الله، فأي حق بقي له قِبَل الآخذ، فإذا امتنَّ عليه فقد ظلمه ظلمًا بيِّنًا، وادعى أن حقه في قلبه.

ومن هنا - والله أعلم- بطلت صدقته بالمَنِّ، فإنه لما كانت معاوضته ومعاملته مع الله؛ وعوض تلك الصدقة عنده، فلم يرض به، ولاحظ العِوض من الآخذ والمعاملة عنه، فمنَّ عليه بما أعطاه أبطل معاوضته مع الله ومعاملته له»[١].

لكل شيء علامة

وعلامة المَنِّ الظاهرة: التحدث به وإظهاره، وعلامته الباطنة: طلب المكافأة عليه بأي شكل من أشكال الشكر أوالدعاء أو الخدمة أو التوقير والتعظيم أو القيام بالحقوق والحوائج، فهذه كلها من المَنِّ، وقد أشار أبو حامد الغزالي كذلك إلى علامة من علامات المَنِّ ربما لا يفطن لها الكثير من أحياء القلوب وذلك حين سئل: فهل من علامة يمتحن بها قلبه فيعرف بها أنه لم ير نفسه محسنًا؟! فأجاب رحمه الله بكلم نادر نفيس:

«فاعلم أن له علامة دقيقة واضحة، وهو أن يُقدِّر أن الفقير لو جنى عليه جناية مثلاً؛ هل كان يزيد في استنكاره واستبعاده له على استنكاره قبل التصدق، فإن زاد لم تَخْلُ صدقته من شائبة المنة، لأنه توقع بسببه ما لم يكن يتوقع قبل ذلك»[٢].

وأشار في موضع آخر إلى علامة أخرى خفية من علامات المَنِّ مرتبطة بالعلاقة التي تربط المنفق بمن مدحه أو ذمه، فقال في ذكره لعلامات الإخلاص:

«وعلاماته أن لا يجد في نفسه استثقالا للذام عند تطويله الجلوس عنده أكثر مما يجده في المادح، وأن لا يجد في نفسه زيادة هزة ونشاط في قضاء حوائج المادح فوق ما يجده في قضاء حاجة الذام، وأن لا يكون انقطاع الذام عن مجلسه أهون عليه من انقطاع المادح، وأن لا يكون موت

(١) طريق الهجرتين ١/ ٥٤١، ٥٤٢.
(٢) الإحياء ١/ ٢١٦.

المادح له أشد نكاية في قلبه من موت الذام، وأن لا يكون غمُّه بمصيبة المادح وما يناله من أعدائه أكثر مما يكون بمصيبة الذام، وأن لا تكون زلة المادح أخف على قلبه وفي عينه من زلة الذام»(١).

ثانيًا: الأذى:

قال أبو حامد الغزالي: «وأما الأذى فظاهره التوبيخ والتعيير وتخشين الكلام وتقطيب الوجه وهتك الستر بالإظهار وفنون الاستخفاف، وباطنه وهو منبعه: أمران؛ أحدهما: كراهيته لرفع اليد عن المال وشدة ذلك على نفسه، والثاني: رؤيته أنه خير من الفقير، وأن الفقير لسبب حاجته أخس منه، وكلاهما منشؤه الجهل»(٢).

أما كراهيته لرفع يده عن المال فهو حمق؛ لأن من كره بذل درهم في مقابل ألف درهم شديد الحمق، ومعلوم أن المتصدِّق يبذل المال لطلب رضا الله -عز وجل- والجنة في الآخرة، فضلاً عن كون ذلك منه شكرًا لنعمة المال مما يستوجب المزيد، وكونه تطهيرًا للقلب من آفات الشح والبخل، فأي كراهة لهذا الخير؟!

وأما الثاني وهو رؤيته أنه خير من الفقير؛ فهو أيضًا جهل لأنه لو كان عالمًا حقًّا لرأى الفقير محسنًا إليه بقبوله حق الله -عز وجل- منه، وحق الله هو وحده الذي يطهِّر ماله ويدخله الجنة، ولو لم يقبل الفقير صدقة الغني لبقي الغني في الإثم واستحق العقوبة؛ فقد جعل الله الفقير نائبًا عنه سبحانه في قبض حقه تبارك وتعالى، فليدرك كل متصدِّق أنه يؤدي إلى الله حقه بهذه الصدقة، وما الفقير إلا آخذ رزقه من يد الله بعد أن استلمته يد الله من كف الغني، فكيف تؤذي الفقير بعد ذلك بأذاك؟!

ومثال هذا أنك لو كنت مدينًا لأحد بمال وبعثت بهذا المال خادمك ليؤديه لصاحبه، فلو مننت على خادمك بعد ذلك بهذا المال لكنت جهولاً سفيهًا؛ إذ ما هو إلا رسول يؤدِّي الحق إلى صاحبه، وأنت الساعي في سداد الواجب الذي عليك، فكيف تمنُّ به على من عاونك في قضاء حاجتك وبلوغ غايتك؟!

(١) السابق ٣/ ٢٩١.
(٢) الإحياء ١/ ٢١٧.

4 الصدقة المتجرِّدة:

قال عز وجل: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢].

وقوله: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ ﴾ أي ولا يحلف، والقصة أن أبا بكر الصديق ﷺ كان يعطف على قريبه ونسيبه مِسْطَح بن أثاثة، فإنه كان ابن خالة الصديق، ومن فقراء المهاجرين مسكينًا لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر ﷺ، لكنه وقع في عرض عائشة -رضي الله عنها- في حادثة الإفك، فمنع عنه أبو بكر النفقة، وأقيم عليه الحد في ذلك،، فلما نزلت هذه الآية: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ ﴾ إلى قوله: ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾، قال الصديق: بلى والله إنا نحب يا ربنا أن تغفر لنا، ثم أُرجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا في مقابلة ما كان قال: والله لا أنفعه بنافعة أبدًا، فقد فهم الصديق من الآية أن الجزاء من جنس العمل، والمعنى: كما تغفر عن المذنب إليك نغفر لك، وكما تصفح نصفح عنك، وقد شرح الكيلاني صنيع أبي بكر وإنكاره لحظ نفسه، فقال آمرًا كل مقتفٍ للأثر طامع في الأجر:

«كن مع الحق بلا خلق، ومع الخلق بلا نفس»[(١)].

إننا حين نتصدق نعامل الله بصَدقاتنا، ونضعها في يده، ولا نبالي أمدح الناس أم ذموا، أشكروا أم كفروا، وإذا ذمك من تصدَّقت عليه، وأساء إليك من أحسنت إليه، فتذكَّر وصية الكيلاني على الفور تربح، فإن هذا علامة إخلاصك ودليل إرادتك بصدقتك وجه الله لا مدح الناس، واطمح بقلبك في نيل شرف قوله ﷺ: «أفضل الصدقة: الصدقة على ذي الرحم الكاشح»[(٢)].

والكاشح: المبغض المعادي، فإنه طوى كشحه على بغضه وعداوته، وإنها فلسفة هذا الدين الرائع في نزع بذور العداوة وغرس شجر المحبة بدلاً منها، وما أجمل ما قال أبو الحسين

---

(١) المدارج ٢/ ٣٢٦.

(٢) صحيح: رواه أحمد والطبراني عن أبي أيوب وحكيم بن حزام، والطبراني والحاكم عن أم كلثوم بنت عقبة كما في ص ج ص رقم: ١١١٠.

سراج بن عبد الملك في ذلك ينصحك بالتشبُّه بالغيث:

بُثَّ الصنائع لا تحفل بموقعها من آملٍ شكَرَ الإخوان أو كفرا
فالغيث ليس يبالي أين ما انسكبت منه الغمائم تُربا كان أو حجرا(١)

5 وقت الإنفاق:

عن المنذر بن جرير عن أبيه قال: كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، فجاءه قوم حفاة عراة مجتابي النِّمار أو العَبَاء متقلِّدي السيوف عامتهم من مُضَر بل كلهم من مُضَر، فتمعَّر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج فأمر بلالاً فأذَّن وأقام فصلى، ثم خطب فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١] والآية التي في الحشر ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحشر: ١٨] تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بُرِّه، من صاع تمره؛ حتى قال: ولو بشقِّ تمرة. قال: فجاء رجل من الأنصار بصُرَّة كادت كفه تعجز عنها بل قد عجزت. قال: ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مَذْهَبَة، فقال رسول الله ﷺ: «من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها وَوِزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»(٢).

وفي وقت الأزمات قد تسبق الصدقة كل أنواع العبادات الأخرى، ليبرز ما يُعرَف اليوم باسم فقه الأولويات، واسمعوا ما كان من عبد الله بن المبارك رحمه الله أثناء حجه مما يدل على عظيم فقهه

(١) القلائد من فرائد الفوائد ص ٥٧، ٥٨ - ط المكتب الإسلامي - مصطفى السباعي عن كتاب الصلة لابن بشكوال - الطبعة الثانية ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

(٢) صحيح مسلم ٢/ ٧٠٤، ومجتابي النمار أي لابسيها، والنِّمار: جمع نَمِرة وهو كلُّ ثوب مُخطَّط من مَآزِر الأعراب، وأُخِذَت من لون النَّمر لما فيها من السَّواد والبَياض.

وروعة فهمه. قال ابن كثير:

«خرج عبد الله بن المبارك مرة إلى الحج، فاجتاز ببعض البلاد، فمات طائر معهم، فأمر بالقائه على مزبلة هناك، وسار أصحابه أمامه، وتخلف هو وراءهم، فلما مرَّ بالمزبلة إذا جارية قد خرجت من دار قريبة منها، فأخذت ذلك الطائر الميت، ثم لفته ثم أسرعت به إلى الدار، فجاء فسألها عن أمرها وأخذها الميتة، فقالت: أنا وأخي هنا ليس لنا شئ إلا هذا الازار وليس لنا قوت إلا ما يلقى على هذه المزبلة، وقد حلَّت لنا الميتة منذ أيام، وكان أبونا له مال فظُلِم وأُخذ ماله وقُتِل، فأمر ابن المبارك برد الأحمال وقال لوكيله: كم معك من النفقة؟! قال: ألف دينار، فقال: عدَّ منها عشرين دينارًا تكفينا إلى مرو، وأعطها الباقي، فهذا أفضل من حجنا في هذا العام، ثم رجع»[(١)].

ومما يشهد لأفضلية وقت الإنفاق قول الله -سبحانه وتعالى- : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ﴾[الحديد: ١٠].

وأكثر المفسرين على أن المراد هنا بالفتح: فتح مكة، وإنما كانت النفقة قبل الفتح أعظم لأن حاجة الناس كانت أكثر لضعف الإسلام وقلة المسلمين، وفعل ذلك كان على المنفقين حينئذٍ أشق، والأجر على قدر النصب، وقد قدَّم الله الإنفاق على القتال إعلامًا بفضيلة الإنفاق.

ولعل ما يضاعف أثر وقت الإنفاق مضاعفة لا حدَّ لها أن يُقدَّم إلى المجاهدين الذين يحمون ظهر المستضعفين من المؤمنين ، وقد قدَّم نبينا ﷺ هذه الصدقة على سائر أنواع الصدقات حين قال :

« أفضل الصدقات ظل فُسطاط في سبيل الله عز وجل ، أو مِنحة خادم في سبيل الله ، أو طَروقة فحل في سبيل الله »[(٢)].

وهي كما ترى ثلاث صدقات كلها تدور حول بذل الصدقات للمجاهدين، فالفسطاط هو الخيمة أو الخباء التي يستظل بها المجاهد ، ومِنحة الخادم هي هبته أو إعارته للمجاهد يخدمه ويعينه ، وطَروقة الفحل هي الناقة أو الفرس التي بلغت أن يطرقها الفحل تُبذل للمجاهد في سبيل الله يركبها إعارة أو قرضا أو هبة.

---

(١) البداية والنهاية ١٠/ ١٨٧.
(٢) حسن : رواه أحمد والترمذي عن أبي أمامة والترمذي عن عدي بن حاتم كما في صحيح الجامع رقم : ١١٠٩.

فانظر أخي إلى أوقات المحن ونزول البلاء بالأمة وتوالي النكبات عليها، وإذا رزقك الله بجار مكروب، أو صادفت في مسيرة حياتك فقيرًا أرهقته الفاقة فاعلم أنها فرصة ثمينة، وردُّ الفرصة التي عرضها الله عليك علامة إعراض منك عن الرب سبحانه، فاعمد إلى مالك وقتها فأخرجه، فإن صدقة كهذه تجعل وجه رسولك يتهلل لك كأنه الذهب، ويُسَرُّ بك بينا هو في قبره؛ لأنك تنقذ أمته وهو أرحم الناس بأمته، بل وسيتهلل وجهه أكثر يوم أن يلقاك في القيامة على الحوض، وينظر إليك نظرة المبتسم الراضي وهو يسقيك بيده الشربة المباركة التي تُبيد الظمأ إلى الأبد.

6 سر الأسرار:

لا يبالي المنفق أن يُعرف، فضلا عن أن يحبَّ أن يشتهر بكرمه بين الناس، بل ولو اشتهر بينهم بالبخل وهو الكريم السخي ما أفشى من سر إنفاقه شيئًا، وما قيمة أن يعلم الناس عنه وليس في قلبه أحد من الخلق من الأساس، فلا يلمح غير نظر الله إليه، وقد علم الله كرمه وخيره، ليقتدي في تجرده هذا بعلي بن الحسين الذي قال عنه شيبة بن نعامة: كان علي بن الحسين يُبَخَّل، فلما مات وجدوه يقوت مائة أهل بيت بالمدينة. قال جرير: إنه حين مات وجدوا بظهره آثارًا مما كان يحمل بالليل الجرب إلى المساكين.(١)

7 عشرة من عشرة:

قال ابن القيِّم محصيًا أنواع الجود: «و الجود عشر مراتب:

أحدها: الجود بالنفس وهو أعلى مراتبه كما قال الشاعر:

يجود بالنفس إذ ضنَّ البخيل بها ... والجود بالنفس أقصى غاية الجود

الثانية: الجود بالرياسة، وهو ثاني مراتب الجود، فيحمل الجواد جوده على امتهان رياسته

(١) حلية الأولياء: ٣/ ١٦٣.

والجود بها، والإيثار في قضاء حاجات الملتمس.

الثالثة. الجود براحته ورفاهيته وإجمام نفسه فيجود بها تعبًا وكدًّا في مصلحة غيره، ومن هذا جود الإنسان بنومه ولذته لمسامره؛ كما قيل :

متيَّم بالندى لو قال سائله　　هب لي جميع كرى عينيك لم ينَمِ

الرابعة. الجود بالعلم وبذله، وهو من أعلى مراتب الجود، والجود به أفضل من الجود بالمال؛ لأن العلم أشرف من المال، ومن الجود به: أن تبذله لمن يسألك عنه بل تطرحه عليه طرحًا، ومن الجود بالعلم: أن السائل إذا سألك عن مسألة: استقصيت له جوابها جوابًا شافيًا لا يكون جوابك له بقدر ما تدفع به الضرورة؛ كما كان بعضهم يكتب في جواب الفتيا نعم أو لا مقتصرًا عليها، ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه- في ذلك أمرًا عجيبًا: كان إذا سئل عن مسألة حكمية ذكر في جوابها مذاهب الأئمة الأربعة إذا قدر، ومأخذ الخلاف، وترجيح القول الراجح، وذكر متعلقات المسألة التي ربما تكون أنفع للسائل من مسألته، فيكون فرحه بتلك المتعلقات واللوازم: أعظم من فرحه بمسألته، فمن جود الإنسان بالعلم: أنه لا يقتصر على مسألة السائل بل يذكر له نظائرها ومتعلقها ومأخذها بحيث يشفيه ويكفيه، وقد سأل الصحابة -رضي الله عنهم- النبي ﷺ عن المتوضئ بماء البحر فقال: «**هو الطهور ماؤه الحِلُّ ميتته**»، فأجابهم عن سؤالهم، وجاد عليهم بما لعلهم في بعض الأحيان إليه أحوج مما سألوه عنه.

الخامسة. الجود بالنفع بالجاه كالشفاعة والمشي مع الرجل إلى ذي سلطان ونحوه، وذلك زكاة الجاه المطالب بها العبد كما أن التعليم وبذل العلم زكاته.

السادسة. الجود بنفع البدن على اختلاف أنواعه كما قال: يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين اثنين: صدقة، ويعين الرجل في دابته فيحمله عليها أو يرفع له عليها متاعه: صدقة، والكلمة الطيبة: صدقة، وبكل خطوة يمشيها الرجل إلى الصلاة: صدقة، ويميط

الأذى عن الطريق: صدقة.

السابعة. الجود بالعرض كجود أبي ضمضم من الصحابة ﷺ كان إذا أصبح قال: اللهم إنه لا مال لي أتصدق به على الناس وقد تصدقت عليهم بعرضي، فمن شتمني أو قذفني: فهو في حِلٍّ، فقال النبي ﷺ: «**من يستطيع منكم أن يكون كأبي ضمضم**»[1]، وفي هذا الجود من سلامة الصدر وراحة القلب والتخلص من معاداة الخلق ما فيه.

الثامنة. الجود بالصبر والاحتمال والإغضاء، وهذه مرتبة شريفة من مراتبه، وهي أنفع لصاحبها من الجود بالمال وأعز له وأنصر وأملك لنفسه وأشرف لها، ولا يقدر عليها إلا النفوس الكبار، فمن صعب عليه الجود بماله فعليه بهذا الجود، فإنه يجتني ثمرة عواقبه الحميدة في الدنيا قبل الآخرة، وهذا جود الفتوة. قال تعالى: ﴿ **وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ** ﴾ [المائدة: ٤٥]، وفي هذا الجود قال تعالى: ﴿ **وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾ [الشورى: ٤٠] فذكر المقامات الثلاثة في هذه الآية: مقام العدل وأذِن فيه، ومقام الفضل ونَدَب إليه، ومقام الظلم وحَرَّمه.

التاسعة. الجود بالخُلُق والبشر والبسطة، وهو فوق الجود بالصبر والاحتمال والعفو، وهو الذي بلغ بصاحبه درجة الصائم القائم، وهو أثقل ما يوضع في الميزان. قال النبي ﷺ: «**لا تحقرنَّ من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط إليه**»، وفي هذا الجود من المنافع والمسار وأنواع المصالح ما فيه، والعبد لا يمكنه أن يسع الناس بحاله، ويمكنه أن يسعهم بخلقه واحتماله.

العاشرة. الجود بتركه ما في أيدي الناس عليهم فلا يلتفت إليه، ولا يستشرف له بقلبه، ولا يتعرض له بحاله ولا لسانه، وهذا الذي قال عبدالله بن المبارك: إنه أفضل

(١) ضعيف: رواه أبو داود عن أنس كما في ضعيف الجامع رقم: ٢١٨٥، وهو فعل علي بن الحسين الذي كان إذا خرج من بيته قال: «اللهم إني أتصدق اليوم أو أهب عرضي اليوم من استحله». البداية والنهاية ٩/ ١٠٧.

من سخاء النفس بالبذل، فلسان حال القدر يقول للفقير الجواد: وإن لم أُعطك ما تجود به على الناس، فجُد عليهم بزهدك في أموالهم وما في أيديهم تفضل عليهم وتزاحمهم في الجود، وتنفرد عنهم بالراحة»(١).

وإذا أراد منفق أن يسبق منفقًا فلينفق عشرة نفقات من هذه العشرة ليسبق من حقق سبعة أو خمسة أو أقل من ذلك؛ وبذا يتضاعف أثر الصدقة إلى ما لا يتصوره عقل مريض أو طبيب.

قال عبيد الله بن عباس لأخيه: إن أفضل العطية ما أعطيت الرجل قبل المسألة، فإذا سألك فإنما تعطيه ثمن وجهه حين بذله إليك. (٢)

(١) مدارج السالكين ٢/ ٢٩٣-٢٩٦ بتصرف.
(٢) قضاء الحوائج، ١/ ٤٩.

رابعًا:
استراحة القلب

وقبل البدء في الرحلة العلاجية مع هذه الجرعة الإلهية، سأل مريضنا عن فضل الذكر وسر قوته وبركة مفعوله حتى إذا ما فهم وأيقن بها أقبل بكل حواسه عليه، فوافيناه بالآتي:

1 هدف كل العبادات وثمرتها:

ما شُرعت العبادات كل العبادات إلا لإقامة ذكر الله عز وجل، ففي الصلاة يقول الله عز وجل: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴾ [طه: ١٤].

وفي الصيام قال ربنا: ﴿ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وفي الزكاة قرن الله الزكاة بالصلاة وهي من الذكر في قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وفي الحج قال: ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، بل جعل النبي ﷺ الذكر أفضل أعمال الحج، فقال عليه الصلاة والسلام: «أفضل الحج العَجُّ و الثَّجُّ»[1]، والعجُّ هو رفع الصوت بالتكبير، والثَّجُّ هو إراقة الدم.

بل وجعل الله ذكره ثمرة العبادات وغايتها ومنتهاها، ففي الصلاة -مثلاً- قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[العنكبوت: ٤٥]، وقال: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ [النساء: ١٠٣].

وفي صلاة الجمعة جعل نهاية الصلاة ذكر فقال: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى

---

(١) حسن: رواه الترمذي عن ابن عمر وابن ماجة والحاكم عن أبي بكر كما في ص ج ص حديث رقم: ١١٠١.

ﭐﻟۡﺄَﺭۡﺽِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الجمعة: ١٠].

وفي الحج قال: ﴿ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وقد خُتِم به الحج كما جاء في قوله: ﴿ فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

بل وختم به الحياة، فإذا كان آخر كلام العبد ذِكْرًا دخل الجنة، وهل أرسل الله رسوله إلا من أجل ذكر الله: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴾ [الفتح: ٨، ٩]، بل وحتى الجهاد في سبيل الله غايته ذكر الله، وهل جاهد من جاهد إلا لإعلاء كلمة الله؟!

2 أمارة القلب الحي:

حدّد ابن القيم ستة مشاهد لا يشهدها إلا القلب الحي السليم، وكان للذكر فيها نصيب الأسد وهو النصف أي ثلاثة مشاهد من أصل ستة حيث جعل من علامات صحة القلب: أن لا يفتر العبد عن ذكر ربه، وأنه إذا فاته وِرْده وجد لفواته ألمًا أعظم من تألم الحريص على فوات ماله وفقده، وأنه إذا دخل في الصلاة ذهب عنه همُّه وغمُّه بالدنيا واشتد عليه خروجه منها[١].

وما كان ابن القيم بقوله السابق غير شارح لقول النبي ﷺ عن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر مثل الحي والميت**».

فمن أراد اليوم معرفة موقع قلبه من الحياة والموت، فلينظر كيف ذكره لله ومواظبته عليه، وليعلم أن القلب الحي إذا انقطع عن ذكر ربه فقد حرم نفسه أسباب حياته، وهو ميت لا محالة. قال ابن القيِّم: «وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية - قدّس الله تعالى روحه- يقول: الذكر للقلب مثل الماء للسمك، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء؟!»[٢].

---

(١) وبقية العلامات التي ذكرها ابن القيم: ومن علامات صحته: أنه يشتاق إلى الخدمة كما يشتاق الجائع إلى الطعام والشراب، ومن علامات صحته: أن يكون همه واحدًا وأن يكون في الله، ومن علامات صحته: أن يكون أشح بوقته أن يذهب ضائعًا من أشد الناس شحا بماله.

(٢) الوابل الصيب ص ٦٣.

وفي المقابل بشارة وبارقة أمل، فإن القلب الميِّت إذا عاد إلى ذكر ربه وداوم عليه عادت فيه الحياة ودبَّت فيه الروح وقام من قبره.

3 نسيان الذكر هلاك:

عن أبان بن عثمان يقول: سمعت عثمان بن عفان ﷺ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قال بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ثلاث مرات؛ لم تُصبه فجأة بلاء حتى يصبح، ومن قالها حين يصبح ثلاث مرات لم تُصِبه فجأة بلاء حتى يمسي»[١]، فأصاب أبان بن عثمان الفالج، فجعل الرجل الذي سمع منه الحديث ينظر إليه، فقال له: ما لك تنظر إلي؛ فوالله ما كذبت على عثمان ولا كذب عثمان على النبي ﷺ، ولكن اليوم الذي أصابني فيه ما أصابني غضبتُ فنسيتُ أن أقولها، وفي رواية: ولكني لم أقله يومئذ ليُمضيَ اللهُ عليَّ قدرَه.

وإذا كان هذا الصحابي نسي ذكرًا واحدًا فأصابه ما أصابه في دنياه، فكيف بمن نسي ذكر الله على الدوام؟! ترى ماذا سيصيبه في دنياه وأخراه؟! ألم تر هلاكه في الدنيا العاجلة إما بمصائب ...ة. أو بنعم متتالية تستدرجه نحو خاتمة سيئة، فضلاً عما ينتظره في آخرته من دموع وحسرات وعذاب وزفرات، حتى وإن دخل الجنة ناله بعضًا من هذا الألم، فقد قال النبي ﷺ: «ليس يتحسَّر أهل الجنة على شيء إلا على ساعة مرَّت بهم لم يذكروا الله عز و جل فيها»[٢].

4 أعنف معارك الشيطان:

إن الذكر هو الجرعة الوقائية والدفاع الحصين التي تُرهِب به عدو الله وتُبقي الشيطان بعيدًا يخاف أن يقترب فيحترق أو يجتاز حدود قلبك فينتحر، فعن الحارث الأشعري ﷺ أن النبي ﷺ قال:

«إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها وإنه كاد أن يبطىء بها. قال عيسى: إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل

---

(١) صحيح: رواه أبوداود عن أبان بن عفان كما في صحيح أبي داود رقم: ٤٢٤٤.

(٢) صحيح: رواه الطبراني والبيهقي في الشعب عن معاذ كما في ص ج ص رقم: ٤٢٤٤.

أن يعملوا بها، فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم، فقال يحيى: أخشى إن سبقتني بها أن يُخسف بي أو أُعذَّب، فجمع الناس في بيت المقدس، فامتلأ وقعدوا على الشُّرُف.

فقال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن: وأمركم أن تذكروا الله، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في إثره سراعًا حتى إذا أتى على حصن حصين، فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله»(١).

لذا لابد أن تعلم أن الشيطان سيبذل قصارى جهده في سبيل أن يحول بينك وبين هذا الدواء الناجع والسد المنيع، حتى يحرمك من الخير، فعن أبي الجوزاء قال: «والذي نفسي بيده إن الشيطان ليلزم بالقلب حتى ما يستطيع صاحبه ذكر الله، ألا ترونهم في المجالس يأتي على أحدهم عامة يومه لا يذكر الله إلا حالفًا، والذي نفس أبي الجوزاء بيده: ماله في القلب طرد إلا قول لا إله إلا الله، ثم قرأ: ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٦]»(٢).

وقد بيَّن الله أن تسليط الشيطان على العبد قد يكون عقوبة له على تركه الذكر، فقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: ٣٦]

فعوقِب تارك الذكر والمُعرِض عنه بأن سُلسِل مع عدوه اللدود في قيد واحد، ليؤذيه ويغويه، ويضله ولا يهديه، ظلمة من بعد ظلمة، وعقوبة من بعدها عقوبة، فإن سألت: كيف يقيِّض الله لهم قرناء من الشياطين وقد نهاهم عن اتباع خطواتهم؟! قلت: معناه أنه خذلهم ومنع عنهم التوفيق لصدودهم عن الذكر، فلم يتبق لهم من قرناء سوى الشياطين.

5 مذيب القسوة الفعال:

من أكثر الأمراض شيوعًا في هذا العصر: قسوة القلب، فهو مرض العصر بلا منازع، ولم يوصف لهذه القسوة الجاثمة على الصدور مثل الذكر، فهو أنجع دواء في إذابة قسوة القلب وحالة الجدب الروحي المنتشرة اليوم كالوباء، قسوة ولا ذكر لها، ولذا لما قال رجل للحسن:

---

(١) صحيح: رواه أحمد والترمذي والنسائي عن الحارث بن الحارث الأشعري كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٥٥٢.
(٢) حلية الأولياء ٣/ ٨٠.

يا أبا سعيد.. أشكو إليك قسوة قلبي. قال: أذِبْه بالذكر، وهذا لأن القلب كلما اشتدت به الغفلة اشتدت به القسوة، فإذا ذكر الله -تعالى- ذابت تلك القسوة كما يذوب الرصاص في النار.

الذكر شفاء القلب ودواؤه، والغفلة مرضه وداؤه، والقلوب مريضة وتتعطَّش إلى جرعة واحدة من ذكر.

إذا مرضنا تداوينا بذكركم ونترك الذكر أحيانًا فننتكس

وهو ما علَّمته أم الدرداء لعون بن عبدالله الذي قال: «كنا نأتي أم الدرداء، فنذكر الله عندها. قال: فاتكأت ذات يوم، فقيل لها: لعلنا أن نكون قد أمللناك يا أم الدرداء، فجلست فقالت: أزعمتم أنكم قد أمللتموني!! قد طلبت العبادة بكل شيء، فما وجدت شيئًا أشفى لصدري ولا أحرى أن أدرك ما أريد من مجالسة أهل الذكر»[1].

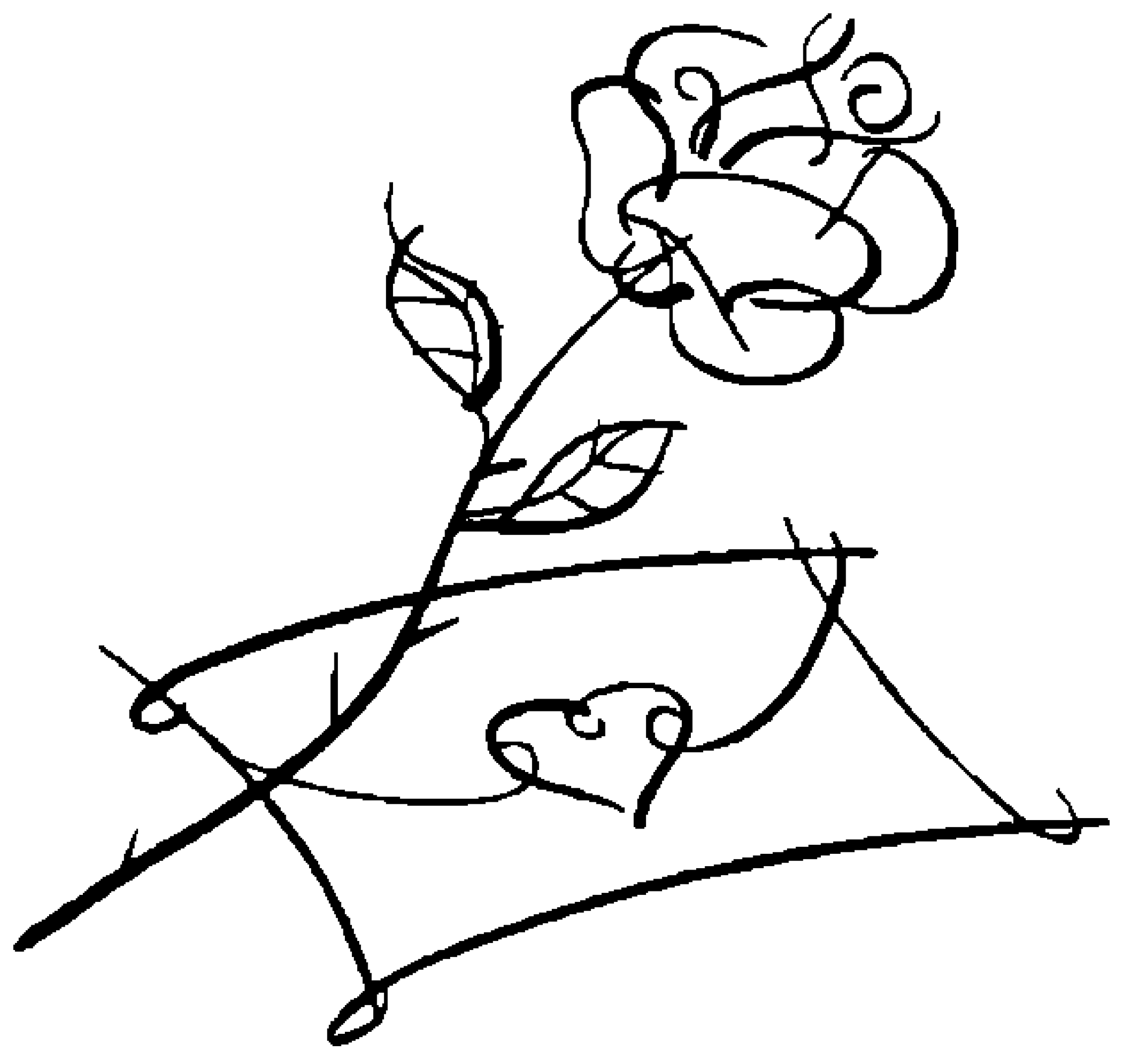

(١) حلية الأولياء ٤/ ٢٤١.

مضاعفات القوة

ومما يضاعف مفعول الذكر ويزيد من أثره في القلب:

1 التنويع:

لأن النفس تمَلُّ المداومة على نوع واحد من الذكر ولو كان طعمه كالعسل، ومن فضل الله علينا أن جعل الذكر ألوانًا وأنواعًا. قال ابن القيِّم:

«وهو أنواع:

- الأول: ذكره بأسمائه وصفاته والثناء عليه بها.
- الثاني: تسبيحه وتحميده وتكبيره وتهليله وتمجيده.
- الثالث: ذكره بأحكامه وأوامره ونواهيه، وهو ذكر العالِم[(١)]؛ بل الأنواع الثلاثة هي ذكرهم لربهم.
- ومن أفضل ذكره: ذكره بكلامه. قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤]، فذكره هنا كلامه الذي أنزله على رسوله، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].
- ومن ذكره سبحانه: دعاؤه واستغفاره والتضرع إليه.

فهذه خمسة أنواع من الذكر»[(٢)].

إن هذا التنويع ما هو إلا قطف لأزهار من بساتين شتى، وتقلب بين موائد للرحمن عامرة وأغذية روحية عامرة، وحين ننظر إلى النبي ﷺ وذكره لله نرى أنه كان أروع نموذج عملي

---

(١) قال أبو هزان: «قلت لعطاء: ما مجلس الذكر؟ قال: مجلس الحلال والحرام وكيف تصلي وكيف تصوم وكيف تنكح وكيف تطلق وتبيع وتشتري». حلية الأولياء ٣/ ٣١٣.

(٢) جلاء الأفهام ١/ ٤٥١.

على المحافظة على كل أنواع الذكر بل وأعظم الذاكرين على الإطلاق، فقد «كان النبي أكمل الخلق ذكرًا لله عز وجل، بل كان كلامه كله في ذكر الله وما والاه، وكان أمره ونهيه وتشريعه للأمة ذكرًا منه لله، وإخباره عن أسماء الرب وصفاته وأحكامه وأفعاله ووعده ووعيده ذكرًا منه له، وثناؤه عليه بآلائه وتمجيده وحمده وتسبيحه ذكرًا منه له، وسؤاله ودعاؤه إياه ورغبته ورهبته ذكرا منه، وسكوته وصمته ذكرًا منه له بقلبه، فكان ذاكرًا لله في كل أحيانه وعلى جميع أحواله، وكان ذكره لله يجري مع أنفاسه قائمًا وقاعدًا وعلى جنبه وفي مشيه وركوبه ومسيرة ونزوله وظعنه وإقامته»(١).

وكن ذاكرًا لله في كل حالةٍ ... فليس لذكر الله وقتٌ مُقيَّدُ
فذكر إله العرش سرًّا ومُعْلِنا ... يُزيل العناء والهمَّ عنك ويطردُ
ويجلب للخيرات دنيا وآجلا ... وإن يأتك الوسواس يومًا يشرُدُ
فقد أخبر المختار يومًا لصحبه ... بأن كثير الذكر في السبق المُفرَّدُ

2 الذكر الكثير:

لم يفرض الله على عباده فريضة إلا جعل لها حدًّا معلومًا، ثم عذر أهلها في حال عدم استطاعتهم القيام بها إلا الذكر، فإن الله لم يجعل له حدًّا ينتهي إليه، ولم يعذر أحدًا في تركه. قال: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ [النساء: ١٠٣]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أي بالليل والنهار في البر والبحر، والسفر والحضر، والغنى والفقر، والمرض والصحة، والسر والعلانية»(٢).

لسان الحال: من صبر على كثرة ذكرنا؛ وصل إلى لذة قربنا.

فكيف لا تكثر ذكره؟! وهو كلما ذكرته أفادك، وكلما أطعته أعانك، وكلما خدمته أحيا فؤادك.

---

(١) زاد المعاد ٢/ ٣٣٢.
(٢) الإحياء ١/ ٢٩٤.

أخي.. الذكر الكثير هو الذي يزين كل مكان ويعطّر كل أرض بقعة يظهر فيها، وهي وصية أبي مسلم الخولاني حين أتاه رجل وقال له: أوصني يا أبا مسلم. قال: اذكر الله تحت كل شجرة وحجر. قال: زدني، فقال: اذكر الله حتى يحسبك الناس من ذكر الله مجنونًا. قال: فكان أبو مسلم يكثر ذكر الله، فرآه رجل يذكر الله، فقال: أمجنون صاحبكم هذا؟! فسمعه أبو مسلم فقال: «ليس هذا بالجنون يا ابن أخي، ولكن هذا دواء الجنون»[(١)].

الذكر الكثير هو الذي يملأ الوقت ويشغل اللسان حتى أثناء الأعمال الدنيوية والعادات اليومية والأوقات البينية. قال إسحاق بن هانئ: «تعشَّيتُ مرة أنا وأبو عبد الله وقرابة لنا، فجعلنا نتكلم وهو يأكل، وجعل يمسح عند لقمة بيده بالمنديل، وجعل يقول عند كل لقمة: الحمد لله وبسم الله، ثم قال لي: أكل وحمد خيرٌ من أكل وصمت»[(٢)].

الذكر الكثير هو الذي لا يُقعِد عنه أي ظرف ولو كان شديد الوطأة، وهل أشد من الجهاد؟! قال محمد بن كعب القرظي: «لو رُخِّص لأحد في ترك الذكر، لرُخِّص لزكريا عليه السلام. قال تعالى: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١]، ولو رخِّص لأحد في ترك الذكر لرخِّص للذين يقاتلون في سبيل الله. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]»[(٣)].

والذكر الكثير يؤدي إلى معايشة القلب الرب، ومراقبته في كل فعل، حتى لا يقطع العبد أمرًا دونه، ولا يخطو خطوة في غير رضاه؛ لأن الذكر كالغيث ينزل من السماء فتصبح الأرض مخضرة، وكذلك القلب ينزل عليه الذكر فيخضر بعد جدبه، ويبقى أثره حتى وإن سكت اللسان، مما يؤكِّد المعنى اللغوي لكلمة الذكر والذي قاله الفيروز آبادي في القاموس:

(١) شعب الإيمان ١/ ٤٥٥.
(٢) بدائع الفوائد ٤/ ١١٩.
(٣) الحلية ٣/ ٢١٥.

«الذكر بالكسر: الحفظ للشيء»[١].

وبهذا تعلم أن حقيقة الذكر: الحفظ والتذكر والاستحضار، وعندها فقط تفهم ترجمة معاني كلمات ذي النون، وتتفهَّم مشاعره حين واجهك وصارحك قائلا:

«ويحك!! مَن ذَكَر الله على حقيقة ذكره نسي في جنب الله كل شيء، ومن نسي في جنب الله كل شيء حفظ الله عليه كل شيء، وكان له عِوضا من كل شيء».

وعندما تصل إلى هذه الدرجة الرفيعة والمرتبة العالية يسهل عليك وداع الحياة ذاكرا، فتموت على ما اعتدته في حياتك مكافأة لك من ربك على جميل صنعك ودوام ذكرك، وهو ما حدث مع الإمام الجنيد الذي قيل له عند احتضاره: قل لا إله إلا الله، فقال: «ما نسيتُه حتى أذكره»[٢].

3 لا تطع غافلاً:

قال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨]

وأصل الإغفال: إيجاد الغفلة وهي الذهول عن تذكر الشيء، وأريد بها هنا غفلة من نوع خاص، وهي الغفلة الدائمة الشاملة، وجعلت الآية الإغفال من الله تعالى كناية عن كونه في أصل خِلقة تلك القلوب وليس طارئًا عليها، فهو طبع ملازم، والطبع لا يتخلف، وفي هذه الحال يكون مجرد النظر إلى هؤلاء الغافلين هذه الغفلة سببًا لحرمان الذاكر من حلاوة الذكر؛ لذا حذَّرنا الفضيل ابن عياض بلهجة صارمة ولو من نظرة عابرة إلى مواكب الغافلين فقال: «لا تنظروا إلى مراكبهم، فإن النظر إليها يطفئ نور الإنكار عليهم»[٣].

(١) القاموس المحيط ١/ ٥٠٧.
(٢) إحياء علوم الدين ٧/ ١١٧
(٣) الورع ١/ ٦٧، ٦٨.

هي خطة شيطانية خبيثة إذن يسلك بها الشيطان طريقه نحو قلوب الذاكرين وفق تخطيط محكم دقيق يمحو الذكر ليستبدله بالغفلة، وتبدأ خطته بالأمر رقم (١) وهو:

زرع الغفلة في قلب عبد من العباد.

ومن بعده يأتي الأمر رقم (٢)، والأمر رقم (٣) في الخطة، ويتمثلان في قول الشيطان لجنده:

«واقرنوا بين الغافلَيْن (٢)، ثم استعينوا بهما على الذاكر (٣)، ولا يغلب واحدٌ خمسة، فإن مع الغافلين شيطانين صاروا أربعة، وشيطان الذاكر معهم، وإذا رأيتم جماعة مجتمعين علي ما يضركم من ذكر الله ومذاكرة أمره ونهيه ودينه ولم تقدروا على تفريقهم؛ فاستعينوا عليهم ببني جنسهم من الإنس البطالين، فقرِّبوهم منهم، وشوِّشوا عليهم بهم»[(١)].

فإن ابتُليت بمثل هؤلاء فلك أن تخرج من هذا الفخ بأن تقلِّد ابن الجوزي حين قال:

«أعوذ بالله من صحبة البطالين، لقد رأيت خلقًا كثيرًا يجرون معي فيما قد اعتاده الناس من كثرة الزيارة، ويسمون ذلك التردد خدمة ويطلبون الجلوس، ويُجرون فيه أحاديث الناس، وما لا يعني وما يتخلله: غيبة، وهذا شيء يفعله في زماننا كثير من الناس، وربما طلبه المزور وتشوق إليه، واستوحش من الوحدة، وخصوصا في أيام التهاني والأعياد، فتراهم يمشي بعضهم إلى بعض، ولا يقتصرون على الهناء والسلام بل يمزجون ذلك بما ذكرته من تضييع الزمان، فلما رأيت أن الزمان أشرف شيء، والواجب انتهاؤه بفعل الخير كرهت ذلك، وبقيت مهمومًا بين أمرين :

إن أنكرتُ عليهم وقعت وحشة، وإن تقبَّلتُه منهم ضاع الزمان، فصرت أدافع اللقاء جهدي، فإذا غلب قصَّرت في الكلام لأتعجَّل الفراق، ثم أعددت أعمالاً تمنع من المحادثة لأوقات لقائهم لئلا يمضي الزمان فارغًا، فجعلت من المستعد للقائهم قطع الكاغد وبري القلام وحزم الدفاتر، فإن هذه الأشياء لا بد منها، ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب، فأرصدتها لأوقات زيارتهم لئلا يضيع شيء من وقتي»[(٢)].

---

(١) الجواب الكافي ص ٧٠.

(٢) صيد الخاطر ص ٢٥٥ بتصرف.

4 بركة المضاعفات النبوية:

قال رسول الله ﷺ:

«ألا أدُلك على ما هو أكثر من ذكرك الله الليل مع النهار؟ تقول: الحمد لله عدد ما خلق، الحمد لله ملء ما خلق، الحمد لله عدد ما في السماوات وما في الأرض، الحمد لله عدد ما أحصى كتابه، والحمد لله على ما أحصى كتابه، والحمد لله عدد كل شيء، والحمد لله ملء كل شيء، وتسبِّح الله مثلهن، تَعلَّمهن، وعلِّمهن عقِبك من بعدك»(١).

ولاشك أن أمثال هذه الأذكار تجمع بين البركة النبوية إضافة إلى المضاعفة الربانية؛ لذا يتضاعف الأثر في صحيفة الأعمال ثوابًا، وفي شفاء القلوب نورًا واهتداء.

5 سباعية الذكر الرائعة:

المذكور واحد لكن الذكر مختلف، وما بين درجات الذاكرين تفاوت وتباين كما بين السماء والأرض، فكيف يصل الذاكر إلى أعلى الدرجات ويسبق غيره إلى أسماها؟!

قال ابن الجوزي في كلام عُجِن لفظه بمسك معانيه ففاح نسيمه وعبق عبيره حتى تعلق به الرواة وسارت به الركبان:

«أول ما يحتاج إليه العازم على ذكر الله: التفرغ من الشواغل الظاهرة، ثم تسكين جوارح البدن عن الحركات الشاغلة، ثم قطع الفكر عن قلبه، ثم إشعار نفسه عظمة ما قد عزم عليه من ذكر ربه، ثم استفراغ الوسع في تجويد الذكر، ثم إطالة المجلس ما أمكنه إطالته، ثم التحفظ بالحالة التي استفادها قلبه من الرقة باجتناب الملهيات من حين يقوم عن الذكر إلى أن يعود إليه، فهذه الشرائط السبع من راعاها حق الرعاية بلغ من مراد الذاكرين أقصى الغاية»(٢).

وإليك تفصيل هذه الوصية النادرة واحدة واحدة:

---

(١) صحيح: رواه الطبراني عن أبي أمامة كما في ص ج ص رقم: ٢٦١٥.
(٢) التذكرة في الوعظ ص ١١٩.

أ- التفرغ عن الشواغل الظاهرة:

فلا تذكر الله في مواضع الضوضاء والزحام التي تشوش على القلب فيتشتت في أودية كثيرة يسترق السمع إليها، ويا حبذا لو اخترت أوقات السكون الطبيعي في جوف الليل حين يصغي القلب إلى الخير دون أن يعترض طريقه أحد، ومن هنا تفهم لماذا أُمرنا بذكر الله في الثلث الأخير من الليل، ونفهم لماذا كان الإسراء ليلاً، ونفهم سِرَّ نهي النبي ﷺ أن يجهر أحدنا بصلاته على صلاة أخيه.

ومن الشواغل الظاهرة كذلك ما يشوِّش على البصر كذلك فيزيغ وراء ما يلفت الأعناق ويخلب العقول، وعلى المرء أن يجتنب الذكر في هذه الأماكن ما استطاع، يقتدي في ذلك برسول الله ﷺ، فعن **أنس** ﷺ قال: كان قِرام **لعائشة** سترت به جانب بيتها فقال النبي ﷺ: «**أميطي عنا قِرامك هذا، فإنه لا تزال تصاويره تعرض لي في صلاتي**»[(١)].

والقِرام: ستر رقيق من صوف ذو ألوان ونقوش، وقد شغل النبي ﷺ عن صلاته فأمر بإزالته على الفور، بل ولما صلى في خميصة أهداها له أبو جهم، والخميصة: ثوب يلفت البصر بما فيه من زخارف وعلامات، ردَّها وقال: «**اذهبوا بهذه الخميصة إلى أبي جهم بن حذيفة، وأتوني بأنْبجَانِيَّتِه فإنها ألهتني آنفًا في صلاتي**»[(٢)].

أي لما شغله الثوب عن حضور قلبه في الذكر رده على صاحبه، وقوله: «**وأتوني بأنْبجَانيَّتِه**»: هي ثوب بلا أعلام، وإنما طلبها من **أبي جهم** وهو من أهدى إليه الخميصة أولاً ؛ لأن النبي ﷺ رقيق المشاعر؛ لم يُرِد أن يُؤَثِّر ردُّ هديته عليه في قلبه. قال **الطيبي**:

«فيه إيذان بأن للصور والأشياء الظاهرة تأثيرًا في القلوب الطاهرة والنفوس الزكية يعني فضلا عمن دونها»[(٣)].

ب- تسكين جوارح البدن عن الحركات الشاغلة:

فإن الجوارح سواقي إلى القلب، وأدنى حركة للجارحة تؤثر على القلب ولاشك سلبًا

---

(١) صحيح: رواه البخاري وأحمد عن أنس كما في ص ج ص رقم: ١٤٠٥.
(٢) صحيح: رواه الشيخان والنسائي عن عائشة كما في ص ج ص رقم: ٨٦٤.
(٣) فتح الباري ١/ ٤٨٣.

تو إيجابًا، فلتخشع وقت الذكر ولتكن ساكنًا سكون الطير، ولتقتد في ذلك بالصحابة - رضوان الله عليهم- الذين كانوا إذا سمعوا القرآن فكأن على رؤوسهم الطير، وكن كالليث في أوان الصيد؛ إذ ليس مع الجلبة قنص، ولا كالسكون معين على حضور القلب وتفريغ الباطن وتهيئته لتلقي بذور الخير وقطف ثمرات الذكر.

ج- قطع الفكر عن قلبه:

والمقصود به تهيؤ القلب -والقلب أولاً وقبل كل شيء- قبل الدخول على من يطلع على السرائر والأفئدة، فتستحي أن تدخل عليه وقلبك مشغول مع غيره، أو تنطق بكلمات الثناء عليه وقلبك يثني على سواه، أو تتعوَّذ خوفا من عذابه وقلبك خائف من عباده، أو تحمده وتشكره بلسانك والقلب جاحد ناكر لا يأمر الجوارح بشكر أو معروف.

ولقطع الفكر الدنيوي عن القلب طريقتان ذكرهما ابن القيم فاسمع كلماته دواء ناجعًا شافيًا معافيًا، وكأنها قميص يوسف أُلقي على أجفان يعقوب، فأبصر كل قلب كان قد عمي. يقول رحمه الله:

«من الذاكرين من يبتدئ بذكر اللسان وإن كان على غفلة، ثم لا يزال فيه حتى يحضر قلبه فيتواطآ على الذكر، ومنهم من لا يرى ذلك ولا يبتدئ على غفلة، بل يسكن حتى يحضر قلبه فيشرع في الذكر بقلبه، فإذا قوى استتبع لسانه فتواطآ جميعا، فالأول ينتقل الذكر من لسانه إلى قلبه، والثاني ينتقل من قلبه إلى لسانه من غير أن يخلو قلبه منه، بل يسكن أولاً حتى يحس بظهور الناطق فيه، فإذا أحس بذلك نطق قلبه، ثم انتقل النطق القلبي إلى الذكر اللساني، ثم يستغرق في ذلك حتى يجد كل شيء منه ذاكرًا، وأفضل الذكر وأنفعه ما واطأ فيه القلب اللسان، وكان من الأذكار النبوية، وشهد الذاكر معانيه ومقاصده»[1].

ليس المطلوب أي ذكر إذن؛ بل ذكر خاص ينبع من القلب ليصل إلى الرب، ويكون معه جمع همٍّ، وتطليق دنيا، وخلوة ساعة، وسِحْر سَحَر، أخي.. إذا غاب قلبك تاهت رسائلك في الطريق، وإذا حضر وصلت أسرع من البرق.

---

(١) الفوائد ص ١٩٢ - ط دار الكتب العلمية.

د- إشعار نفسه عظمة ما قد عزم عليه من ذكر ربه:

لقد أورد ابن القيِّم في كتابه القيِّم الوابل الصيِّب من الكلم الطيِّب أكثر من مائة فائدة للذكر، من تقلب فيها قذف الله في قلبه نور التعظيم لما بادر إليه من ذكره، لكني اخترت منها اثنتين فحسب:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٥٢]

ولو لم يكن من فضائل الذكر غير هذه لكفتنا فضلاً وشرفًا وفاضت علينا، إن ذكر الله لنا إن ذكرناه هو ذكره لنا برحمته وفضله، وذكره لنا بتأييده ونصره، وذكره لنا بمغفرته وستره، وذكره لنا بتوفيقه وبرِّه، وذكره لنا واحدًا واحدًا بأسمائنا في الملأ الأعلى، وفي المقابل إذا نسي أحد ذكر الله نسيه الله، ونسيان الله له: إهماله له، وطرده من رحمته، وحرمانه من بركته، فلما ترك ذكر الله تركه الله في عذاب الدنيا بتعسير أمره، وفي الآخرة بتعذيب روحه وبدنه، فما أقبح نسيانك لذكر من لا يغفل لحظة واحدة عن برِّك.

والثانية: قوله تعالى: ﴿ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]

ومعنى أكبر أي ذكره لكم أكبر من ذكركم إياه.

ومن معاني أكبر أي أكبر من كل عبادة أخرى شرفًا وقدرًا وقربًا إلى الله.

ومن معانيها أي أكبر مما تتصورون أو يخطر ببالكم أو تحلمون.

ومن معانيها أي أكبر من دنياكم التي عليها تنافسون بكل ما عليها من نعيم لأنه يورث النعيم في الآخرة ولا مقارنة.

ومن معانيها أي أكبر من أن تصمد أمام الذكر أية فاحشة أو منكر، فالذكر إذا وقع سحق ومحق كل خطيئة ومعصية، ولأنه أكبر فما حسن عمر أحد ولا تزيَّنت حياته بأفضل من ذكره لله وتسبيحه وتهليله، فعن عبد الله بن شداد ﷺ أن نفرا من بني عذرة ثلاثة أتوا النبي ﷺ فأسلموا. قال: فقال النبي ﷺ: من يكفيهم؟ قال طلحة: أنا. قال: فكانوا عند طلحة، فبعث النبي ﷺ بعثا، فخرج فيه أحدهم فاستشهد، ثم بعث بعثا فخرج فيه آخر فاستشهد، ثم مات الثالث على فراشه. قال طلحة: فرأيتُ هؤلاء الثلاثة الذين كانوا عندي في الجنة، فرأيتُ الميت على فراشه أمامهم، ورأيت الذي استشهد أخيرًا يليه، ورأيت أولهم آخرهم. قال: فداخلني

من ذلك فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: «وما أنكرت من ذلك؛ ليس أحد أفضل عند الله -عز وجل- من مؤمن يُعمَّر في الإسلام لتسبيحه وتكبيره وتهليله»[1].

هـ- استفراغ الوسع في تجويد الذكر:

إن تحسين الصوت بالذكر، وإعطاء كل حرف حقه، والتغني به، وقراءته بحزن، كل هذا يجعل للذكر طعمًا آخر وأثرًا أوكد، ومن هنا تفهم لماذا أحب رسول الله ﷺ أن يسمع القرآن من غيره، وهو عبد الله بن مسعود ﷺ صاحب الصوت الندي الشجي الذي أبكى رسول الله ﷺ[2] حين قرأ عليه صدر سورة النساء؛ لذا مدحه النبي ﷺ بقوله: «من أحب أن يقرأ القرآن غضًّا كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن أمّ عبد»[3].

و- إطالة المجلس ما أمكنه إطالته:

قلما تجتمع الجودة مع السرعة، وجرِّب أن تعطي اثنين كتابين، وتطلب إليهما أن ينسخا بيديهما عشر صفحات كلٌّ على حدة؛ أحدهما في خمس دقائق والآخر في ساعة من الزمن، وقارن بين النسختين، وستجد ولا شك أن صاحب الزمن الأطول كتابته أجود وخطه أجمل ولو كان سيئ الخط في الأصل، لأن الوقت في صالحه، والآخر متعجِّل ولذا خطه غير مقروء ولا يكاد يُفهم.

فافهم ما وراء المثل، واعلم أن مجالس البشر تختلف عن مجالس رب البشر؛ مجالس البشر إذا طال فيها المجلس كان للشيطان فيها نصيب، ومجالس رب البشر كلما طالت كلما ابتعد الشيطان عنها ولم يعد له فيها أدنى نصيب.

---

(١) حسن: رواه الضياء في المختارة عن عبد الله بن شداد، وحسنه الألباني في الصحيحة رقم: ٦٥٤.

(٢) الآية التي أبكت رسول الله ﷺ هي: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾. قال ابن الجوزي: «بكاؤه عند هذه الآية الكريمة لأنه لا بد من أداء الشهادة، والحكم على المشهود عليه إنما يكون بقول الشاهد، فلما كان هو الشاهد وهو الشافع بكى على المُفرَّطين منهم.

الثاني: أنه بكى لعظم ما تضمنته هذه الآية الكريمة من هول المطلع وشدة الأمر؛ إذ يؤتى بالأنبياء عليهم السلام شهداء على أممهم بالتصديق والتكذيب.

الثالث: أنه بكى فرحًا لقبول شهادته أمته يوم القيامة وقبول تزكيته لهم في ذلك اليوم العظيم». عمدة القاري ١٨/ ١٧٤.

(٣) حسن: كما في السلسلة الصحيحة ٥/ ٣٧٩.

ز- التحفظ بالحالة التي استفادها قلبه:

وذلك بصيانة النفس بعد الفراغ من مجالس الذِّكر عن الوقوع في الحرام، والإغراق في اللهو، والإسراف في المباح، وحتى في حالات عدم الذكر عليك استحضار نية التقوي بالمباح على ذكر الله وطاعته، حتى يحين موعد الذكر القادم، فيكون حال روحك إما أن تتصل أو تتهيأ كي تتصل.

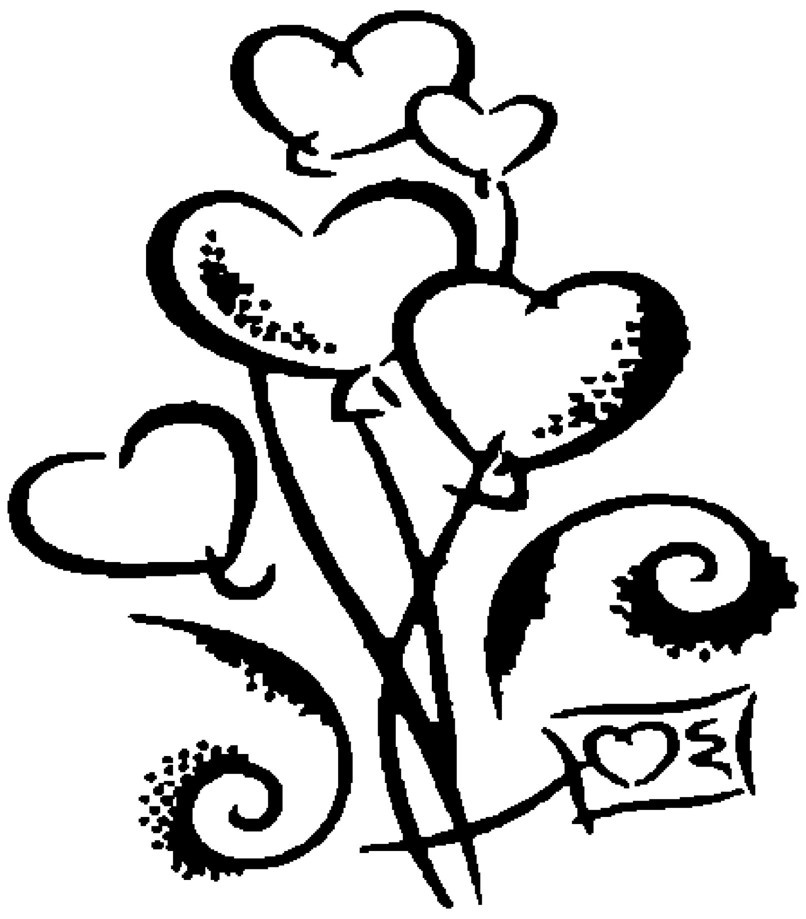

خامسًا: قوة التحمل

إنها قوة الصبر لكن.. ما هو الصبر؟!

قال أبو قدامة:

«فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابل باعث الشهوات، فإن ثبت حتى قهر الشهوة التحق بالصابرين، وإن ضعف حتى غلبت الشهوة ولم يصبر على دفعها، التحق بأتباع الشياطين، وإذا ثبت أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة الهوى، فهذه المقاومة من خاصية الآدميين»[(١)].

وحديثنا القادم يتناول نوعين: الصبر على الطاعات والصبر عن المعاصي.

بين الطاعة والبلاء

الصبر على الطاعة أعلى مقامًا من الصبر على البلاء؛ لأن الصبر على الطاعة صبر اختيار، والصبر على البلاء صبر اضطرار؛ لذلك (كان صبر نوح وإبراهيم وموسى وعيسى – عليهم الصلاة والسلام– على ما نالهم في الله باختيارهم وفعلهم ومقاومتهم قومهم: أكمل من صبر أيوب على ما ناله في الله من ابتلائه وامتحانه بما ليس مسببًا عن فعله، وكذلك كان صبر إسماعيل الذبيح وصبر أبيه إبراهيم عليهما السلام على تنفيذ أمر الله أكمل من صبر يعقوب على فقد يوسف)[(٢)].

وسبب آخر لكون الصبر على الطاعة أكمل من الصبر على البلاء؛ وهو أن من علامات كمال الصبر على البلاء وأمارات قبوله عند الله: فعل الطاعة بعده؛ ولذلك قال تعالى في معرض الحديث عن غزوة أحد: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِين

(١) مختصر منهاج القاصدين ص ٢٦٨-٢٦٩ - ابن قدامة المقدسي - ط دار التراث.

(٢) المدارج ٢/ ١٦٥.

مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ولم يقل وسيجزي الصابرين مع أن المقام مقام صبر بل قال: ﴿ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ أي الطائعين الذين استمروا على طاعتهم عقب البلاء.. أعظم بلاء، وهل أعظم من مقتل النبي ﷺ؛ وكأن المطلوب منك يا صاحب القلب الحي أن تخرج من مصيبتك بمزيد الطاعة والقرب من ربك والحرص على رضوانه، وإلا رُدَّ صبرك عليك ولم يُقبل.

وأصحاب القلوب الحية لا يزيدهم البلاء إلا طاعة لله؛ لذا حكى الله موقف الصحابة بعد غزوة أحد حيث البلاء الشديد والجراح الغائرة استجابتهم لأمر الله ورسوله، وخروجهم وهم المثخنون بالجراح الغارقون في الأوجاع والأحزان إلى غزوة حمراء الأسد بعد أقل من خمس عشرة ساعة من نهاية غزوة أحد، فقال عز وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤]

بل قد لا تكون المصيبة سوى طريق لجذب العبد إلى الطاعة وتقريبه منها، كما قال ابن عطاء في حكمة تحذيرية:

«من لم يُقبِل على الله بملاطفات الإحسان، قِيْد إليه بسلاسل الامتحان»(١).

والصابرون على الطاعات المداومون عليها دومًا قلة قليلة بين الناس. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ [النساء: ٦٦]، ولأنهم قلة وسط كثرة مفرِّطة فقد وعدهم الله بأثمن المكافآت وأغلى الجوائز. قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩] فهل علمتم ثوابكم يا أهل الصبر على طاعته، ولو لم يكن لكم من جزاء غير هذا لكفى.

---

(١) الحكم العطائية ص ٢٩.

والصديقون هم السابقون في تصديقهم المبالغون في الصدق، وهم أفضل أصحاب الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وخواصهم المقربين، والشهداء هم الذين بذلوا أرواحهم في طاعة الله تعالى وإعلاء كلمته، والصالحون هم الصارفون أعمارهم في طاعته وأموالهم في مرضاته ﴿ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾، وما أروعها من صحبة، والصابر على الطاعات هؤلاء غدا هم أصحابه وجيرانه وأحبابه وخلانه، إنه أسمى نعيم الجنة، وهل أحلى من صحبة الأنبياء وأشباه الأنبياء وأصفياء الله من خلقه ومن صنعهم على عينه؟!

بين الطاعة والمعصية

والصبر على الطاعة أكمل كذلك وأعلى من الصبر عن المعصية؛ لأن عدم ملء الوقت بالطاعة كان سبب وقوع المعصية، وعدم سدِّ الفراغ بالطاعة مهَّد الطريق لاقتحام المعصية، فكلما حُجِب الإنسان عن طاعة وقع في معصية، بل وكانت الطاعة مكافأة كل صبر عن معصية، ومن هنا كان الصبر على الطاعة أعلى درجات الصبر(١)، بل وكان ترك الصبر على الطاعة أبغض عند الله من عدم الصبر عن المعصية. قال سهل بن عبد الله: «ترك الأمر عند الله أعظم من ارتكاب النهي؛ لأن آدم نهي عن أكل الشجرة فأكل منها فتاب عليه، وإبليس أُمِر أن يسجد لآدم فلم يسجد فلم يتب عليه»(٢).

ثم شرع ابن القيم في ذكر ثلاثة وعشرين وجهًا بيَّن من خلالها صحة القاعدة السابقة، ثم قال بعد ذلك:

«سِرُّ هذه الوجوه أن المأمور محبوبه والمنهي مكروهه، ووقوع محبوبه أحب إليه من فوات مكروهه، وفوات محبوبه أكره اليه من وقوع مكروهه»(٣).

---

(١) قال ابن القيِّم: «وفصل النزاع في ذلك أن هذا يختلف باختلاف الطاعة والمعصية، فالصبر على الطاعة المعظمة الكبيرة أفضل من الصبر عن المعصية الصغيرة الدنية، والصبر عن المعصية الكبيرة أفضل من الصبر على الطاعة الصغيرة، وصبر العبد على الجهاد مثلاً أفضل وأعظم من صبره عن كثير من الصغائر، وصبره عن كبائر الإثم والفواحش أعظم من صبره على صلاة الصبح وصوم يوم تطوعًا ونحوه، فهذا فصل النزاع في المسألة والله أعلم». طريق الهجرتين ١/ ٤١٤.

(٢) الفوائد ١/ ١١٩.

(٣) السابق ص ١٢٨.

لكن الصبر على الطاعة مع ذلك أصعب أنواع الصبر، ولذا جاءت صيغة الأمر بالصبر على الطاعة مغايرة لغيرها فقال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، وقال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]، فاستخدام صيغة الافتعال تدل على المبالغة في الفعل؛ إذ زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، والمقصود بالاصطبار: شدة الصبر على الأمر الشاق لأن صيغة الافتعال ترد لإفادة قوة الفعل، وما ذاك إلا لصعوبة هذا النوع من الصبر على النفس لما فيه من القيام بحق العبودية في كل الأحوال.

قال الزمخشري: «لأن العبادة جُعِلت بمنزلة القرن في قولك للمحارب: اصطبر لقرنك، أي اثبت له فيما يورد عليك من شداته»(١).

1 الصبر على طاعة الله:

وهو أوضح ما يكون في قصة إبراهيم وإسماعيل التي خلَّد الله ذكرها في كتابه، فمن أيهما تعجب: من الأب الذي رأى في المنام أنه يذبح ابنه فلبى؟! أم من الابن الذي استسلم لأمر الله طواعية واختيارًا؟! لقد كان الابن وحيد إبراهيم ولم يُرزَق إلا على كِبَر فما ظنك بتعلق أب كهذا بابنه؟! لكن إبراهيم حطَّم كل نداءات الأرض لما جاءه أمر السماء، وضرب لنا أروع مثل على الإطلاق في الصبر على طاعة ربه، ولقد كان باستطاعته أن يتأول الرؤيا لصالحه بدافع من غريزة الأبوة، لكنه امتثل الأمر على وجه عجيب، وفاتح ابنه في ما رأى، ولم يكن الابن صغيرًا لا يفهم ما سيُفعل به؛ بل بلغ مع أبيه السعْيَ فأصبح فتى مفتول العضلات قوي الساعد مما زاد من شغف الأب بابنه وتعلق الابن بأبيه، وجاءت إجابة الابن محيِّرة حقًّا، فقد حسم الموقف بجملتين فاصلتين ممتلئتين بالرضا فضلاً عن الصبر قالها لأبيه وخلَّدهما التاريخ له: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

وبعد أن شهد إسماعيل لنفسه بالصبر شهد الله -جل جلاله- له بالصبر ودوَّن اسمه في

---

(١) الكشاف ص ٧٣٧.

سجل الصابرين وأين؟! على صفحات القرآن: ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٥]، ثم هو مع ذلك لم ينس أن يستمد العون من الله الذي لا يكون الصبر إلا بمشيئته، فهو لا يعتمد على قوته وشدة جلده بل يعتمد على ربه، وصدقا وأسلم الوالد ولده، وتله للجبين، وتهيأ للذبح، وعندها فحسب جاءته البشرى والنجاة.

أنواع خمسة

من الصبر على الطاعة:

- **الصبر على التعلُّم والمُعلِّم**، وهذا صبر على مكافحة الجهل، وصبر على ما يمكن أن يكون من شدة المعلِّم، وصبر على الخجل من طلب العلم وخاصة إذا كنت كبير السن وأستاذك أصغر منك، ولا شك أن ذلك صعب على النفس؛ لذا كان مما يورث الأجر العظيم، واذكروا ما قاله نبينا ﷺ: «**الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرؤه وهو عليه شاق له أجران**»(١)، وهذا الصبر سبق وواجهه موسى حين رحل إلى الرجل الصالح ليُعلِّمه مما علمه الله، فأبرم موسى معه العهد بالصبر قائلا: ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا ﴾ [الكهف: ٦٩].

- **الصبر على تصحيح النية وتخليص الضمائر من شوائب الرياء**، أو الصبر على حفظ الطاعة بعد انتهائها، وعدم إفشائها والتباهي بها، أو العجب والاغترار، لئلا تتحوَّل سيئة: ﴿ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٣]، ولعل هذا هو سر تقديم الصبر على العمل الصالح في قوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [هود: ١١]، وهي معركة من معارك العبد مع الشيطان يقص علينا وقائعها وتفاصيلها **سفيان الثوري** في قوله: «بلغني أن العبد يعمل العمل سرًّا، فلا يزال به الشيطان حتى يغلبه، فيُكتب في العلانية، ثم لا يزال الشيطان به حتى يُحِبَّ أن يُحمد عليه، فيُنسخ من العلانية فيثبت في الرياء»(٢).

---

(١) رواه أحمد والترمذي عن عائشة كما في ص ج ص رقم: ٥٤٩٧.

(٢) حلية الأولياء ٧/ ٣٠، ٣١.

✍ **الصبر على المداومة على الطاعة وعدم الملل منها ومن ثم الانقطاع عنها، ولا شك أن** المداومة على أي عمل ولو كان سهلاً على مدار الأيام والأعوام مما يشق على أي نفس، وفي مقابل هذه المشقة ينال المرء أعظم الأجر كما أخبر بذلك الحبيب ﷺ: «**أحبُّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قلَّ**»(١).

✍ **الصبر على وحشة التفرد وقلة سالكي طريق الحق وكثرة المعرضين عنه: إذا كنتَ الوحيد** الذي يغض بصره عن النساء في عملك، وكنتَ الوحيد الذي يصوم تطوعًا في يوم حار، وكنتَ الوحيد الذي يطهِّر لسانه من الغيبة وسط صحبة العمل أو الدراسة، وكنتِ الوحيدة التي تحافظ على الحجاب الصحيح شكلاً وسلوكًا، إذا كنتَ أو كنتِ من هؤلاء فهنيئًا لك.

✍ **الصبر على تبعات التزام طريق الحق والثبات عليه:** وهي الرسالة الأولى التي تلقاها النبي ﷺ في مهد الدعوة حين انطلقت به خديجة إلى ورقة بن نوفل ابن عم خديجة، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم.. اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي كان ينزل على موسى، يا ليتني فيها جذعا، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجيَّ هم؟! فقال: نعم.. لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عُودِيَ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا(٢).

2 الصبر عن معصية الله:

وأبرز الأمثلة وأشدها وضوحًا صبر **يوسف** - عليه السلام- على مراودة امرأة العزيز له، ولقد كان الصبر ظهير يوسف في محنته التي ابتلي بها اضطرارًا واختيارًا، وكشف عن هذا السر حين عثر إخوته عليه فقال: ﴿ **قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ** ﴾ [يوسف: ٩٠]. قال ابن القيم:

(١) رواه الشيخان عن عائشة كما في ص ج ص رقم: ١٦٣.
(٢) البداية والنهاية ٣/ ٣.

«وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدَّس الله روحه يقول: كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها: أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجب وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه، فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها؛ ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر، وأما صبره عن المعصية: فصبر اختيار ورضا ومحاربة للنفس، ولا سيما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي الموافقة، فإنه كان شابًّا؛ وداعية الشباب إليها قوية، وعزبًا ليس له ما يعوضه ويرد شهوته، وغريبًا والغريب لا يستحي في بلد غربته مما يستحي منه من بين أصحابه ومعارفه وأهله، ومملوكًا والمملوك أيضا ليس وازعه كوازع الحر، والمرأة جميلة، وذات منصب، وهي سيدته، وقد غاب الرقيب، وهي الداعية له إلى نفسها، والحريصة على ذلك أشد الحرص، ومع ذلك توعدته إن لم يفعل بالسجن والصغار، ومع هذه الدواعي كلها: صبر اختيارًا وإيثارًا لما عند الله، وأين هذا من صبره في الجب على ما ليس من كسبه»[1].

ولكن ما الدافع إلى الصبر عن معصية الله؟!

والجواب: إما الخوف وإما الحياء:

أما الخوف فهو من سوء عواقب المعصية وقبح أثرها، أي خوف المرء مما يصيبه من جرائها في الدنيا والآخرة:

والخوف أيضًا قسمان: **خوف الدنيا وخوف الآخرة**، أما خوف الدنيا فهو ما ذكره الإمام ابن القيِّم:

«الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة، فإنها إما أن توجب ألمًا وعقوبة، وإما أن تقطع لذة أكمل منها، وإما أن تضيع وقتًا إضاعته حسرة وندامة، وإما أن تثلم عرضًا توفيره أنفع للعبد من ثلمه، وإما أن تُذهب مالاً بقاؤه خير له من ذهابه، وإما أن تضع قدرًا وجاهًا قيامه خير من وضعه، وإما أن تسلب نعمة بقاؤها ألذ وأطيب من قضاء الشهوة، وإما أن تطرق لوضيع إليك طريقًا لم يكن يجدها قبل ذلك، وإما أن تجلب همًّا وغمًّا وحزنًا وخوفًا لا يقارب لذة الشهوة، وإما أن تنسي علمًا ذكره ألذ من نيل الشهوة، وإما أن

---

(١) المدارج ٢/ ١٥٦.

تُشمت عدوًّا وتُحزن وليًّا، وإما أن تقطع الطريق على نعمة مقبلة، وإما أن تُحدث عيبًا يبقى صفة لا تزول، فإن الأعمال تورث الصفات والأخلاق»(١).

وأما خوف الآخرة وهو مما يلقى العاصي من العقوبة النارية والتقلب بين الأطباق الجهنمية، فهي العقوبة إن عصى علنًا فيكون مجاهرًا بذنبه داعيًا إليه، وهي العقوبة إن عصى سِرًّا ليكون هاتكًا ستر الله عليه مظهرًا غير ما يبطن.

أما الدافع الثاني الذي يدفع إلى الصبر عن المعصية هو الحياء، لكن ما الحياء؟!

قال الجنيد: «الحياء رؤية الآلاء ورؤية التقصير فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء، وحقيقته خلق يبعث على ترك القبائح ويمنع من التفريط في حق صاحب الحق»(٢).

وهب ربك عفا عنك فأين الحياء مما جنيت يا رجل؟!

وسؤال أخير: أيهما أعلى مقامًا وأكثر أجرًا: الخوف أم الحياء؟!

فَصَل ابن القيِّم بين الخصمين فقال في كلام ألفاظه أنوار ومعانيه ثمار:

«ولما كان الحياء من شيم الأشراف وأهل الكرم والنفوس الزكية: كان صاحبه أحسن حالا من أهل الخوف، ولأن في الحياء من الله ما يدل على مراقبته وحضور القلب معه، ولأن فيه من تعظيمه وإجلاله ما ليس في وازع الخوف، فمن وازعه الخوف: قلبه حاضر مع العقوبة، ومن وازعه الحياء: قلبه حاضر مع الله، والخائف مراعٍ جانب نفسه وحمايتها، والمستحي مراعٍ جانب ربه وملاحظ عظمته، وكلا المقامين من مقامات أهل الإيمان؛ غير أن الحياء أقرب إلى مقام الإحسان وألصق به، إذ أنزل نفسه منزلة من كأنه يرى الله، فنبعت ينابيع الحياء من عين قلبه وتفجرت عيونها»(٣).

---

(١) الفوائد ص ١٣٩.

(٢) مدارج السالكين ٢/ ٢٥٨، وقد قال ابن القيم عن خلق الحياء: «ولولا هذا الخلق لم يُقْرَ الضيف، ولم يُوفَّ بالوعد، ولم تُؤدَّ أمانة، ولم يُقضَ لأحد حاجة، ولا تحرَّى الرجل الجميل فآثره، والقبيح فتجنَّبه، ولا سُتِر له عورة، ولا امتنع من فاحشة، وكثير من الناس لولا الحياء الذي فيه لم يؤدِّ شيئًا من الأمور المفترضة عليه، ولم يرْعَ لمخلوق حقًا، ولم يصل له رحمًا، ولا بَرَّ له والدًا؛ فإن الباعث على هذه الافعال إما ديني وهو رجاء عاقبتها الحميدة، وإما دنيوي علوي وهو حياء فاعلها من الخلق، قد تبين أنه لولا الحياء إما من الخالق أو من الخلائق لم يفعلها صاحبها». مفتاح دار السعادة ١/ ٢٧٧.

(٣) المدارج ١/ ١٦٥.

ولابد مع الخوف والحياء لكي يُحدِثا أعظم الأثر من صفتين متلازمتين وهما **العلم واليقين**، فبغيابهما يغيب الخوف والحياء، وبقوتهما يقويان.

فكل من علم أن الذي ينام عن الصلاة المكتوبة يكسر الحجر رأسه في قبره ثم أيقن بذلك؛ كيف ينام عن صلاة الفجر؟!

وكل من علم أن ناشر الكذب ومروِّج الإشاعة يُشَقُّ من رأسه ومنخره وعينه إلى قفاه ثم أيقن بذلك، قل لي بعدها: كيف يكذب؟!

وكل من علم أن الزاني يُحرق بنار أسفل منه وهو عريان ليفتضح في العلن كما كان يأتي الفاحشة في السر ثم أيقن بذلك؛ فكيف يزني؟!

وكل من علم أن أكل الربا يورث السباحة في نهر الدم والتقام الحجارة ثم أيقن بذلك؛ فكيف يرابي؟!

وكل من علم أن الوقوع في أعراض الناس يُعاقب فاعله بخمش وجهه وصدره بأظفار من نحاس، ثم أيقن بذلك؛ فكيف يُعقل أن يغتاب؟!

وهكذا مع كل معصية وعقوبتها.

زاد الصابرين!!

1 تلمح لذة العاقبة:

مرارة الصبر شفاء، لأن الصبر على مرارة الدواء في البداية يورث حلاوة الشفاء في النهاية، ما أشبه حال المبتلى بذنب بحال المدمن؛ عافت نفسه الطيِّب ولا صبر له عن الخبيث، فإن تجرَّع جرعة صبر، وتحمَّل المشقة حينًا، وأكل من الحلال وداوم عليه إذن لزال أثر السم بالكلية، ورجعت نفسه تعاف كل كريه كانت تحبه، وكل معصية كان يلتذ بها، فالصبر الصبر، والتفكر في حلاوة العاقبة، والاعتبار بسوء مصير الهالكين.

قال الأشعث بن قيس: «دخلتُ على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ، فوجدته قد أثر فيه صبره على العبادة الشديدة ليلاً ونهارًا، فقلت: يا أمير المؤمنين!! إلى كم تصبر على مكابدة هذه الشدة؟ فما زادني إلا أن قال:

اصبر على مضض الإدلاج في السَّحَر ... وفي الرواح إلى الطاعات في البكر
إني رأيت وفي الأيام تجربة ... للصبر عاقبة محمودة الأثر
وقلَّ من جدَّ في أمر يؤمِّله ... واستصحب الصبر إلا فاز بالظَّفَر

فحفظتها منه وألزمتُ نفسي الصبر في الأمور، فوجدت بركة ذلك»(١).

وتعرَّف إلى أسرار العبادات وأثر الجرعات وفضائل القربات، واغرق في أنوارها وراجع ما ورد من أحاديثها، وعندها تطيع أمر الله وتستسلم له ولو كان شاقًّا، وسترى العجب كما سبقه ورآه خليل الرحمن لما صبر. قال ابن القيِّم:

«وأُنبِّهك على خصلة واحدة مما أكرمه الله به في محنته بذبح ولده، فإن الله -تبارك وتعالى- جازاه على تسليمه ولده لأمر الله بأن بارك في نسله وكثرة حتى ملأ السهل والجبل، فإن الله تبارك وتعالى لا يَتكرَّم عليه أحد وهو أكرم الأكرمين، فمن ترك لوجهه أمرًا

---

(١) المستطرف ص ٣٣٢.

أو فعله لوجهه بذل الله له أضعاف ما تركه من ذلك الأمر أضعافًا مضاعفة، وجازاه بأضعاف ما فعله لأجله أضعافًا مضاعفة، فلما أمر إبراهيم بذبح ولده؛ فبادر لأمر الله، ووافق عليه الولد أباه رضاء منهما وتسليمًا، وعلم الله منهما الصدق والوفاء فداه بذبح عظيم، وأعطاهما ما أعطاهما من فضله، وكان من بعض عطاياه أن بارك في ذريتهما حتى ملئوا الأرض، وجعل النبوة والكتاب في ذريته خاصة وأخرج منهم محمدًا»(١).

من كالخليل يُرينا خيرَ تضحيةٍ ... جلّت مواقفها عن كل تبيين
صحا مع الفجر صوت الوحي يُفزِعه ... قم يا بني فصوت الله يدعوني
إني بذبحك قد أُلهمتُ يا ولدي ... أمرُ السماء فهل تعصي وتُخزيني
فشمَّر الطفل إيمانًا بلا جزعٍ ... جمِّع قواك أبي خُذْ تلك سكيني

2 الاستعانة بالله:

قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ ﴾ [النحل: ١٢٧].

والمأمور به في الآية: الاستعانة بالله ورؤية أنه هو المُصبِّر وحده، وأن صبر العبد بربه لا بنفسه، وبمشيئة الله ومعونته لا بمشيئته هو وقوته، فهو لا يرى لنفسه صبرًا ولا قوة ولا فضلاً ولا عزمًا، بل كل ذلك من الله وبفضل الله، وعندها يعلم حقيقة قوله: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإن لم يصبِّرك هو فليس إلا الجزع والهلاك، بل لو لم يصبِّر الله خير خلقه وصفوة رسله محمد ﷺ ما كان ثبت.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٤].

ولذا روى حذيفة عن رسول الله ﷺ أنه (كان إذا حزبه أمر صلى)(٢) ليستمد من القوة التي لا تُغلب، والطاقة التي لا تُحدُّ، والإله الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٣٠٠.
(٢) حسن. رواه أحمد وأبو داود عن حذيفة كما في ص ج ص رقم: ٤٧٠٣.

3 صبر أعدائك يُعدي:

أعداء دينك لا ينامون، بل يصبرون ويحتملون في سبيل الباطل ما لا تحتمله أنت في سبيل الحق، والله إن المرء ليستحي أن يكسل في جنب الله حين يسمع عن بطل رياضي يعاني الأعوام الطوال ويُتعِب نفسه منذ نعومة أظفاره ليفوز في النهاية بميدالية الذهب، وتُسلَّط عليه الأضواء، وتُغدق عليه الأموال، مع أنه سيكبر يومًا وينصرف الناس عنه، بل ويموت وينساه كل من كان محتفيًا به بالأمس، ويترك كل ما جمع ويرحل تحت التراب، فكيف لا تصبر أنت يا طالب ذهب الآخرة؟! ألا تريد أن تُسلَّط عليك الأضواء هناك وأنت متكئ على أريكة لك في الفردوس؟! ألا تطمع أن تُغدق عليك اللذات وأنت مستلق في قصر من قصورك في جنات عدن؟! ألا تتعب قليلاً لتستريح طويلاً.. هناك في خلد لا تذوق فيه الموت بل لا تسمع حتى مرادفات أو مشتقات كلمة (موت).. واعجبًا من خاطب دنيا يتعب وطالب آخرة ينام، واحسرتاه على طالب رضا البشر وغافل عن رضا ربِّ البشر.

عن عمر بن عثمان المكي قال: «لقد وبَّخ الله التاركين للصبر على دينهم بما أخبر عن الكفار أنهم قالوا: ﴿ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ [ص: ٦]، فهذا توبيخ لمن ترك الصبر من المؤمنين على دينه»(١).

إن مقارنة المريض لصبره على الطاعات بصبر غيره من موتى القلوب على الباطل يبعث في القلب الحياة، وانظروا إلى خلف بن أيوب وكان لا يطرد الذباب عن وجهه في الصلاة، فقيل له: كيف تصبر؟! فقال: «بلغني أن الفساق يتصبَّرون تحت السياط ليقال فلان صبور، وأنا بين يدي ربي؛ أفلا أصبر على ذباب يقع عليَّ؟!»(٢).

بل واسمعوا صبر أهل الدنيا يا أصحاب الآخرة واقرؤوا خبر أبي الهيثم خالد الحدَّاد، وكان يُضرَب المثل بصبره. قال له المُتوكِّل يومًا: ما بلغ من جَلَدِك؟ قال: املأ لي جرابي عقارب، ثم أُدخِل يدي فيه، وإنه ليؤلمني ما يؤلمك، وأجد لآخر سوط من الألم ما أجد لأول سوط، ولو وُضِعت في فمي خرقة وأنا أُضرب لاحترقت من حرارة ما يخرج من جوفي،

---

(١) ذم الهوى ص ٥٥ – ابن الجوزي – ط دار الكتب العلمية.

(٢) المستطرف ص ٢٠.

ولكنني وطَّنت نفسي على الصبر، فقال له الفتح: ويحك!! مع هذا اللسان والعقل ما يدعوك إلى ما أنت عليه من الباطل، فقال: «أحب الرياسة»(١).

ولماذا أمثلة الماضي والحاضر بين أيدينا ينطق ويشهد، وأهل اللهو في لهوهم من أهل الغناء والفن الهدام يفتخرون أنهم يصلون الليل والنهار ويهجرون الراحة ويعانقون التعب في أوقات كثيرة ليجنوا حصاد أعمالهم: سيئات تلطِّخ الصحائف وتورث اللعنات وتُصليهم جهنم وبئس المهاد، فلماذا لا نصل نحن -أهل الحق- الليل بالنهار ونهجر الراحة ونعانق التعب لنجني حصائد أعمالنا: حسنات تُشرِق على صحائفنا وتثقِّل موازيننا وتورثنا اللذة الأبدية والنعيم الذي لا يبيد.

4 جهاد النفس:

إن النفس البشرية بطبيعتها تحب الراحة والكسل والدعة وتنفر من البذل والاجتهاد والعطاء، فهي الآمرة بالسوء الناهية عن الخير، وهي الحقيقة التي قرَّرها رب العزة والجلال بقوله ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف: ٥٣] لذا كانت مخالفتها نوعًا من أنواع الموت الدامي! قال حاتم الأصم: «الموت الأحمر: مخالفة النفس»(٢).

لذا عبَّر النبي ﷺ عن هذه المخالفة بأقوى الألفاظ وأشدها وهو لفظ الجهاد فقال: «والمجاهد: من جاهد نفسه في الله»(٣).

وقال عز وجل: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ [الحج: ٧٨]. قال ابن المبارك في تفسيرها: «هو جهاد النفس والهوى»(٤).

أما أن تطيع نفسك في كل ما تأمرك به، وتنتهي عن كل خير تنهاك عنه، فليس هذا من الجهاد فضلاً عن الرجولة في شيء.

نعم الأمر صعب وشاق .. ليس في هذا شك، لكن في المقابل تؤنسك بشرى الله لك:

(١) تلبيس إبليس ص ٤٥١.
(٢) ذم الهوى ٥٠.
(٣) صحيح: رواه أحمد في المسند وابن حبان في صحيحه والترمذي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم: ٥٤٩.
(٤) ذم الهوى ص ٤٠.

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] فالخطوة الأولى عليك ثم يأتيك المدد الإلهي عميمًا من حيث لا تحتسب، والهداية طريق طويل طويل، لكن أول وأهم خطوة فيها: المجاهدة.

والبشارة الثانية من راشد هو عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- الذي قال وكأنه يهوِّن عليك مشقة العمل الصالح ويروِّح عليك بمراوح الرجاء: «أحب الأعمال إلى الله ما أُكرهت عليه النفوس»[(١)].

والبشارة الثالثة أن النفوس اليوم قد تغيَّرت، والزمان الحاضر ليس كالماضي في صلاحه وتقواه، ومن ثم كان الثواب اليوم أعظم والأجر أوفى، ولقد جاء ذلك في قول الإمام عبد الله بن المبارك: «إن الصالحين فيما مضى كانت أنفسهم تواتيهم على الخير عفوًا، وإن أنفسنا لا تكاد تُواتينا إلا على كُرْه ينبغي لنا أن نكرهها عليه»[(٢)].

فليت شعري لو أدرك ابن المبارك زماننا هذا ماذا سيقول؟!!

تجربة جهادية!!

يقول ابن الجوزي:

« تأملتُ جهاد النفس فرأيتُه أعظم الجهاد، وإنما الجهاد لها كجهاد المريض العاقل، يحملها على مكروهها في تناول ما ترجو به العافية، و يذوِّب في المرارة قليلاً من الحلاوة، ويتناول من الأغذية مقدار ما يصفه الطبيب، ولا تحمله شهوته على موافقة غرضها من مطعمٍ ربما جرَّ جوعًا، ومن لقمة ربما حَرَمت لقمات[(٣)]، فكذلك المؤمن العاقل لا يترك لجامها، ولا يهمل مقودها، بل يُرخي لها في وقت والطول بيده، فإذا رآها مالت ردَّها باللطف، فإن ونت وأبت فبالعنف،

---

(١) السابق ص ٤٨.
(٢) ذم الهوى ص ١٤٥.
(٣) قال الناشئ:

إذا المرء [illegible] كل شهوة ... [illegible]ـة أيام تبيد وتنفد
فما [illegible] ... [illegible]ـة عما يبقى له ويخلد

ويحبسها في مقام المداراة، كالزوجة التي مبنى عقلها على الضعف والقلة، فهي تُدارى عند نشوزها بالوعظ، فإن لم تصلح فبالهجر، فإن لم تستقم فبالضرب، وليس في سياط التأديب أجود من سوط عزم، هذه مجاهدة من حيث العمل.

فأما من حيث وعظها وتأنيبها، فينبغي لمن رآها تسكن للخلق، وتتعرض للدنيء من الأخلاق أن يُعرِّفها تعظيم خالقها لها فيقول: ألستِ التي قال فيك: خلقتك بيدي، وأسجدتُ لك ملائكتي، وارتضاك للخلافة في أرضه، وراسلك واقترض منك واشترى، فإن رآها تتكبر، قال لها: هل أنت إلا قطرة من ماء مهين، تقتلك شرقة، وتؤلمك بقَّة؟! وإن رأى تقصيرها عرَّفها حق الموالي على العبيد، وإن ونت في العمل حدَّثها بجزيل الأجر، وإن مالت إلى الهوى، خوَّفها عظيم الوزر، ثم يحذرها عاجل العقوبة الحسية، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ ﴾، والمعنوية كقوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾، فهذا جهاد بالقول، وذاك جهاد بالفعل»[1].

أخي.. هل لك أن تأخذ خطوة عملية على الطريق؟! عوِّد نفسك – مثلاً- بالنسبة للطعام أن تقوم عن المائدة ولا زلت تشتهيه، وبالنسبة للكلام جرِّب يومًا من الأيام أن توثِق لسانك فلا تتكلم بكلام إلا إذا أدركت مغزاه وفائدته، وبالنسبة للمنام جرِّب يومًا في الأسبوع أن تهجر الفراش الناعم وتنام على الأرض مخالفة للنفس، والمران على ذلك يورث الانتصار على النفس الشرود وسهولة قيادتها.

جهاد النفس وجهاد العدو

إن هذا الجهاد هو المقدمة الطبيعية والتمهيد الذي لابد منه لجهاد أكبر وهو جهاد الأعداء والانتصار على اليهود، ويشهد لهذا قول عبدالله بن عمر ﷺ لمن سأله عن الجهاد: «ابدأ بنفسك فجاهدها، وابدأ بنفسك فاغزُها»[2].

يا من يجاهد غازيًا أعداء ديـ ـن الله يرجو أن يُعان ويُنصـرا

(١) صيد الخاطر ص ٤٦ -٤٧ - ط دار الفكر بتصرف.
(٢) جامع العلوم والحكم ص ١٩٦.

هلا غشيت النفس غزوًا إنها ... أعدى عدوك كي تفوز وتظفرا
مهما عُنيتَ جهادها وعنادها ... فلقد تعاطيتَ الجهاد الأكبرا

قال ابن القيِّم شارحًا قول ابن عمر:

«ولما كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعا على جهاد العبد نفسه في ذات الله، كما قال النبي ﷺ: «المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله» كان جهاد النفس مُقدَّمًا على جهاد العدو في الخارج وأصلاً له، فإنه ما لم يجاهد نفسه أولاً لتفعل ما أُمِرت به، وتترك ما نُهيت عنه ويحاربها في الله لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج، فكيف يمكنه جهاد عدوه والانتصاف منه؟! وعدوه الذي بين جنبيه قاهر له متسلط عليه لم يجاهده ولم يحاربه في الله؛ بل لا يمكنه الخروج إلى عدوه حتى يجاهد نفسه على الخروج»[١].

بل إن جهاد النفس في رأي ابن القيم أصعب من جهاد العدو. قال وهو يحاول أن يقنعنا بصحة مذهبه وصواب رأيه:

«اعلم أنه إنما كان جهاد النفس أكبر من جهاد الأعداء؛ لأن النفس محبوبة وما تدعو إليه محبوب، لأنها لا تدعو إلا إلى ما تشتهي، وموافقة المحبوب في المكروه محبوبة، فكيف إذا دعا إلى محبوب؟!

فإذ عُكِست الحال وخولف المحبوب فيما يدعو إليه من المحبوب اشتدَّ الجهاد وصَعُب الأمر، بخلاف جهاد الكفار فإنَّ الطباع تُحْمَل على خصومة الأعداء»[٢].

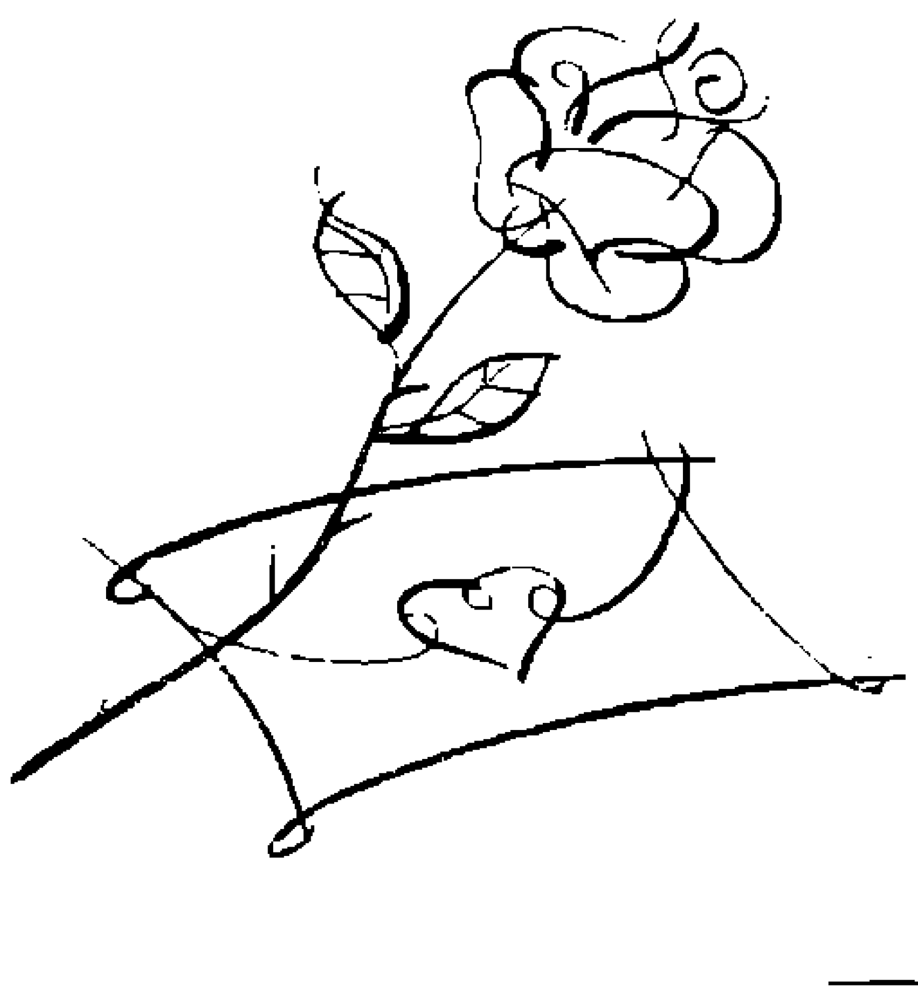

(١) زاد المعاد ٣/ ٥.
(٢) ذم الهوى ص ٤٠.

مضاعفات القوة

1 الصبر الدائم:

النفس ملولة والمواظبة على الأعمال الصالحة يحتاج منها إلى قوة وصبر؛ ولهذا ربطت كثير من الأحاديث بين المواظبة على الأعمال ودخول الجنة، فمثلاً:

«خصلتان أو خلتان لا يحافظ عليهما عبد مسلم إلا دخل الجنة وهما يسير ومن يعمل بهما قليل: يُسبِّح الله في دبر كل صلاة عشرًا ويحمده عشرًا ويكبِّره عشرًا، وذلك خمسون ومائة باللسان وألف وخمسمائة في الميزان، ويكبِّر أربعًا وثلاثين إذا أخذ مضجعه، ويحمد ثلاثًا وثلاثين ويسبِّح ثلاثًا وثلاثين، فذلك مائة باللسان وألف في الميزان». (١)

ثمن الجنة إذن ليس برخيص بل هو في المحافظة الدائمة، وليس بمجرد عمل يوم أو يومين أو شهر أو شهرين، فالصبر على العمل والمواظبة عليه يقابلها الله بأعظم الجزاء لصعوبتها على النفس وانقطاع أكثر الناس عنها.

2 صبر التميُّز والانفراد:

وهذه نماذج للصبر الذي أعنيه بأنواعه الثلاثة:

* الصبر على الطاعة:

- يعمل بين أناس لا يصلون ويصلي وحده.
- يصوم تطوعًا بين قوم لا يصومون، وإن صاموا لا يحفظون صيامهم مما يفسده.
- يذكر الله في رفقة غافلة.
- يصل رحمه بين قرابة قاطعين.
- يدعو من حوله إلى النجاة وهم يدعونه إلى النار.
- يفي بالعهد ويصدق في الوعد حين فشا النفاق وعمَّ الوباء حتى بين من يوصَفون اليوم بالتدين.

---

(١) صحيح: رواه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عمرو، كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم:٦٠٦.

*** الصبر عن المعصية:**

- يتعفَّفُ عن مال فيه شبهة بين رهط لا يتورعون عن المال الحرام.
- يغض بصره عن الحرام والناس تقع أبصارهم على مشاهد العري صورة ومتحرِّكة.
- يطهِّر لسانه من الغيبة ومن حوله ينهشون لحم إخوانهم دون اكتراث.
- يتورَّع عن الشبهات وغيره يخوض في المنكرات.

*** الصبر على البلاء:**

- لا يرفع صوته عند البلاء بالشكوى أو الاعتراض.
- يرتقي من مقام الصبر إلى مقام الرضا، فيرضى قلبه عن ربه وما قضاه له.
- لا ينتقم ممن ظلمه بل يعفو ويصفح، لأن « الرجل العارف لا تساوي نفسه عنده أن ينتقم لها، ولا قدر لها عنده يوجب عليه انتصاره لها»[1].
- لا يفقد بشاشته ولا يبدِّل ابتسامته عند المصائب.
- لا يتوقف عمله لدينه ونشاطه لدعوته تحت وقع المحنة وإثر المصيبة.

فالصبر على كل هذه الشدائد وعدم الانجرار مع التيار المضاد يضمن لصاحبه أعظم الثواب عند الله؛ ولذا وردت الآثار بفضل ذكر الله في الغافلين، وأكَّد النبي ﷺ هذا المعنى فقال: **«عبادة في الهرج والفتنة كهجرة إليَّ»**[2].

والهرج هو وقت الفتن واختلاط الأمور، حيث يخف أمر الدين ويقلُّ الاعتناء به ولا يبقى لأحد اعتناء الا بأمر معاشه ودنياه، ومن ثم عظم قدر العبادة أيام الفتنة وكثر ثوابها حتى ساوى ثواب الهجرة بعنائها ومشاقها.

3 صبر الزمن الصعب:

فلا شك أن الصبر على الطاعات والصبر عن الشهوات في هذا الزمن الذي انتشرت فيه الفتن يعتبر أكثر ثوابًا وأعلى مقامًا، حيث تعرض الفاحشة نفسها جهارًا نهارًا، ولم تعد تتوارى

---

(١) قاعدة في الصبر لابن تيمية ص ٤٨.

(٢) صحيح : رواه الطبراني عن معقل بن يسار كما في ص ج ص رقم : ٣٩٧٤.

حياء ولا خوفًا، مما ينزع كراهية الحرام من القلب ويغرس حب الحرام بدلاً منه.

أضف إلى هذا قلة الأعوان على الخير، ثم تواري العلماء والمصلحين خوفًا أو ورعًا، ثم غياب التقوى في من يحيط بك وجرأتهم على السوء والعصيان، ومن هنا عظم أجر المهتدي ونال غاية الثواب.

4 صبر الشباب:

فالصبر في هذه المرحلة العمرية التي تشتد فيها قوة النفس الأمارة بالسوء، وتشتعل الشهوة الجموح وتنفتح أبواب الإغراءات على مصراعيها، وتتنوع الملهيات وتعرض نفسها على الراغبين كل ساعة فوق طبق من ذهب، وأين هذا من صبر الشيخ الذي نامت شهوته وسكن هواه؟!.

وليس معنى كلامي أن المطلوب من الشباب اليوم أن يُطَلِّق شهوته وينسى غريزته، بل المطلوب أن يكظم النفس عنها رجاء ما هو أحلى في الجنة، أو يصبر عنها حرامًا حتى ييسِّرها الله له حلالاً، وذلك في مقابل الأجر العظيم والجزاء الذي لا يوصف؛ لأن لكل شيء مقابلاً، والمقابل عند الله لا حدود له ولا نهاية لفضله.

سُئل عمر بن الخطاب ﷺ عن قوم يشتهون المعصية ولا يعملون بها، فأجاب بقول القرآن: «أولئك قوم امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم»(١).

ومن الأجر العظيم أن تكون في ظل العرش يوم القيامة، ومن هنا استحق السبعة المذكورون في الحديث الصحيح أن يظلهم الله في ظل عرشه وذلك لكمال صبرهم ومشقته، فالإمام العادل: صبر في حكمه حالة رضاه وغضبه، والشاب الذي نشأ في طاعة الله: صبر على العبادة في ظل مغريات العصر ومخالفة هواه، والرجل الذي قلبه معلَّق بالمساجد: صبر على ملازمته والمكوث فيه، والمتصدِّق بيمينه حتى أخفاها عن شماله: صبر على الرياء وحب محمدة الناس، والمتحابان في الله في اجتماعهما وافتراقهما: صبرا على طاعة الله، والباكي من خشية الله: صبر على كتمان ذلك وعدم إظهاره للغير.

---

(١) جامع العلوم والحكم ص ٩٧.

5 الصبر على ما تم اعتياده:

قال ابن القيِّم: «فإن للعادة طبيعة خاصة، فإذا انضافت الشهوة إلى العادة تظاهر جندان من جند الشيطان، فلا يقوى باعث الدين على قهرهما»(١).

ويكون للصبر هنا أعظم الدور في علاج الإدمان بكل أنواعه: إدمان سماع الغناء أو إدمان مشاهدة المواقع الإباحية أو أكل الرشوة أو ترك الصلاة أو الوقوع في أعراض الخلق، فإن كل هذه سيئات من اعتادها مع مرور الأيام صعب عليه التحوُّل عنها، ومن فارقها وصبر على مفارقتها بعد أن اعتادها كان له عند الله الجزاء الأوفى على ما لقيه من عناء وقاساه من بلاء.

ويضرب ابن القيِّم مثلاً حيًّا لذلك حين يتناول معاصي الفرج واللسان بقوله:

«الصبر عن معاصي اللسان والفرج من أصعب أنواع الصبر لشدة الداعي إليهما وسهولتهما، فإن معاصي اللسان فاكهة الإنسان كالنميمة والغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضًا وتصريحًا وحكاية كلام الناس والطعن على من يبغضه ومدح من يحبه ونحو ذلك، فتتفق قوة الداعي وتيسر حركة اللسان فيضعف الصبر، ولا سيما إذا صارت المعاصي اللسانية معتادة للعبد، فإنه يعِزُّ عليه الصبر عنها، ولهذا تجد الرجل يقوم الليل ويصوم النهار ويتورَّع عن استناده إلى وسادة حرير لحظة واحدة، ويطلق لسانه في الغيبة والنميمة والتفكُّه في أعراض الخلق»(٢).

6 أشق الصبر:

قال ابن القيم:

«مشقة الصبر بحسب قوة الداعي إلى الفعل وسهولته على العبد، فإذا اجتمع في الفعل هذان الأمران كان الصبر عنه أشق شيء على الصابر، وإن فُقِدا معا سهل الصبر عنه، وإن وُجِد أحدهما وفُقِد الآخر سهل الصبر من وجه وصعب من وجه، فمن لا داعي له إلى القتل

---

(١) عدة الصابرين ص ٥٣.

(٢) عدة الصابرين ص ٥٦ بتصرف.

والسرقة وشرب المسكر وأنواع الفواحش ولا هو سهل عليه فصبره عنه من أيسر شيء عليه وأسهله، ومن اشتد داعيه إلى ذلك وسهل عليه فعله فصبره عنه أشق شيء عليه؛ ولهذا كان صبر السلطان عن الظلم، وصبر الشباب عن الفاحشة، وصبر الغنى عن تناول اللذات والشهوات عند الله بمكان»[1].

فمن أشق الصبر الذي يحتسب به العبد أعظم الأجر: رجل فقير في شدة الاحتياج إلى المال تُعرض عليه الرشوة فيأبى، وشاب في عنفوان الشباب يعيش في الغربة وتُعرض عليه الفاحشة فيأبى، وامرأة كثيرة الكلام دخلت في خصومة مع جارة لها ثم جلست مع من يقع في جارتها فتصون لسانها وتأبى.

7 الصبر عند مواسم الجزر:

الشيطان يتحيَّن لحظات الفتور عند العبد، ولن يجرؤ على مواجهة جيش قلبك عند اشتداد هجمة الإيمان عليه، بل يتربص حتى تحين استراحة مقاتل، وعند إخلادك إلى الراحة يبدأ الانقضاض عليك، ومن صبر عند مواسم الفتور ونوبات ضعف الإيمان عن شهوة محرَّمة، أو عن ذنب خلوة، أو عن صحبة سوء، أو عن لقمة شهوة كان أجر صبره هو الأعلى وإيمانه الأقوى، وكان في ذلك دلالة على قوة قلبه ولو في لحظات ضعفه، ومجاهدته لنفسه حتى عند أوقات فتوره.

8 قوة الصبر الثلاثية:

من الناس من يشقُّ عليه الصبر على الطاعة، وبعضهم بالعكس تسهل الطاعة عليه، لكن ترك المعصية عليه شاق، وبعض الناس يسهل عليه الصبر على الطاعة والصبر عن المعصية، لكنه ضعيف الصبر عند المصائب فيجزع، وأعظم الصابرين من عرف الأنواع الثلاثة: ذاق الطاعة فواظب عليها، وذاق المعصية فعافها، ونزل به البلاء فاستقبله استقبال الأبطال.

---

(١) عدة الصابرين ص ٥٦.

9 الصبر على ما بعد الصبر:

قد يصبر الإنسان على العمل الصالح حتى يؤديه، لكنه يُعجب بعمله ويُتبِعه بالمنِّ فيكون هذا أضر عليه من كثير من المعاصي، فمن الصبر عدم إبداء الصبر كما أن من الإخلاص إخفاء الإخلاص، فمن صبر عن الحرام وجعل ذلك سرًّا بينه وبين ربه لم يُفشه أوتي أجره مرتين: ثواب الصبر وثواب الإخلاص، وقد حقق هذين الأجرين كثير من الصالحين ولا يزالون، فعن **أبي عبدة العبدري**:

«لما هبط المسلمون المدائن وجمعوا الغنائم أقبل رجلٌ بحُقٍّ معه، فدفعه إلى صاحب الأقباض (بيت المال)، فقال الذين معه: ما رأينا مثل هذا قط ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه، فقالوا له: هل أخذت منه شيئًا؟! فقال: أما والله لولا الله ما أتيتكم به، فعرفوا أن للرجل شأنًا، فقالوا: من أنت؟! فقال: لا والله لا أخبركم لتحمدوني، ولا غيركم ليُقرِّظوني، ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه، فأتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابه، فسأل عنه فإذا هو **عامر بن عبد قيس**»[1].

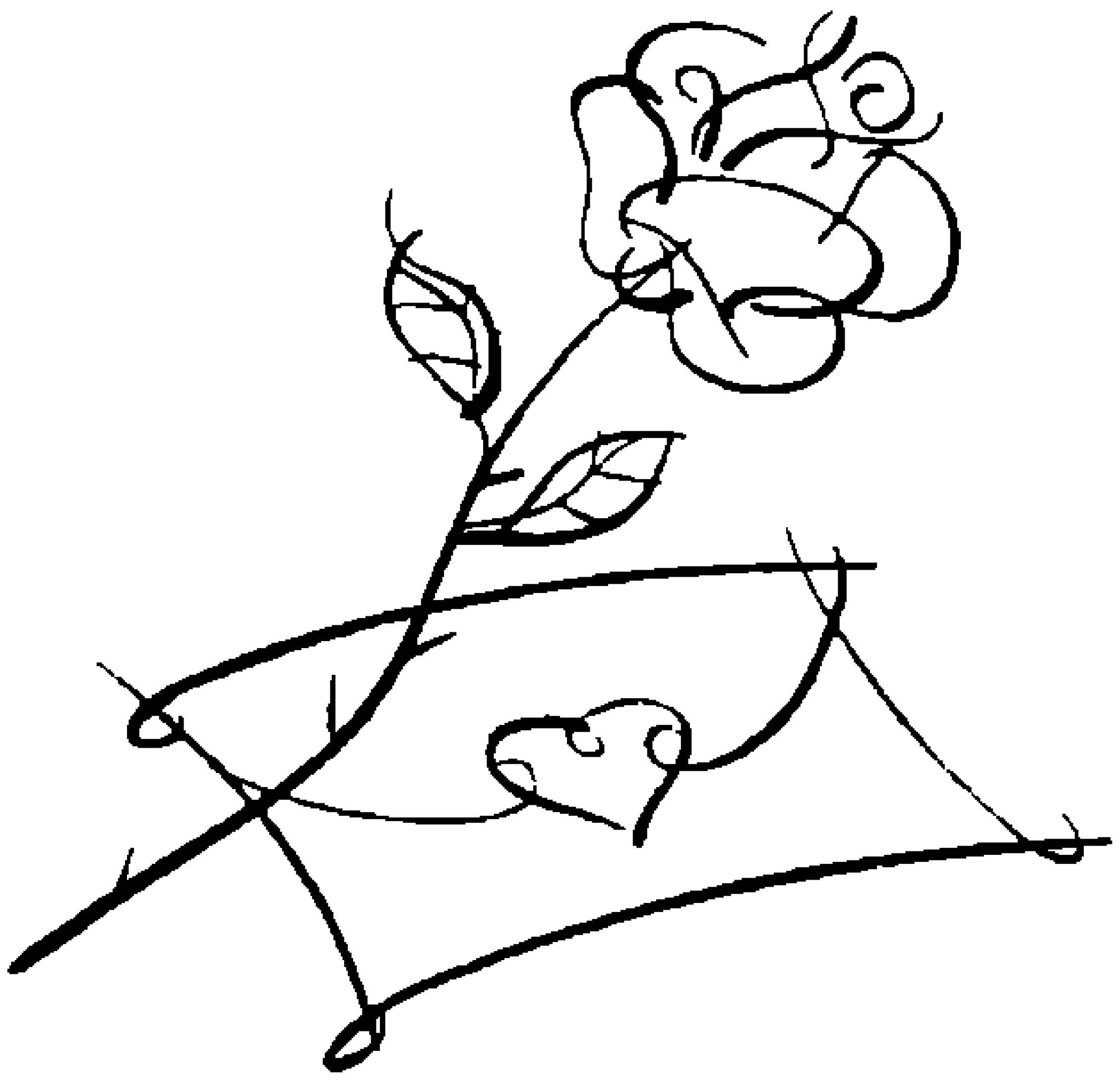

(١) صفة الصفوة ٣/ ٢١١.

سادسًا: فرق الإنقاذ

بنى النبي ﷺ حين هاجر أول ما بنى المسجد وهو صرح الإيمان، ثم بنى الروابط والصلات بين المهاجرين والأنصار وهو صرح الأخوة، وهذان الصرحان كل منهما علامة على الآخر ولازم من لوازمه. فالبناء الرأسي هو الإيمان وهو بناء الصلة مع الله، والبناء الأفقي هو الأخوة وهو بناء الروابط مع أفراد المؤمنين، ولا بناء بدون أساس، وهو أمر تلمحه في قول الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾، وفي قول النبي ﷺ: «**ثلاث من كن فيه ذاق بهن حلاوة الإيمان: أن يحب المرء لا يحبه إلا لله**».

بل إن الإيمان إذا كان بغير أخوة ضاع وانهدم، وإن غياب أخلاق الأخوة الإيمانية سيؤدي حتمًا إلى هدم الصلة بالله والرابطة الإيمانية، فإن «**فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين**».

لذا أعطى **عمر بن الخطاب** ؓ الأخوة قدرها وأوصى بها، فإذا به يقول: «إذا رزقكم الله عز وجل مودة امرئ مسلم فتشبَّثوا بها»[1].

وقد فعلها عمر وطبَّق على نفسه ما دعانا إليه وتشبَّث بهذه الأخوة، فكان ؓ يذكر الرجل من إخوانه بالليل، فيقول: يا طولها من ليلة، فإذا صلى المكتوبة غدا إليه، فإذا التقيا عانقه[2]، وقد كان ؓ صاحب عاطفة أخوية دفاقة عكس ما عُهِد فيه من شدة، فلما أتى الشام يومًا استقبله أبو عبيدة بن الجراح، فالتزمه عمر، وقبَّل يده، وجعلا يبكيان[3]، وصدق الشاعر رقيق المشاعر حين قال:

ما ذاقت النفس على شهوة ... ألذ من حُبِّ صديقٍ أمين

من فاته وُدُّ أخٍ صالح ... فذلك المغبون حق اليقين

---

(١) الإخوان ص ٨١.

(٢) السابق ص ١٣٤.

(٣) الإخوان ص ١٨٢

وقد أدرك الصحابي الجليل **عبد الله بن مسعود** ﷺ قيمة نعمة الأخوة فكان إذا خرج إلى أصحابه قال: «أنتم جلاء حزني»(١).

وورث جيل التابعين هذه التركة الثمينة وذاقوا طعمها، فعدَّها **الحسن البصري** من حلاوة العيش لا في مطعم شهي أو مرقد دفي. قال رحمه الله: «لم يبق من العيش إلا ثلاث: أخ لك تصيب من عشرته خيرًا فإن زغت عن الطريق قوَّمك، وكفاف من عيش ليس لأحد عليك فيه تبعة، وصلاة في جُمَع تُكفى سهوها وتستوجب أجرها»(٢).

وهذه الحلاوة كان طعمها أحلى من العسل عند المحدِّث القارئ **طلحة بن مصرف** الذي كان إذا لقي **مالك بن مغول** يقول له: «لَلُقياك أحب إليَّ من العسل»(٣).

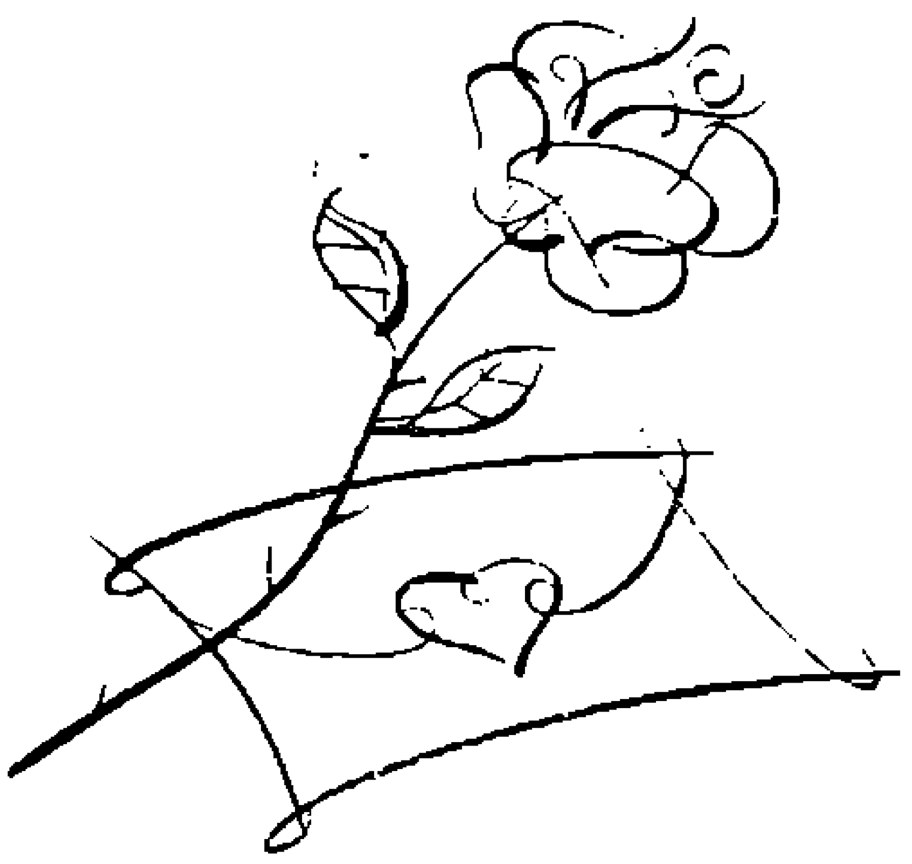

(١) السابق ص ١٣٥.
(٢) تاريخ بغداد ٦/ ٩٩.
(٣) حلية الأولياء ٥/ ١٧.

التآخي والاستشفاء

للأخوة دور عظيم في دورات الاستشفاء، وهذه بعض آثارها:

1 ابدأ وعينك على القمم:

من فوائد ذكر الصالحين وضرب نماذج المتقين إبطال كيد الشيطان وإغاظته والنيل منه وغزوه في عقر داره، والأمر كما قال الرافعي: «فإن أسماء الزُّهّاد والعُبَّاد والصالحين هي في تاريخ الشياطين كأسماء المواقع التي تنهزم فيها الجيوش»(١).

ومن فوائدها كذلك معرفة قدر نفسك إن كان الغرور والعجب قد بدأ يتسلل إليك، فتقطع الطريق على الشيطان من البداية وتبطل كيده والغواية.

ومن فوائدها الارتقاء إلى سماوات القدوات إن كانت الدنيا قد أظلمت من قلة الصالحين وكثرة الرويبضات، والتطلع إلى اللآلئ الغالية بدلاً من التحديق في الأصداف الخاوية، وعندها «يحق لمن رأى الراحلين إلى الحبيب وهو قاعد أن يبكي، ولمن سمع بأخبار الواصلين وهو متباعد أن يقلق»(٢).

كن كالصحابة في زهدٍ وفي ورع ... القوم هُم ما لهم في الناس أشباهُ
عبّاد ليل إذا جنَّ الظلام بهم ... كم عابدٍ دمعه في الخدِّ أجراه
وأُسدُ غاب إذا نادى الجهاد بهم ... هبُّوا إلى الموت يستجدون رؤياه
يا رب فابعث لنا من مثلهم نفرًا ... يُشيِّدون لنا مجدًا أضعناه

وانظروا كيف حرص كل صالح -مهما بلغ من صلاحه- على صحبة من هو أفضل منه، وما لهذا المبدأ من أثر رائع لا يُتصوَّر، فسفيان الثوري الذي كان يُشبَّه في زمانه بأبي بكر وعمر في زمانهما يقول:

«إني لأشتهي من عمري كله أن أكون سنة واحدة مثل عبد الله بن المبارك، فما أقدر أن

---

(١) وحي القلم ١/ ٤٣٥- ط مؤسسة الرسالة.
(٢) المدهش ص ٥١٩.

أكون ولا ثلاثة أيام»[١].

لكن من هو عبد الله بن المبارك؟!

عبد الله بن المبارك إمام من أئمة السلف، ثري من أرباب الأموال، لكنه مع هذا زاهد مجاهد، عالم محدِّث حافظ، فضائله لا تُحصى، جمع خصائل الخير كلها وحاز من الفضل أعلاه، ويكفيك أن تعلم أنه حين اجتمع جماعة مثل الفضل بن موسى ومخلد بن الحسين ومحمد بن النضر قالوا:

«تعالوا حتى نعُدَّ خصال ابن المبارك من أبواب الخير فقالوا: العلم، والفقه، والأدب، والنحو، واللغة، والزهد، والشعر، والفصاحة، وقيام الليل، والعبادة، والحج، والغزو، والشجاعة، والفروسية، والقوة، وترك الكلام فيما لا يعنيه، والإنصاف، وقلة الخلاف على أصحابه»[٢].

لذا وجب على سفيان مع جلال قدره وعلو شأنه أن يقتدي بهذه المنظومة الشمولية النادرة المتفرِّدة، لكن بمن كان يقتدي أمثال عبد الله بن المبارك إذا أصابهم الفتور وحلَّ عليه التعب من مواصلة السير؟!

قال ابن المبارك يومًا :

«إذا نظرت إلى فضيل بن عياض جُدِّد لي الحزن ومقتُّ نفسي»، ثم بكى[٣].

وكذلك كان الربيع بن خيثم يقارن نفسه دومًا بمن هو أعلى وأتقى، وهل هناك من هو أعلى من ذلك وأرقى؟! فيبكي حتى يبل لحيته من دموعه ويقول: «أدركنا قومًا كنا في جنوبهم لصوصًا»[٤]، وإذا كان الربيع يرى نفسه لصًّا في جنب هؤلاء فماذا أكون أنا وأنت؟

2 غيِّر وسطك تنطلق:

وهذا تفسير للمرض وليس بتبرير له، يعني أن هذا ليس عذرًا لك بل أنت مسؤول عن نفسك وعن تغيير نفسك؛ ولذلك ننادي دائمًا بأهمية الصحبة الصالحة والوسط الطيب كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ

(١) صفة الصفوة ٤/ ١٣٨.
(٢) تاريخ الإسلام.
(٣) تاريخ الإسلام.
(٤) الزهد للإمام أحمد ص ٤٦٩.

وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

تلك العناصر التي من صفاتها ما أخبرنا به ﷺ: «إن من الناس ناسًا مفاتيح للخير مغاليق للشر»(١).

وعندما يتعرض المسلم لفتنة ويبتليه ربه ليمحصه، أو يضعف إيمانه إثر غارة من غارات الأبالسة من الجن والإنس؛ يكون من عوامل الثبات أن يقيِّض الله له رجلاً صالحًا يعظه ويثبته، فتكون كلماته مرهم الجروح وبلسم الشفاء.

وهاك أخي، هذه الأمثلة من سيرة الإمام أحمد رحمه الله، الذي دخل المحنة ليخرج ذهبا نقيا.

يقول الإمام أحمد عن مرافقة الشاب محمد بن نوح الذي صمد معه في المحنة:

«ما رأيت أحدًا على حداثة سنه وقدر علمه أقوم بأمر الله من محمد بن نوح، إني لأرجو أن يكون قد خُتِم له بخير.

قال لي ذات يوم: يا أبا عبد الله، الله الله، إنك لست مثلي، أنت رجل يُقتدى بك، قد مدَّ الخلق أعناقهم إليك، لما يكون منك، فاتق الله، واثبت لأمر الله، فمات وصليت عليه ودفنته»(٢)، ونِعْم الأخوة..

كم من أخٍ لك لم يلده أبوكا	وأخ أبوه أبوك قد يجفوكا
صافِ الكرام إذا أردت إخاءهم	واعلم بأن أخا الحفاظ أخوكا
كم إخوة لك لم يلدك أبوهم	وكأنما آباؤهم ولدوكا
لو كنت تحملهم على مكروهة	تخشى الحتوف بها لما خذلوكا
وأقارب لو أبصروك مُعلّقا	بنياط قلبك ثم ما نصروكا

إن الأخ الصالح هو الجماعة ولو كان واحدًا، ولقد كان محمد بن أسلم الطوسي الإمام

(١) حسن: رواه ابن ماجة عن أنس مرفوعا رقم: ٢٣٧ وانظر السلسلة الصحيحة رقم: ١٣٣٢.
(٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٤٢.

المتفق على إمامته مع رتبته أتبع الناس للسنة في زمانه حتى قال: ما بلغني سنة عن رسول الله ﷺ إلا عملت بها، ولقد حرصت على أن أطوف بالبيت راكبًا فما مُكِّنتُ من ذلك، فسئل بعض أهل العلم في زمانه عن السواد الأعظم الذين جاء فيهم الحديث: إذا اختلف الناس فعليكم بالسواد الأعظم، فقال: «محمد بن أسلم الطوسي هو السواد الأعظم»(١).

3 مرآة العيوب:

ومن فوائد الأخوة أنها مرآة العيوب وجهاز الاكتشاف المبكِّر لأمراض القلوب؛ لذا كان **بلال بن سعد** يقول لأخيه: «بلغني أن المسلم مرآة أخيه، فهل تستريب من أمري شيئًا؟!»(٢)، وروى **جعفر بن برقان** عن **ميمون بن مهران** قول **ميمون** له: «يا جعفر.. قل لي في وجهي ما أكره، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره»(٣).

وهي واحدة من أفضل الوسائل المؤدية إلى اكتشاف عيوب المرء ، وفي المثل الغربي : ما الحقيقة؟! قيل : انطباعات الآخرين.

فحقيقة نفسك هي ليس ما تراه أنت وتظنه فيك من مزايا أو عيوب ، بل ما يراه الآخرون فيك ، والآخرون عندنا هم أبناء الآخرة ، ومن أبناء الآخرة كان الشيخ المجدِّد وباعث النهضة الإيمانية في جيل صلاح الدين : الإمام **عبد القادر الجيلاني** الذي كان يطلب ممن يحضر دروسه هذا الطلب العجيب :

« اجعلني مرآتك ، اجعلني مرآة قلبك وسرك ، مرآة أعمالك ، ادْنُ مني ، فإنك ترى في نفسك ما لا تراه مع البعد عني ، إن كان لك حاجة في دينك فعليك بي ، فإني لا أحابيك في دين الله عز وجل »(٤).

فربىَّ بذلك الجموع الهادرة وأوقد الشعلة النائمة التي نمت بعد ذلك إلى أن صارت

---

(١) إغاثة اللهفان ١/ ٧٠.
(٢) حلية الأولياء ٥/ ٢٢٥.
(٣) السابق ٤/ ٨٦.
(٤) الفتح الرباني ص ٣٨

انتفاضة واعية ونهضة شاملة انتهت بتحرير المقدسات والصلاة في الأقصى مطهرًا من دنس الصليبيين.

أفهم أن يضل المسافر ساعة أو ساعتين، فإن طال غيابه فيومًا أو يومين، ثم يهتدي، فواعجبًا من تائه طوال عمره؛ ثم لا هو يهتدي ولا هو يسير مع المهتدين!!

يا من انحرف عن جادتهم كن في أواخر الركب ونم إذا نمت على الطريق، فالأمير يراعي الساقة، وقد قالت امرأة فرعون من قبل: ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾ [التحريم: ١١]، فقدَّمت الجار قبل الدار حين قالت ﴿ عِندَكَ ﴾ قبل ﴿ بَيْتًا ﴾، وقد قال الله تعالى عن بلقيس: ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ [النمل: ٤٣]، فقد تأثرت بمن أحاط بها رغم ذكائها ورجاحة عقلها.

4 تقليد الإصلاح:

وهي حقيقة بشرية وخصلة إنسانية فطرية كما قرَّر ذلك ابن تيمية:

«فكم من الناس لم يُرِد خيرًا ولا شرًّا حتى رأى غيره، لا سيما أن كان نظيره يفعله ففعله، فإن الناس كأسراب القطا مجبولون على تشبه بعضهم ببعض؛ ولهذا كان المبتدئ بالخير وبالشر له مثل من تبعه من الأجر،... وذلك لاشتراكهم في الحقيقة، وإن حكم الشيء حكم نظيره، وشبيه الشيء منجذب إليه»[١].

وقد ورد في الأثر تشبيه الأخوين باليدين تغسل إحداهما الأخرى، لأن اليدين دائما تتعاونان على غرض واحد، فكذا الأخوان إنما تتم أخوتهما إذا ترافقا في مقصد واحد فكانا كالشخص الواحد، وهذا يقتضي المواساة في السراء والضراء، والمشاركة في الحال والمآل، وغياب الأثرة والأنانية، وتبادل النصح والترحيب به؛ ولذا قال علي بن أبي طالب ﷺ: الرجل بلا أخ كشمال بلا يمين.

وما المرء إلا بإخوانه كما يقبض الكف بالمعصم

(١) الاستقامة ٢/ ٢٥٤، ٢٥٥.

ولا خـــيرٌ في الكـــفُّ مقطوعـــة ولا خـيرٌ في الســـاعد الأجـذم

وكما أن عدوى الأمراض تنتشر فكذلك عافية الدواء تنتشر. قال ابن القيم:

«مجالسة العارف تدعوك من ست إلى ست: من الشك إلى اليقين، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الرغبة في الدنيا إلى الرغبة في الآخرة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن سوء الطوية إلى النصيحة»(١).

ولأن الفترة بعد النشاط فطرة، والعمل الدائم بلا وهن من سلوك الملائكة، كان الفتور متوقعًا، وكانت وصفة الأطباء لك أن تفتر -إن فترت- بين إخوانك، ولا تنعزل عنهم تحت ذريعة ملبيًا دعوة طبيبك الخاص ابن القيم حين أوصى: «يا من انحرف عن جادتهم: كن في أواخر الركب، ونم إذا نمت على الطريق، فالأمير يُراعي الساقة»(٢).

ابحث عنهم.. فتِّش عن مجالسهم تفتيشك عن الكنز ولهثك خلف الأموال.. فهم آخر سهم في كنانتك.. وربما كانوا قريبين منك لكنَّ بصرك أثَّرت فيه الأهواء حتى أضعفته، قال ابن الجوزي: «يا قليل الخبرة بالطريق: اطلب رفقة، إذا لم تعرف القبلة بالعلامات، ففي المساجد محاريب، إذا رأيت قطار التائبين متصلاً فعلِّق عليه»(٣).

ويساعد على هذا الإصلاح اتهام الإنسان نفسه إذا أحس منها بالنفور من أهل الخير والصلاح. قال عليه الصلاة والسلام: **«ما توادَّ اثنان في الله -عز وجل- أو في الإسلام، ففُرِّق بينهما إلا بذنب يُحدِثه أحدهما»**(٤).

ويؤكِّد هذا المعنى ابن الجوزي في معرض تعليقه على حديث **«الأرواح جنود مجندة»** فيقول: «ويُستفاد من هذا الحديث أن الإنسان إذا وجد من نفسه نفرة ممن له فضيلة أو صلاح، فينبغي أن يبحث عن المقتضي لذلك، ليسعى في إزالته حتى يتخلص من الوصف المذموم»(٥).

---

(١) المدارج ٣/ ٣٤٥.
(٢) الفوائد ص٤٣.
(٣) المدهش ص٢٦١.
(٤) صحيح: رواه البخاري في الأدب المفرد رقم: ٤٠١ وأحمد في المسند ٢/ ٦٨، وهو في السلسلة الصحيحة رقم: ٦٣٧.
(٥) فتح الباري ٦/ ٣٧٠.

5 الأنس وعدم الوحشة:

وفي صحبة الصالحين إيناس لوحشة الروح وتخلص من صعوبة التفرد كما حكاه ابن القيم:

«والقصد أن في ذكر هذا الرفيق ما يزيل وحشة التفرد ويحث على السير والتشمير للحاق بهم، وهذه إحدى الفوائد في دعاء القنوت: **اللهم اهدني فيمن هديت**، أي أدخلني في هذه الزمرة واجعلني رفيقًا لهم ومعهم»(١).

ولذا ذكر الله -تعالى- في القرآن نوعًا من العذاب في جهنم حين قال على لسان أهلها: **﴿فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾** [الشعراء: ١٠٠، ١٠١]، فعلَّمنا أن في النار عذابًا آخر غير الحرق والشواء، ألا وهو عذاب الوحدة والتفرد وعدم المشاركة في تحمل الآلام.

أنتم سروري وأنتم مشتكى حُزني ... وأنتم في سواد الليل سُمَّاري
أنتم وإن بعُدت عنا منازلكم ... نوازلٌ بين أسراري وتذكاري
فإن تكلمت لم ألفظ بغيركمُ ... وإن سكتُّ فأنتم عقد إضماري
الله جاركم مما أحاذره فيكم ... وحبي لكم من هجركم جاري

ولذا قيل في المثل: فَقْد الإخوان غُربة، وهؤلاء الإخوان هم الذين يشبهونك خُلُقًا وروحًا، وإلا كنت غريبًا ولو كان حولك ألف صاحب لكنهم لا يشبهونك!! وبهذه التجربة مرَّ الإمام العلامة المحدِّث الرحَّال أبو سليمان الخَطَّابي؛ وذلك حين شعر أنه غريب بين قومه وفي بلده «بست» حين لم يجد له شبيهًا في الهمة والهم والعزم والحزم، فانطلق شاكيًا يقول:

وإني غريبٌ بين بُسْتَ وأهلها ... وإن كان فيها أُسْرَتي وبها أهْلي
وما غُرْبَةُ الإنسان في غُرْبَةِ النَّوَى ... ولكنَّها والله في عَدَمِ الشكْلِ(٢)

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٢٢.

(٢) مجمع الأمثال ٢/ ٨٣.

مضاعفات القوة

وأعني بها هنا ما يقوي روابط الأخوة ويجعل قطعها من المستحيلات، وأولها:ذ

1 التماس العذر :

وإذا لم تقبل عذر إخوانك انفضوا من حولك وتركوك حائرا، تظن بمن حولك الظنون وتوزع عليهم الاتهامات وما العيب إلا فيك. قال حمدون القصار: «إذا زلَّ أخ من إخونكم فاطلبوا له سبعين عذرًا، فإن لم تقبله قلوبكم؛ فاعلموا أن المعيب أنفسكم، حيث ظهر لمسلم سبعون عذرًا فلم تقبلوه»(١).

إذا مـــا بدَتْ من صاحب لك زلة ... فكُنْ أنت محتالاً لزلّته عــذرا
أحب الفتى ينفي الفواحشَ سمعُه ... كأنَّ به عن كل فاحشة وقـرا
سليم دواعي الصدر لا باسطٌ أذى ... ولا مانعٌ خيرًا ولا قائلٌ هجــرا

وجعله الفضيل بن عياض أصل الفتوة ليس بضخامة الجسم واستعراض العضلات حين قال: «الفتوة: العفو عن عثرات الإخوان»(٢)، بل وهدَّد في نبرة جادة كل من أمسك بالمنظار المكبِّر ليفتش عن عيوب الإخوان ويُحصي زلاتهم فقال: «من طلب أخًا بلا عيب بقي بلا أخ»(٣)؛ لذا كان سلوك طريق المغفرة والتسامح هو سكة كل من يريد الإبقاء على إخوانه والمحافظة عليهم.

وكنت إذا الصديق أراد غيظي ... وشـرَّقني علـى ظمـإ بريقـي
غفـرت ذنوبه وكظمت غيظي ... مخافة أن أعيش بلا صديق

إن التسامح والعفو كذلك علامة من علامات المروءة، وسمة من سمات الأصل الكريم

(١) آداب الصحبة ص ٤٤.
(٢) السابق ص ٤٦.
(٣) شعب الإيمان ٦/ ٣٣٠.

والخلق السامي، كما عرَّف عمر بن عثمان المكي المروءة فقال: «المروءة التغافل عن زلل الإخوان»[١]، وقد حفلت قصائد الشعراء بهذا المعنى، فالأبرش يخاطب صاحبه الذي جفاه:

هبني أسأت كما زعمتَ ... فأين عاطفةُ الأخوة
ولئن أسأتُ كما أسأتَ ... فأين فضلك والمروة

والأصمعي يستعطف أخاه المخاصم له بتذكيره بعطف الله حين يقول:

أتيتك تائبًا من كل ذنب ... وخير الناس من أخطأ فتابا
أليس الله يُستعفى فيعفو ... وقد ملك العقوبة والثوابا

وهذا هو الصاحب الذي طالما بحث عنه الخليفة المأمون ولم يجده ، وتمنى لو اشترى صحبة مثله ولو ضحَّى بالخلافة بأسرها، وذلك لما سمع ابن العتاهية يُنشد :

وإني لمحتاج إلى ظِلِّ صاحب ... يروق ويصفو إن كدرت عليه

فقال المأمون : « خذ مني الخلافة ، وأعطني مثل هذا الصاحب »[٢].

وليس مجرَّد الرضا والصفاء فحسب بل طمِع الصلاح الصفدي في ما هو أكثر من ذلك وأكرم حين أمرك مع كل صاحب مروءة فقال :

صديقك مهما جنى غطِّه ... ولا تُخْفِ شيئًا إذا أحسنا
وكن كالظلام مع النار إذ ... يواري الدُّخان ويُبدي السَّنا[٣]

والأمر أبعد من مجرد هذا، بل هو شرط من شروط الأخوة من حققها استحق أن ينضم إلى قافلة الإخوان، ومن فرَّط فيها ظل منزويًا في ذائرة المعارف، وممن طبَّق هذا المبدأ بصرامة سفيان الثوري الذي كان يقول: «إذا أردت أن تؤاخي رجلاً فأغضبه، ثم دُسَّ عليه من يسأله عنك وعن أسرارك، فإن قال خيرًا وكتم سرَّك فاصحبه»[٤].

(١) صفة الصفوة ٢/ ٤٤٠.
(٢) الكشكول ١/ ٣٠٢.
(٣) حكم وأخلاق عربية محمد المكي بن الحسين ص ٢٣ – الدار الحسينية للكتاب ط ١٤١٦ -١٩٩٥.
(٤) الإحياء ٢/ ١٧٩.

وهو نفس مذهب الفضيل بن عياض الذي قال: إذا أردت أن تصادق صديقًا فأغضبه، فإن رأيته كما ينبغي فصادقه.

قال ابن الجوزي معلِّقًا: «وهذا اليوم مخاطرة، لأنك إذا أغضبتَ أحدًا صار عدوًّا في الحال» (١).

كان في زمانهم مخاطرة، أما اليوم فهو انتحار!! فقد شحَّت النفوس وضاقت الصدور، إلا ما بقي من إخوان صدق أحيوا ما اندرس وأعادوا ما سلف.

أخ يخاصم أخًا له صحِبه دهرًا، وذلك من أجل زلة لسان أو فورة في لحظة غضب؟! ثم يحسبها أخوة في الله ويطلب بها الاستظلال في ظل عرش الرحمن!!

ممنوع العتاب!!

ولأن العتاب مقدمة القطيعة وطليعة الفرقة، فقد اجتنبه الإخوان، ولما جرى بين أبي العباس محمد بن صبيح الكوفي الزاهد الشهير بابن السماك وبين أخ له خلاف أورث كدرًا في القلب، فقال له صديقه: الميعاد غدًا نتعاتب، فقال: «بل الميعاد غدًا نتغافر» (٢).

وذلك لعظيم فقهه رحمه الله، ولإدراكه أن الأخوة الإيمانية تقوم أساسًا على محبة الخير للإخوان، والخير كل الخير في مسامحة أخيك واجتياز أبواب الجنة وأنت ممسك بيده، وكل ما يحول بينك وبين هذا فهو عائق لا بد لك من إزالته، وعقبة لابد من تحطيمها، وأعظم هذه العوائق والعقبات: الذنوب، ومن هنا كان من الأجدر إذا جرى بينك وبين أخيك مشاحنة أن تكون عينك على ذنبك وذنبه، فيكون خوفك من أن يكون ملك السيئات قد خطَّ عليك أو عليه خطيئة، وحتى إن أساء عليك فعليك أن تحزن عليه لا منه، فتلتقي به في أول لقاء ترجو منه المغفرة وتناشده العفو (نتغافر)، لا أن يرمي كل منكما صاحبه بالتهم ويلقي عليه باللائمة (نتعاتب) كما يفعل أبناء الدنيا وإخوان المصالح، وعندها تبقى المحبة وتدوم، المحبة في الله وحدها هي التي تدوم.

---

(١) صيد الخاطر ص ٣٨٥.

(٢) شعب الإيمان ٦/ ٣٢٤.

وكـــل محبـــة في الله تبقـــى ... علـى الحـالين مـن فـرج وضـيق
وكـــل محبـــة فيمـــا ســـواه ... فكـالأخشـاب في لهـب الحريـق

جهابذة المروءة!!

إنها نفسية النبلاء وأصحاب المروءات، وهل مثل عبد الله بن المبارك من معلِّم مروءة فذٍّ وأستاذ الأساتذة في الهمم العالية، وانظر حين صحب رجلا سيئ الخلُق في سفر، فكان يحتمل منه ويُداريه فلما فارقه بكى!! فقيل له في ذلك، فقال:

«بكيتُه رحمة له، فارقته وخُلُقُه معه لم يفارِقه»(١).

وهو ما يبلغ بالأخ المسلم مقام الفتوة الحقة، فليست الفتوة بالصرعة والبطش وشدة البأس، وإنما هي احتمال الإساءة والأذى ثم ردِّهما على صاحبهما إحسانًا وندى، وقد جعلها أبو حاتم محمد بن حبان البستي من واجبات الأخوة الحقة ولوازمها، فضلًا عن كونها من علامات العقلاء كما ذكر ذلك في كتابه روضة العقلاء، حيث قال رحمه الله:

«الواجب على العاقل إذا رزقه الله وُدَّ امرئ مسلم صحيح الوداد محافظ عليه: أن يتمسك به، ثم يوطِّن نفسه على صلته إن صرمه، وعلى الإقبال عليه إن صدَّ عنه، وعن البذل له إن حرمه، وعلى الدُّنُو منه إن باعده، حتى كأنه ركن من أركانه، وإن من أعظم عيب المرء تلونه في الوِداد»(٢).

2 الزيارة :

قال ﷺ: **«والرجل يزور أخاه في ناحية المصر في الله في الجنة»**(٣).

وقد سبق وأن طاب قلب رجل صالح فطاب ممشاه في زيارة إخوانه، ومتى صدقت نية المرء زالت كل عقبة ولو كانت الجبل، وبلغ المراد ولو كان السحاب. قال **عبد الله بن الإمام أحمد**:

(١) الإحياء ٣/ ٥٢.
(٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ١/ ١٠٣ – ط دار الكتب العلمية بيروت.
(٣) حسن: رواه الدارقطني في الأفراد والطبراني عن كعب بن عجرة، وحسنه الألباني رقم: ٢٦٠٤.

«لما أُطلق أبي من المحنة خشي أن يجيء إليه إسحاق بن راهويه، فرحل أبي إليه، فلما بلغ الري دخل إلى مسجد، فجاء مطر كأفواه القِرَب، فلما كانت العتمة قالوا له: اخرج من المسجد، فإنا نريد أن نغلقه، فقال لهم: هذا مسجد الله وأنا عبد الله، فقيل له: أيهما أحب أن تخرج أو نجُرَّ رجلك. قال أحمد: فقلت سلامًا، فخرجت من المسجد والمطر والرعد والبرق، فلا أدري أين أضع رجلي ولا أين أتوجه، فإذا رجل قد خرج من داره، فقال لي: يا هذا!! أين تَمُرُّ في هذا الوقت؟! فقلت: لا أدري أين أمر، فقال لي: ادخل، فأدخلني دارًا ونزع ثيابي وأعطوني ثيابًا جافة وتطهرت للصلاة، فدخلت إلى بيت فيه كانون فحم ولُبُود ومائدة منصوبة، فقيل لي: كُل، فأكلت معهم، فقال لي: من أين أتيت؟! فقلت: من بغداد، فقال لي: تعرف رجلاً يقال له أحمد بن حنبل، فقلت: أنا أحمد بن حنبل، فقال لي: وأنا إسحاق بن راهويه»[1]. لسان الحال:

ولو قطعوا رجلي مشيتُ على العصا ... وإن قطعوا الأخرى حبوتُ حبوتُ

ولو دفنوني تحت ألفي قامة ... تخلخلت من بين التراب وجئتُ

والأخ في الله مشغول بألوان الطاعات قد تشغله كثرة الواجبات وقلة الأوقات عن كثرة الزيارات وتبادل الصلات، لكن إن لم تلتقِ الأجساد وتباعدت البلاد فإن الأرواح متصلة وتتعانق، وهذه علامة فارقة من علامات الأخوة في الله، فأخو الدنيا يخاصمك إذا لم تصله وترد له الزيارة بمثلها، لكن أخا الدين يعذرك ويدعو لك بظهر الغيب أن يعينك الله على ما شُغِلت به من الخير.

أبلغ أخاك أخا الإحسان بي حُسنًا ... إني وإن كنتُ لا ألقاه ألقاه

فإن طرفي موصولٌ برؤيته ... وإن تباعد عن مثواي مثواه

وفهم سلفنا الصالح هذا المعنى فهمًا عميقًا وترجموه واقعًا ملموسًا وأحداثًا يومية، فكان بين عبد الرحمن بن مهدي ويحيى بن سعيد القطان مودة وإخاء، فكانت تمرُّ السنة عليهما لا يلتقيان، فقيل لأحدهما في ذلك فقال:

(١) مناقب أحمد لابن الجوزي.

«إذا تقاربت القلوب لم يضر تباعد الأجسام»[١].

وروي أن يونس بن عبيد أصيب بمصيبة، فقيل له : ابن عوف لم يأتك؟! فقال : « إنا إذا وثقنا بمودة أخينا لم يضرَّه أن لا يأتينا »[٢].

فكل أخوة لا تزداد إلا باللقاء وكثرة المجالسة بينها وبين الأخوة الحقيقية مسافة كبيرة، ومن هنا قال الحسن بن صالح :

« كل مودة لا تزداد إلا بالالتقاء مدخولة »[٣].

3 النصح:

قال عمر بن عبد العزيز: «من وصل أخاه بنصيحة له في دينه ونظر له في صلاح دنياه، فقد أحسن صلته وأدى واجب حقه، فاتقوا الله فإنها نصيحة لكم في دينكم فاقبلوها، وموعظة منجية في العواقب فالزموها»[٤].

أم أننا كبرنا على النصح، وتخرجنا من جامعة الهداية، فلم نعد نقبل أن ينصحنا تلامذة الأمس وأبناء البارحة، رغم أن كثرة النصح ودوامه والتماسه من الغير تسهِّل اكتشاف العيب فوق ظهوره، وتتيح للمرء أن يصححه على الفور، بعكس ما إذا طالت المدة واتسعت الخروق وكثرت العيوب؛ لذا كان المريض الذكي هو من يقصد إخوانه فيطلب منهم النصح لا أن ينتظرهم حتى ينصحوه.

وكان من الذكاء كذلك أن يدفن المريض نفسه وسط جموع الصالحين وكثرة من المتقين؛ ولذا كان العمل الجماعي أعظم بركة لكونه أسرع بيئة يُكتشف فيها الخطأ ويقوَّم فيها الزلل وفي الحال.

واعلم أنه ليس من علامات الأخوة الصادقة موافقة الأخ أخاه إذا خالف الحق، بل في مخالفته في ما ذهب إليه من الباطل، فقد كان الشافعي مؤاخيًا لمحمد ابن عبد الحكم، وكان

---

(١) الآداب الشرعية ٣/ ٥٦٥.
(٢) روضة العقلاء ص ٨٩.
(٣) روضة العقلاء ص ١١٦.
(٤) تاريخ الطبري ٤/ ٧١.

يقرِّبه ويُقبِل عليه ويقول ما يقيمني بمصر غيره، وظن الناس لصدق مودتها أنه سيفوِّض أمر حلقته إليه بعد وفاته، فقيل للشافعي في علته التي مات فيها: إلى من نجلس بعدك يا أبا عبد الله؟! فاستشرف له محمد بن عبد الحكم وهو عند رأسه ليومئ إليه، فقال الشافعي: سبحان الله!! أيُشك في هذا.. أبو يعقوب البويطي، فانكسر لها محمد، ومال أصحابه إلى البويطي مع أن محمد بن عبد الحكم كان قد حمل عن الشافعي مذهبه كله، لكن البويطي كان أفضل وأقرب إلى الزهد والورع [١].

وحين يختفي النصح من دوائر الإخوان وينقلب سكوتًا عن الانحرافات والتجاوزات؛ عندها تكون الأخوة في الله قد لفظت أنفاسها الأخيرة وانتقلت إلى جوار ربها.

وما أحلى مواعظ ابن الجوزي في المدهش ومنها:

«لو صحَّ مزاج فطرتك حلا طعم النصح في فمك، المفروض عندك مرفوض، وكلام النصيح صوت الريح» [٢].

4 الأخوة الخاصة:

والمقصود بها هنا: الاختيار والاصطفاء من بين زمرة الأصدقاء ليكون منهم خليلك وصفيك الذي تبثه نجواك، وتتعاون معه على مرضاة الله، وهو مع ما فعله النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، فمع أخوة الإيمان العامة بين كل المؤمنين؛ فقد آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، وبين عوف بن مالك وبين الصعب بن جثامة، وبين سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف، وبين عتبة بن غزوان وعباد بن بشر، وبين حاطب بن أبي بلتعة وعويم بن ساعدة، وبين طلحة ابن عبيد الله وكعب بن مالك، وبين عثمان بن عفان وأوس بن ثابت، وهكذا وجد كل مهاجر أخًا أنصاريًا خاصًّا فضلاً عن أخوته مع جميع الصحابة.

وهذا الأمر في حاجة مع الاختيار إلى الاختبار، وبعد الاختبار إما النجاح والانضمام إلى قائمة الإخوان، أو السقوط والبقاء في دائرة الأصدقاء أو جملة المعارف، وهو منهج سار عليه

(١) الإحياء ٢/ ٨٧ بتصرف واختصار.
(٢) المدهش ص [illegible] - دار الكتب العلمية.

سفيان الثوري حتى تمثل قول الشاعر:

ابلُ الرِّجال إذا أردت إخاءهم ... وتوسَّمن أمورهم وتفقَّدِ
فإذا وجدتَ أخا الأمانة والتُّقى ... فبه اليدين قريرَ عينٍ فاشْدُدِ

وكلما استكثر الواحد من هذه الأخوة كلما كانت فرصه في النجاة أوفر وإحرازه للفوز أرجى؛ لذا أوصى بعض السلف: «استكثروا من الإخوان، فإن لكل مؤمن شفاعة، فلعلك تدخل في شفاعة أخيك»(١).

5 الإعانة على الخير:

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيده يومًا ثم قال: يا معاذ!! والله إني لأحبك، فقال له معاذ: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، وأنا والله أحبك. قال: أوصيك يا معاذ.. لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: «اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»، وأوصى بذلك معاذ الصنابحي، وأوصى بها الصنابحي أبا عبد الرحمن، وأوصى بها أبو عبد الرحمن عقبة بن مسلم(٢).

وكأنه عهد تتوارثه الأجيال ويناوله السابق إلى اللاحق، ثم تأمل أخذ النبي ﷺ بيد معاذ تأكيدًا على أنه عقد محبة وبيعة مودة، وتعليمًا لنا أن المحبة لا تدوم ولا تثبت إلا في ظل التواصي بالخير.

وكلما كانت إعانتك لأخيك على الخير أشد كنت من الله أقرب وإليه أحب، وهذا وعد نبيك الكريم ﷺ الذي بشَّرك: «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه»(٣).

وهذه الخيرية تشمل خير الدنيا من إنفاق مال وإهداء هدية وسعي في قضاء حاجة، وخير الآخرة من نصح وإعانة على الطاعة.

ولا تُمَيَّز أخوة الدين عن أخوة الدنيا إلا بمثل هذا، ولهذا كان الصحابة لا يفترقون إلا

---

(١) الإحياء ٢/ ١٧١.
(٢) صحيح: رواه أبو داود والنسائي واللفظ له كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ١٥٩٦.
(٣) صحيح: رواه أحمد والترمذي والحاكم كما في صحيح الجامع رقم: ٣٢٧٠.

على سورة العصر مذكِّرين بعضهم بعضًا بشرط مهم من شروط الأخوة الإيمانية: ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾.

وإذا كانت الأخوة عندهم كذلك فإن الدنيا لا تدخل في حسابات الأخوة بشيء، فلا يتنازعون عليها ولا يختلفون بسببها، وقد رُوي أنه كان رجلان متآخيين في الله، فطلب أحدهما من صاحبه شيئًا فمنعه، فلم يتغيَّر له عن حاله، فقال له:

يا أخي.. سألتني حاجة فما قضيتُها فما تغيَّرت لي؟! قال: إنما أحببتك لأمر فلم تتغير عن الذي أحببتك من أجله، فأنا لا أتغيَّر لك وإن منعتني، فقال الآخر: إنما منعتك لأُجرِّبك، فمُدَّ يدك الآن إلى ما شئت من مالي فخذه، فما أنا بأحق به منك!!

وهذا التعاون أوجب وأهم وأحوج ما يكون في أمر الدعوة إلى الله، ليشدَّ الأخ أزر أخيه، ويتقوى به على أعلى العبادات مقامًا وأشرفها عند ربها، كما شدَّ الله أزر نبي من أنبيائه بنبي مثله، فقال الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥] مع أن موسى من أولي العزم من الرسل، لكن الله أيَّده بأخيه هارون ليربينا على هذه السنة الإلهية وندرك أثرها على البركة الدعوية.

وفهمها ورقة بن نوفل بديهة ومن أول لحظة فبذل الوعد للنبي ﷺ: «وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا»، أي أعاونك وأؤيدك في نشر دعوتك.

ولأن نسب الأنبياء متصل، فقد طلب النبي ﷺ هذه الإعانة والنصرة من قومه، وذلك على مدار عشر سنين كاملة إمضاء للسُنَّة نفسها، وهو ما حكاه جابر بن عبد الله ﷺ قال:

«مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم بعكاظ ومجنة وفي المواسم بمنى يقول: من يؤويني؟! من ينصرني؟! حتى أبلِّغ رسالة ربي وله الجنة»(١).

وما زال صدى هذه الكلمات يتردد يطلب منا النصرة والتكاتف لتبليغ الرسالة وافتداء الدين، في ظل حركة واجبة وتعاون أوجب يوصل إلى الهدف أسرع ويجعل الأداء أروع.

---

(١) صحيح: رواه الإمام أحمد في مسنده حديث رقم: ١٣٩٣٤. قال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

استشارة قلبية

إذا صاحبت الصالحين ومع ذلك لم تتغيَّر، ولم تتقدم خطوة في ميدان الطاعات، وأخذت هذا الدواء ولم تتعاف، فلابد لك من مراجعة طبيب حاذق، وأنا أوصيك أن تراجع مرة أخرى الطبيب القلبي البارع: **ابن قيم الجوزية** الذي قال:

«الاجتماع بالإخوان قسمان: أحدهما: اجتماع على مؤانسة الطبع وشغل الوقت، فهذا مضرته أرجح من منفعته، وأقل ما فيه أنه يفسد القلب ويضيع الوقت.

الثاني: الاجتماع بهم على التعاون على أسباب النجاة والتواصي بالحق والصبر، فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها، ولكن فيه ثلاث آفات:

إحداها. تزيُّن بعضهم لبعض.

الثانية. الكلام والخلطة أكثر من الحاجة.

الثالثة. أن يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود، وبالجملة فالاجتماع والخلطة لقاح؛ إما للنفس الأمارة، وإما للقلب والنفس المطمئنة، والنتيجة مستفادة من اللقاح، فمن طاب لقاحه طابت ثمرته، وهكذا الأرواح الطيبة لقاحها من المَلَك، والخبيثة لقاحها من الشيطان، وقد جعل الله سبحانه بحكمته الطيبات للطيبين والطيبين للطيبات، وعكس ذلك»[1].

---

(١) الفوائد ص ٥١، ٥٢.

سابعًا: البيت الجديد

أعني بالبيت الجديد: القبر، وهذه التربية على ذكر الموت وما بعد الموت هي التربية التي نقل بها **عمر بن عبد العزيز** بني أمية نقلة نوعية تاريخية من الإغراق في الترف إلى الإغراق في العمل، والدواء الذي استطاع أن يعالج بها انحراف الأمة عن نهجها القويم سنين، ووالله ما كان يستطيع **عمر** أن يفعل ما فعل لولا إشاعة ذكر الموت في القلوب، وذلك عبر سلسلة من المواعظ القولية والمواقف العملية اليومية، ومن ذلك ما رُوِي عنه أنه لما دخل عليه **عنبسة بن سعيد بن العاص** قال: يا أمير المؤمنين!! إن من كان قبلك من الخلفاء كانوا يعطون عطايا منعتناها ولي عيال وضيعة، أفتأذن لي أن أخرج إلى ضيعتي وما يصلح عيالي؟! فقال **عمر**: أحبكم إلينا من كفانا مؤونته، فخرج من عنده، فلما صار عند الباب قال عمر: أبا خالد!! أبا خالد!! فرجع فقال: «أكثر من ذكر الموت فإن كنت في ضيق من العيش وسَّعه عليك، وإن كنت في سعة من العيش ضيَّقه عليك»[1].

وإننا حين نذكر الموت نذكر شدته وسكرته وكربته، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: «**سبحان الله.. إن للموت لسكرات**»، وانظروا إلى **أبي بكر** ﷺ لما ثقل عليه الموت جاءته **عائشة** -رضي الله عنها- فتمثلت بهذا البيت:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدر

فكشف عن وجهه وقال ﷺ: ليس كذلك ولكن قولي ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩].

فلما علم الله استبعاد الكافرين ومرضى القلوب الغافلين للبعث والجزاء عبَّر عنه بلفظ الماضي، وسكرة الموت هي شدته المذهبة للعقل، حين يختل الإدراك ويعتري العقل غيبوبة،

---

(١) الحلية ٥/ ٢٦٥.

وهي مشتق من السَّكْر وهو الغلق لأن العقل يُغلق عندها، ومنه جاء وصف السكران، وما أصدق قول القائل:

قالوا صف الموت يا هذا وشدَّته فقلت وامتد مني عندها الصوت
يكفيكم منه أن الناس إن عجزوا عن وصف ضربهم قالوا هو الموت

الموت هو السفرة العظمى التي يسافرها الأمير مع الفقير لا يتمايزان. وقف عبد الملك بن مروان على قبر معاوية بن أبي سفيان ﷺ وقفة اعتبار وتأمل، فقال: الحمد لله عشرين سنة أميرًا، وعشرين سنة خليفة، ثم صرتَ إلى هذا.

هل الدهر والأيام إلا كما ترى رزيَّة مال أو فراق حبيب (١)

ولما مات عبد الملك بن مروان وجد من يعتبر بموته من بعده كما اعتبر هو من قبل بمصرع معاوية، فعن ابن سابط الجمحي أنه خرج من قنسرين وهو قافل قال: فأشار لي إنسان إلى قبر عبد الملك بن مروان، فوقفت أنظر فمر رجل من العباد فقال: لم وقفت ها هنا؟! فقلت: أنظر إلى قبر هذا الرجل الذي قدم علينا مكة في سلطان وأمن، ثم عجِبت إلى ما رُدَّ إليه، فقال: ألا أخبرك خبره لعلك ترهب؟ قلت: وما خبره؟! قال: هذا مَلِك الأرض بعث إليه ملك السماء والأرض، فخلع روحه، فجاء به أهله، فجعلوه ها هنا حتى يأتي الله به يوم القيامة مع مساكين أهل دمشق»(٢).

كم قد توارث هذا القصر من ملك فمات والوارث الباقي على الأثر

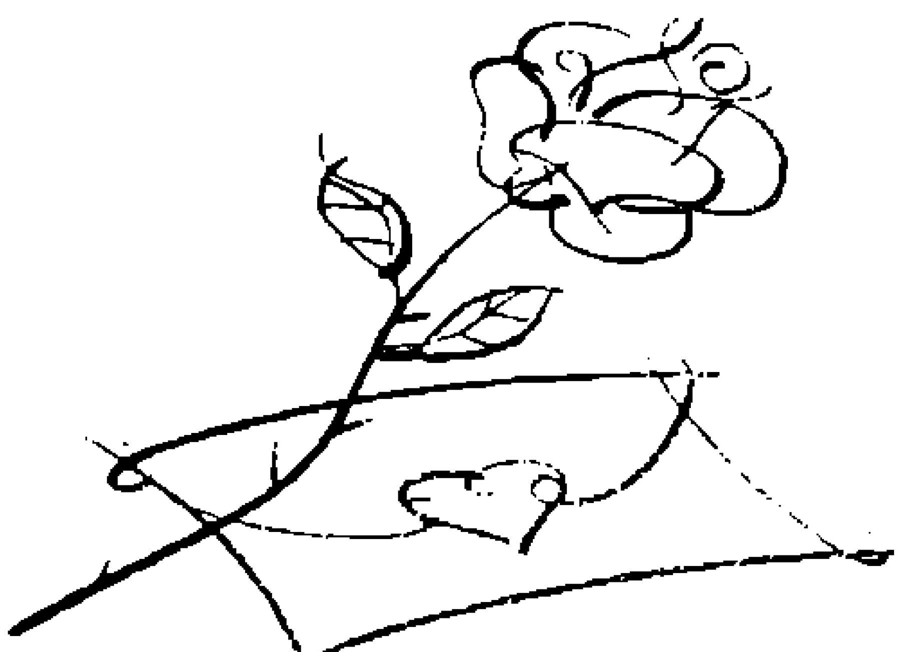

(١) الاعتبار وأعقاب السرور والأحزان ص ٧٢.
(٢) الاعتبار وأعقاب السرور والأحزان ص ٧٢.

مضاعفات القوة

1 اسمع كلام الموتى:

من رأى قبرًا فإنما رأى أعظم واعظ وأدوم مذكِّر، وإن كان القبر صامتًا لكنه ناطق، وإن كان جامدًا لكنه يحرِّك الجماد، فكأنه إنسان يخاطبك ويبين لك عاقبتك ويقول لك: يا هذا!! قد كنتُ حيًّا مثلك ومت وأنت كذلك ميِّت، وضيَّعت أمر ربي وندمت فلا تشبه أخاك في خيبته، ولا تضيِّع أمر ربك فتهلك.

ووالله ما وقف عاقل على شفير قبر فرآه محفورًا إلا هيأ نفسه أن لو كان صاحب هذا القبر، ولا حضر جنازة فرأى صاحبها يُدَلَّى في الحفرة إلا سأل نفسه: على من يُغلق؟! أيغلق على طائع أم عاصي؟! وعلى أي شيء يُغلق؟! أعلى نار موقدة أم على جنة وارفة؟!

إن التفكر والدعاء واجبان لازمان عليك تجاه نفسك وتجاه كل من مررت بهم من أموات؛ من عرفت منهم ومن لم تعرف، وإلا استحققت أن يُطلق عليك لقب الخائن كما في قاموس حاتم الأصم الذي قال: «من مرَّ بالمقابر فلم يتفكر لنفسه ولم يدعُ لهم، فقد خان نفسه وخانهم»(١).

وكانت توبة كثير من الصالحين تبدأ من ناحية القبور، ومن ضمن هؤلاء: داود الطائي، فقد كان أول ما بدأ أمر عبادته أنه مرَّ بجارية وهي تبكي أباها وتقول:

يا ليت شعري .. بأي خديك بدأ البلى؟! فأُجيبت:

«بخده اليمنى؛ فإنها التي تلي الثرى»(٢).

ومن هنا رأينا أن نضمِّن كان من برنامج العلاج أن يمر صاحبنا المريض بهذه التجربة، فيمر

---

(١) الإحياء ٢/ ٢١٠.

(٢) الزهد للبيهقي ص ٢٠٩.

على مقابر الأموات عساها تبعث في قلبه الحياة، ودخل المقبرة.. كانت رائحة الموت في كل ناحية، والبوم تنعق فوق شجرة جرداء ميتة، وكأن الشجر أصر على أن يشارك الأموات موتهم، والسكون يلف المكان كله، فَعَلَت الزائر رهبة لكنها رهبة مدروسة، واعتراه خوف لكنه جزء من برنامج العلاج، وشرط لازم لبلوغ أولى مراحل الشفاء، وتقدم أخيرًا نحو المقبرة فإذا على البوابة لوحة رخام مكتوب عليها:

ألا قــل لمــاشٍ علــى قبرنــا	**جهــول بأشــياء حلــت بنــا**
ســيندم يومــا لتفــريطه	**كمـا قـد نـدمنا لتفريطنـا**
فويحــك كــفَّ خطــام الهــوى	**وقَــدِّم جميــلا تفُــز بــالمنى**

فارتعد واضطرب وأحس أن كل ميت يخاطبه بهذه العبارة، وأنها قامت مقام تحية الزوار حين عجزت ألسنة الموتى عن النطق والكلام، فتحركت قدماه ببطء وكأنه يزحف، واجتاز البوابة ليجد القبر الأول أمامه، حاول أن يقرأ اسم صاحبه لكنه كان غير واضح، كانت الرياح قد محته من على لوحة الرخام كما محته الأيام من ذاكرة الأحباب والإخوان، لكنه استطاع أن يقرأ كلمات لم تمح، لم تستطع الأيام أن تمحوها على الرغم من طول عمر المقبرة، ربما لأن معانيها ثابتة لا تتغير، أو لأن الله أراد لنا أن ننتفع بها فحرَّم على أي من خلقه أن يمحوها، دقَّق النظر فوجد مكتوبًا:

قـف واعتبر فكـأنْ قـد	**حللــت هــذا المحــلا**
هــذا مكــان يســاوي	**فيــه الأعــز الأذلا**
مـا كـان لـي مـن صديـق	**إلا جفــاني ومــلا**
ومــا جفــاني ولكــن	**طــال المــدى فتســلى**

فازداد حسرة على حسرته، وأحس بوحشة هذا القبر وغربة أهله وبؤس ساكنه، وزاد من هذه الحسرة مروره على القبر الثاني الذي لمح فيه نفس المرارة، كان قبر شاعر فضح أصحابه في وجوههم قبل موته وقد اجتمعوا حول سريره وهو يحتضر، وفضحهم بعد موته بأن أوصى أن يُكتب على قبره:

وعمــا قليل لن ترى لـي باكيـًا	**سيضحك من يبكي ويُعرِض عن ذكري**

ترى صاحبي يبكي قليلًا لفرقتي ويضحك معْ غيد الحسان على قبري
ويُنشئ إخوانا وينسى مودتي وتشغله الأحباب عني وعن ذكري

وثالث استبق الأحداث، وتنبأ بما سيجري في المستقبل، وتأكَّد أن الطي في مجاهل النسيان سيكون مصيره، فأوصى أن يُكتب على قبره:

ملَّ الأحبة زورتي فجُفيتُ وسكنتُ في دار البلى فنُسيت
الحي يكذب لا صديق لميِّت لو كان يصدق مات حين يموت

ومرَّ بقبر رابع وكان صاحبه هو أبا بكر محمد بن أبي مروان بن زهر، وكان طبيب عصره حيث كان طبيب أشبيلية الأوحد حيث النعيم والترف والغنى والمال الذي لا منتهى له ولا حد ولا عدد، لكن بماذا أوصى هذ الغارق في النعيم حتى منتهاه؟! اسمعوا ما أوصى بكتابته على قبره مَن طالما شفى وأبرأ وداوى وأراح:

ترحَّم بفضلك يا واقفًا وأبصِر مكانًا دُفِعنا إليه
تراب الضريح على صفحتي كأنيَ لم أمشِ يومًا عليه
أداوي الأنام حذار المنون فها أنا قد صرتُ رهنًا لديه

وخامس أطال الأمل فأساء العمل، ويبدو أن الوقت كان قد تأخر عليه، فقد أفاق لكن في الوقت الضائع، وتاب لكن عند رؤية ملك الموت، فأراد أن ننتفع إن فاته هو الانتفاع، وأن نعمل إن هرب من بين يديه العمل، وأن نجتهد ما دامت فينا الروح لم تُنزع بعد، فانطلق يصرخ فينا:

يا أيها الناس كان لي أمل قصَّر بي عن بلوغه الأجل
فليتق الله ربه رجلٌ أمكنه في حياته العمل
ما أنا وحدي نُقلت حيث ترون كلٌّ إلى مثله سينتقل

وهنا.. وبعد المقبرة الخامسة بدأ يلمح فاعلية هذا الدواء وأثره على القلب ودوره في إعادته إلى الصحة المنشودة والعافية الضائعة وتنسمه لنسيم الهداية بعد أن ظل مزكومًا من

زمن، فازداد عزمًا وحماسة على إكمال المشوار، والاستمرار في تلقي رسائل الأموات، فمرَّ بالقبر السادس، فوجد هذه القصة منقوشة عليه:

الموت أخرجني من بيت مملكتي والترب مُضَّطجعي من بعد تشريف
لله عبد رأى قبــــري فأعبـــره وخاف من دهره ريب التصــــاريف
هذا مصير بني الدنيا وإن نعمـوا فيهـــا وغرَّهم طول التســـاويف
أستغفر الله من جرمي ومن زللي وأسأل الله فوزا يــــوم توقيـــــف

فأحس أن من أوصى بكتابة هذه السطور كان ملكًا مطاعًا أو أميرًا سيدًا في قومه حتى زاره الموت وانتزعه من هذه السطوة وانتشله من بين كل هذه الأُبَّهة، وألقى به في هذه الحفرة المسماة عند أهل الدنيا قبرًا، فأيقن أن الدنيا وإن بلغت به أعلى مراقيها فلابد أن ينزل به الموت إلى أدنى مهاويها، واستمرت الرحلة حتى وصلت إلى القبر السابع، وكان ما كُتِب عليه أشبه بالبكاء، حتى لكأن المداد الذي كُتِب به هو دموع صاحب هذا القبر، فماذا كتب؟!

ما حال من سكن الثرى ما حاله أمسى وقد صُرِمت هناك حباله
أمســـــى ولا روح الحيـاة يصيبه يومـــًا ولا لطـــف الحبيب يناله
أضحـــى وحيدًا موحشًا متفردًا متشتتا بعــد الجميـــع عيالـــه
أمسى وقد بَلِيَتْ محاســـن وجهه وتفرَّقـــــت في قبره أوصالــــه
واستبدلت منه المجالـــس غيره وتقسَّمـــت من بعـــده أموالـــه

وثامن تنبأ بما سيفعله أهله من بعد، سيذكرونه يومًا أو يومين، فإن علا قدره فشهرًا أو شهرين، ثم يكون ما كُتِب:

وأصبح مالُكَ المجموع نهبًا وعُطِّل بعدك القصر المشيد
وصار بنوك أيتامًا صغارًا وعانق عرسَك البعلُ الجديد

ومرَّ بتاسع قبر وكان في بستان كثير النخل والرمان وأصناف الشجر، لكن هل كان الأمر كذلك تحت الأرض؟! اسمعوا ما كتب صاحب هذا القبر لتعرفوا:

كـــــم ســـاكنٍ في حفـــرة يبلــــى جديـــد جمالــــــه

تـــــــرك الأحبـــةَ بعـــــده يتلـــــــــذّذون بمالـــــــه

وكان القبر العاشر آخر قبر وهو متمِّم الشفاء ومسك الختام، وكان صاحبه مدفونا على قارعة الطريق واسمه أبو هريرة بن النقاش، وهو الذي أوصى بدفنه في هذا المكان بذكائه وفطنته ليترحم عليه كل من يمرّ على قبره، وأوصى أن يُكتب على القبر:

بقارعة الطريق جعلتُ قبري لأحظى بالترحُّم من صديـــق

فيا مولى الموالي أنت أولـــى برحمة من يموت على الطريق

2 ربط الموت بالعمل:

حقيق بالمسافر أن يأخذ أهبة الرحيل وحوائج السفر وما يصلح لمنزل الإقامة المقبل، ويبادر بالعمل خوف المفاجأة، ومن احتدت عين بصيرته زاد في الجد وأحسن اختيار الزاد.

يا أخي.. كل امرئ على ما قدَّم قادم وفيما شيَّد خالد، فما الذي قدمت لنفسك؟! فلا بد لمن ذكر الموت حق ذكره أن يظهر ذلك على عمله جليًا، فما الذي ظهر على عملك؟! إن المنية تقطع الطريق على الأمنية فاقطع أنت عليها الطريق بالعزمة الفتية.

لقد أوصانا رسول الله ﷺ أن نذكر الموت في صلاتنا، فنصلي صلاة مودِّع، وعلى العاقل أن ينسج على نفس المنوال ويفهم ما وراء رسالة الحبيب، فإذا تصدق ذكر الموت فأخلص وأكثر ثم تواضع وخشع، وإذا ظلم ذكر الموت فتاب على الفور وأدى الحقوق إلى أهلها لا يسوِّف أو ينتظر لأن الموت لن ينتظر، وإذا دعا ذَكَر الموت فدعا دعاء المخلصين من القلب وكأنه آخر دعاء له في حياته، واسمعوا تجربة الشيخ عائض القرني لتفهموا معنى ما أقول. يقول الشيخ:

«ارتحلتُ مع نفر من الناس في طائرة من أبها إلى الرياض في أثناء أزمة الخليج، فلما أصبحنا في السماء أُخبِرنا أننا سوف نعود مرة ثانية إلى مطار أبها لخلل في الطائرة، وعدنا وأصلحوا ما استطاعوا إصلاحه، ثم ارتحلنا مرة أخرى، فلما اقتربنا من الرياض أبتْ

العجلات أن تنزل، فأخذ يدور بنا على سماء الرياض ساعة كاملة، ويحاول أكثر من عشر محاولات يأتي المطار ويحاول الهبوط فلا يستطيع، فيرتحل مرة أخرى، وأصابنا الهلع، وأصاب الكثير الانهيار، وكثر بكاء النساء، ورأيتُ الدموع تسيل على الخدود، وأصبحنا بين السماء والأرض ننتظر الموت أقرب من لمح البصر، وتذكرتُ كلَّ شيء فما وجدت كالعمل الصالح، وارتحل القلب إلى الله - عزَّ وجل- وإلى الآخرة، فإذا تفاهة الدنيا، ورخص الدنيا، وزهادة الدنيا، وأخذنا نكرِّر: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملكُ وله الحمدُ وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ»، في هتاف صادق، وقام شيخٌ كبير مسنٌّ يهتف بالناس أن يلجؤوا إلى الله وأن يدعوه، وأن يستغفروه وأن ينيبوا له، وقد ذكر الله عن الناس أنهم: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾.

ودعونا الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وألححنا في الدعاء، وما هو إلا وقت، ونعود للمرة الحادية عشرة والثانية عشرة، فنهبط بسلام، فلما نزلنا كأنا خرجنا من القبور، وعادت النفوس إلى ما كانت، وجفت الدموع، وظهرت البسمات، فما أعظم لطف الله سبحانه وتعالى.

كمْ نطلبُ اللهَ في ضرٍّ يحلُّ بنا ... فإنْ تولّتْ بلايانا نسيناهُ
ندعوه في البحرِ أنْ يُنْجي سفينتَنا ... فإنْ رجعنا إلى الشاطئِ عصيناهُ
ونركبُ الجوَّ في أمنٍ وفي دَعَةٍ ... وما سقطْنا لأنَّ الحافظَ اللهُ[1]

وإذا سارت حياة الإنسان على هذا النسق وغمرتها هذه الروح في كل جنباتها أحب الإنسان ولا بد لقاء الله، واشتاق إلى الموت كما فعل بشر بن منصور -رحمه الله- حيث قال له من شهد موته:

كأني أراك تُسرُّ من الموت!! قال: فعجب من تعجبي، وقال: «أتعجَّل قدومي على خالقي.. أرجو خيره كمقامي مع مخلوق أخافه!!»[2].

إنه وعد الله لعباده الصالحين الذي كثيرًا ما نمرُّ عليه في القرآن دون أن ننتبه له، لكن

(١) لا تحزن ص ١٠٥ - توزيع مكتبة ابن تيمية.
(٢) وصايا العلماء عند حضور الموت ١/ ١٠٤.

الأمر مختلف مع صحابي جليل طويل التدبر حاضر القلب مثل أبي الدرداء ﷺ الذي غاص في كتاب الله فخرج منه بهذه الفائدة:

«ما من مؤمن إلا و الموت خير له، فمن لم يصدقني فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٨]، ومثله حيان بن الأسود الذي رأى أن: «الموت جسر يوصل الحبيب إلى الحبيب»(١).

ولذلك لما قيل لمكحول: أتحب الجنة؟ قال: ومن لا يحب الجنة!! قال: «فأحب الموت، فإنك لن ترى الجنة حتى تموت».

إذا مَدَحوا الحَياةَ فَأَكثَروا ... ففي المَوتِ أَلفُ فضيلةٍ لا تُعرفُ
منها ضمانُ لقائه بحبيبه ... وَفِراقُ كُلِّ مُعاشِرٍ لا يُنصِفُ

لذا يكون الاستعداد عند هؤلاء ليوم الرحيل وكأنه يوم عرس يتجهَّز فيه الإنسان بأجمل ثيابه وأزكى أعماله، ويظل ينتظر ذلك اليوم على شوق أحر من الجمر كما سبق وانتظره سعد بن أبي وقاص ﷺ الذي روى عنه محمد بن شهاب الزهري أنه لما حضره الموت دعا بخلق جبة له من صوف فقال: «كفِّنوني فيها، فإني لقيتُ المشركين فيها يوم بدر، وإنما كنتُ أُخبِّأها لهذا اليوم»(٢).

لله درّك يا سعد وما أحلى كلامك! وكأنك تريد بذلك أن توقد فينا شعلة العزم ونار الغيرة المقدَّسة لننافسك في الخيرات، ونلحق بك وإن سبقتنا إلى الجنات، وتقتدي بك وإن فاتتنا رؤيتك الغالية، فأين المنافس؟!

وما أروعك يا سعد! وما أوثقك بربك! حتى وأنت على بعد خطوات من لقائه. قال ابنه مصعب: كان رأس أبي في حجري وهو يقضي فبكيت، فرفع رأسه إليّ فقال: أي بني!! ما يبكيك؟ قلت: لمكانك وما أرى بك، فقال: «لا تبكِ، فإن الله لا يعذبني أبدًا، وإني من أهل الجنة»(٣).

---

(١) مختصر التذكرة ص ١٢ - ط دار العاصمة - فتحي بن فتحي الجندي ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
(٢) المستدرك على الصحيحين ٣/ ٥٦٧.
(٣) تاريخ الإسلام.

إنه النعيم الذي ليس مثله نعيم والراحة الأبدية التي لا توصف والهدف الذي سعى إليه العاقلون النابهون، وهذا الكنز للأسف لا يبصره إلا القليل من الناس وهم أحياء القلوب، وكان أبو عطية من هذا القليل؛ ولذا لما تحادث قوم عنده فتذاكروا النعم، فقالوا: من أنعم الناس؟! فقالوا: فلان وفلان، ثم سألوه: ما تقول يا أبا عطية؟ فقال: «أنا أخبركم من هو أنعم منه؟! جسد في اللحد قد أمِن من العذاب.. ينتظر الثواب»[(١)].

وهذا الجسد لو أُذِن له أن يتكلم وهو يدفن لصاح منشدًا في من يدفنه:

إذا أمسى فراشي من تراب وصـــرتُ مجاور الربِّ الكريم
فهنُّوني أحبائي وقولـــــوا لك البشرى قدمت على كريم

والعكس بالعكس.. ما نسى أحدٌ ذكر الموت إلا أساء العمل وفرَّط في مستقبله. قال سليمان بن عبد الملك لأبي حازم: يا أبا حازم!! ما لنا نكره الموت؟ فقال: لأنكم عمَّرتم دنياكم وخرَّبتم أخراكم، فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب. قال: كيف القدوم على الله عز وجل؟! فقال: يا أمير المؤمنين.. أما المحسن فكالغائب يأتي أهله فرحًا مسرورًا، وأما المسيء فكالعبد الآبق يأتي مولاه خائفًا محزونًا»[(٢)].

تجهَّزتم؟!

كان زياد بن جرير يقول: تجهَّزتم؟! فسمعه رجل فقال: ما يعني بقوله: تجهزتم؟ فقيل: «تجهزتم للقاء الله»[(٣)]، وأنا آخيت زيادًا في قوله ووريثه في نصحه؛ لذا أسأل الجميع وخاصة نفسي: تجهَّزتم؟!

أخي المتردِّد بين نعيم الجنة ولهيب النار!!

لا تحيِّر معك الوعاظ ولا تتعب معك المصلحين ولا تفعل كما فعل صاحب بلال بن سعد حين قال: «يُقال

(١) الحلية ٥/ ١٥٣، ١٥٤.
(٢) صفة الصفوة ٢/ ١٥٨.
(٣) حلية الأولياء ٤/ ١٩٧.

لأحدنا: تريد أن تموت؟ فيقول: لا، فيقال له: لم؟ فيقول: حتى أتوب وأعمل صالحاً، فيقال له: اعمل، فيقول: سوف أعمل، فلا يحب أن يموت ولا يحب أن يعمل، فيؤخِّر عمل الله تعالى، ولا يُؤخِّر عمل الدنيا»[(١)].

ولو لم يُترجم ذكر الموت إلى عمل صالح لكان ذكرًا هزليًا ، وتمثيلاً سمجًا ، وادعاءً باهتًا ، إلا أن يثمر سلوكًا وحركة ، وعملك الصالح هو في النهاية -أخي- قرينك الذي يُدفن معك حيًّا في قبرك وأنت ميت، فيؤنس وحشتك وينير ظلمتك وينافح عنك ويحاجج عن سلامتك.

ذكر الموت حياة!!

هذا هو عنوان الثقافة الإيمانية التي تستهدف إصلاح الحياة ، وإذا كان الموت بوابة العبور إلى الآخرة فإنه يحمل بين طياته إصلاح الدنيا ، فلا يسرق امرؤ ولا يغش ولا يعتدي ولا يتهرب من واجب أو يسطو على حق لأنه يعلم أن الموت منتظره والحساب يرتقبه.

ذكر الموت إذن هو كلمة السر، وليس معناه بأي حال من الأحوال اعتزال دنياك واتشاحها بلون السواد، وإنما معناه خوض غمارها باعتبارها مزرعة الآخرة وقاعة الامتحان التي نجتهد فيها لسعادة الغد ، وذلك بتسخير هذه الدنيا في طاعة الله وخدمة الخلق، لنودّع الحياة وقد تركنا أثرًا جميلاً وذكرًا حسنًا وعلامة فارقة من عمل صالح وخُلُق نبيل ومشروع نافع ومؤسسة رائدة وكتاب مفيد، ونحو ذلك من صنوف عمارة الأرض التي تمثِّل في حقيقتها رسوم دخول الجنة ، فإذا أدى بك ذكر الموت إلى عكس ذلك من وقف إنتاجك وانتهاء إبداعك وموت نفعك لإخوانك فقد أضر بك وما نفع.

---

(١) العاقبة في ذكر الموت ١/ ٩١.

3 دوام الذكر:

لقد ذكر الله كلمة الموت ومشتقاتها في القرآن الكريم أكثر من مائة وسبعين مرة، وكأن المطلوب منك ليس مجرد ذكر الموت بل مزيد الذكر، ودوام الذكر، وأثر الذكر، فلا تكن كساكني القبور الذين يشربون ويضحكون ويأكلون؛ دون أن يؤثر فيهم موت جديد بمقدار ذرة، ولا يحرك فيهم شعرة، واعلم أن أحياء القلوب بكل أطيافهم يذكرون الموت؛ أما المحب فإنه يذكر الموت دائمًا لأنه موعد لقاء حبيبه، والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب، وأما المجتهدون في العمل الساهرون في بذل الجهد فيذكرون الموت دائمًا ليقبضوا أجرهم ويودِّعوا تعبهم، وأما الراجون لعفوه الطامعون في كرمه فيذكرون الموت لتنهمر عليهم سحائب رحماته وبشائر إنعامه، وأما الخائفون من تقلب القلوب فيذكرون الموت خوفًا من تغير الحال وسوء الخاتمة والمآل.

وهي وصية الرسول ﷺ لنا: «**أكثروا ذكر هادم اللذات: الموت**»(١).

أي قاطعها من هدم البناء، فشبه اللذات الفانية والشهوات العاجلة ثم زوالها ببناء مرتفع ينهدم تحت وقع الصدمات المتتالية، ثم أمر المنهمك في بناء هذا الجدار بذكر وقوع الهدم حتى لا ينشغل بالبناء وينسى ما وراءه.

وهذا كلام مختصر وجيز وقد جمع التذكرة وأبلغ في الموعظة، فإن من ذكر الموت حقيقة ذكره نغَّص عليه لذته الحاضرة، ومنعه من محاولة نيلها في الحرام، وزهَّده في الدنيا الراحلة عن قريب، ولكن النفوس الراكدة والقلوب الغافلة تحتاج إلى تطويل الوعاظ وتزويق الألفاظ؛ وإلا ففيما ذكر من قوله - عليه الصلاة والسلام- الكفاية كل الكفاية.

وحين نقول الذكر نعني بذلك ذكر القلب ليس غير، لأن المريض إذا ذكر الموت بقلبه تبع ذلك كل ألوان الذكر الأخرى. قال الراغب:

«والذكر وجود الشيء في القلب أو في اللسان: وذلك أن الشيء له أربع وجودات: وجوده في ذاته، ووجوده في قلب الإنسان، ووجوده في لفظه، ووجوده في كتابته، فوجوده في

---

(١) صحيح: رواه الترمذي والنسائي عن ابن عمر كما في ص ج ص حديث رقم: ١٢١٠.

ذاته سبب لوجوده في القلب، ووجوده في القلب سبب لوجوده في اللسان ولوجوده في الكتابة»[(١)].

إن دوام ذكر الموت يجعل للعبادة طعمًا آخر في القلب، ووزنًا آخر في ميزان الأعمال؛ لأنها تخرج من قلب مُقبل على الآخرة معرِض عن شواغل الدنيا، والله يطلع على قلب العبد قبل أن يطلع على عمله، فإذا رأى فيه هذا ضاعف ثواب عمله حتى يسبق العبد كثيرًا من أصحاب الأعمال الكثيرة لكنهم عن ذكر الموت غافلون؛ لذا كان الأوزاعي يقول: «من أكثر ذكر الموت كفاه اليسير من العمل»[(٢)].

واتفق معه يحيى بن معاذ في الرأي إلا أنه أضاف عليه وزاد: «من أكثر ذكر الموت لم يمت قبل أجله، ويدخل عليه ثلاث خصال من الخير؛ أولها: المبادرة إلى التوبة، والثاني: القناعة برزق يسير، والثالث: النشاط في العبادة»[(٣)].

وأكثر الناس عرضة لنسيان الموت: أعلاهم مكانة وأشرفهم منزلة ؛ ممن خوَّلهم الله المناصب الدنيوية الرفيعة والألقاب الشرفية المزعومة؛ لذا كانوا أحوج الناس إلى من يهزهم بمواعظه ويتصدَّق عليهم بنصيحته، ولو كانوا الصحابة!!

عن أبي مسلم الخولاني أنه نادى معاوية بن أبي سفيان وهو جالس على منبر دمشق فقال : «يا معاوية!! إنما أنت قبر من القبور»[(٤)].

حدة السباق

سباقٌ رهيبٌ يجري بين أحياء القلوب وأمواتها، بين الذاكرين للموت والغافلين عنه، لكن كل منهم يجري عكس الآخر، فأحياء القلوب يركضون نحو الموت بذلاً وعملاً،

(١) فيض القدير ٢/ ٨٤.
(٢) حلية الأولياء ٦/ ١٤٣.
(٣) السابق ١٠/ ٦٦.
(٤) الزهد لأحمد ١/ ٣٩١.

وأموات القلوب يركضون بعيدًا عنه عجزًا وكسلاً، إلا أن خطى الأيام تجرفهم نحو الموت قسرًا على نحو مذل مهين، فلا الدنيا لهم بقيت، ولا الآخرة بهم سعدت.

وفي النهاية يلتقي الفريقان ويتقابل الضدان.. هناك.. تحت التراب وفي ظلمة القبر حيث الأفراح والأتراح، وقد أدرك ذلك جيدًا **سفيان الثوري** فكان يتمثل بأبيات **الأعشى** التي يروي فيها تفاصيل اللقاء ويصرخ بها صرخة النذير:

إذا أنت لم ترحل بزاد من التُّقى ... ولاقيتَ بعد الموت من قد تزوَّدا
ندمت على أن لا تكون كمثله ... وأنك لم ترصد بما كان أرصدا[1]

4 الدعوة:

إذا صاحب ذكر الموت تحذير الناس مما هم فيه من غفلة، وحثهم على العمل، والسعي إلى النجاة مما وراء الموت، فقد تضاعف أثر العلاج وعظم تأثيره في القلب، وانظروا كيف كانت هذه الدعوة صادقة خاصة لمن كان على فراش الموت يحتضر، إنها الدعوة التي أطلقها **يزيد الرقاشي** عند احتضاره، فأبى إلا أن يصدقنا النصيحة، وهل أصدق من رجل عاين الموت، ورُفِع عنه الحجاب، ورأى أولى مراحل الحساب، وأدار ظهره للدنيا واستقبل الآخرة، واسمعوا:

لما احتضر **يزيد الرقاشي** بكى فقيل له: ما يبكيك رحمك الله؟ فقال في أصدق لهجة بلا زيف أو تجمُّل: أبكي والله على ما يفوتني من قيام الليل وصيام النهار، ثم بكى وقال: «من يصلي لك يا يزيد؟! ومن يصوم؟! ومن يتقرب لك إلى الله بالأعمال بعدك؟! ومن يتوب لك إليه من الذنوب السالفة؟! ويحكم يا أخوتاه!! لا تغترن بشبابكم، فكأن قد حلَّ بكم ما حلَّ بي من عظيم الأمر وشدة كرب الموت، النجاء النجاء.. الحذر الحذر يا إخوتاه.. المبادرة رحمكم الله»[2].

---

(١) اقتضاء القول العمل ١/ ٩٨.
(٢) المحتضرين ص ١٤٥.

وتكررت النصيحة مع كل محتضر صالح من أمثال المغيرة بن حكيم، فعن عبد العزيز بن أبي رواد قال: دخلت على المغيرة بن حكيم في مرضه الذي مات فيه قلت: أوصني، فقال: «اعمل لهذا المضجع»[١].

ومن قبلهما أبو الدرداء ﷺ، فعن محمد بن قيس قال: «جاء رجل إلى أبي الدرداء وهو في الموت، فقال: يا أبا الدرداء!! عِظني بشيء لعل الله ينفعني به وأذكرك قال: إنك في أمة مرحومة.. أقم الصلاة المكتوبة، وآت الزكاة المفروضة، وصُمْ رمضان، واجتنب الكبائر أو قال المعاصي، وأبشر، فكأن الرجل لم يرض بها قال حتى رجَّع الكلام عليه ثلاث مرات، فغضب السائل وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]، ثم خرج الرجل، فقال أبو الدرداء: أجلسوني فأجلسوه قال: رُدُّوا على الرجل، فقال: ويحك!! كيف بك لو قد حُفِر لك أربع أذرع من الأرض، ثم غرقت في ذلك الجرف الذي رأيت، ثم جاءك فيه ملكان أسودان أزرقان منكر ونكير يفتنانك ويسألانك عن رسول الله ﷺ، فان ثبَتَّ فنعم ما أنت فيه، وإن كان غير ذلك فقد هلكت، ثم قمت على الأرض ليس لك إلا موضع قدميك ليس ثم ظل إلا العرش، فإن ظللت فنعم ما أنت فيه، وإن أضحيت فقد هلكت، ثم عرضت جهنم والذي نفسي بيده إنها لتملأ ما بين الخافقين، وإن الجسر لعليها، وإن الجنة لمن ورائها، فإن نجوت منه، فنِعْم ما أنت فيه، وإن وقعت فيها فقد هلكت، ثم حلف له بالله الذي لا إله إلا هو إن هذا لحق»[٢].

وعند النزع الأخير وبينما هو يجود بنفسه تحامل ﷺ على نفسه حتى استطاع أن ينطق بكلماته الأخيرة قبل الوداع: «ألا رجلٌ يعمل لمثل مصرعي هذا؟! ألا رجلٌ يعمل لمثل يومي هذا؟! ألا رجلٌ يعمل لمثل ساعتي هذه؟! ثم قُبِض»[٣].

لكن.. لماذا يدعو الإنسان عند موته فحسب؟! لماذا لا يستغل العافية التي يرفل فيها

---

(١) الحلية ٨/ ١٩٤.
(٢) الزهد ١/ ٥٥٤.
(٣) الثبات عند المات ص ١٢٩.

اليوم ليقرع جرس الإنذار في من حوله تحذيرًا لهم من الموت وعواقبه؟! لماذا لا يستفرغ طاقته في نصح أهله ومن يحب حتى يُختم له حياته بمثل هذه الخاتمة السعيدة: وهو يدعو؟!

أخي.. ألا تعظ الناس حتى ينزل بك ملك الموت؟!
ألا تحذِّرهم إلا مما ترى وتعاين؟!
ألا تنطق إلا والنائحات عليك يندبن والثكالى ينظرن؟!

إن الدعوة عند الاحتضار علامة حسن الخاتمة لكنها أصعب بكثير من الدعوة في العافية، «وإذا كان العبد في حال حضور ذهنه وقوته وكمال إدراكه قد تمكن منه الشيطان واستعمله بما يريده من المعاصي، وقد أغفل قلبه عن ذكر الله تعالى، وعطَّل لسانه من ذكره، وجوارحه عن طاعته، فكيف الظن به عند سقوطه قواه واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألم النزع؟!

وجمع الشيطان له كل قوته وهمته، وحشد عليه بجميع ما يقدر عليه لينال منه فرصته، فان ذلك آخر العمل، فأقوى ما يكون عليه شيطانك ذلك الوقت، وأضعف ما تكون أنت في تلك الحالة، فمن تري يسلم من ذلك؟!

فهناك ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم:٢٧]»[(١)].

5 قصر الأمل:

كلنا واقف في طابور الموت ينتظر، إلا أن طول الأمل عمَّ جموع الواقفين، وفارق كبير بين من باغتته مصيبة وهو متحسب لها، مترقب عواقبها، وبين من باغتته المصيبة وهو لاهٍ، فكيف إذا كانت تلك المصيبة هي أعظم المصائب وعواقبها أخطر العواقب، إنها مصيبة الموت، وعاقبتها النار لكل من غفل عنها واستهان بها ولم يتجهَّز لها.

من كان يعلم أن الموت مدركه   والقبر مسكنه والبعث مخرجه

---

(١) الجواب الكافي ١/ ٦٢.

وأنــــه بين جنــات ســـتبهجه يـــوم القيامة أو نار ســتضجه

فكل شيء سوى التقوى به سمج ومــا أقــام عليه منه أســمجه

ترى الذي اتخذ الدنيا لــه وطنــًا لم يــدرِ أن المنايا سوف تزعجه

إذا دفع ذكر الموت صاحبه إلى قصر الأمل وما يتبعه من استشعار قرب الرحيل، ودنو موعد الحساب، واقتراب مواجهة أسئلة الملكين في القبر، والتجهُّز ليوم العرض فقد حصل المطلوب وبلغنا المراد، لكن ما هو قصر الأمل؟ وكيف الوصول إليه؟!

يقول الإمام ابن القيم:

«فأما قصر الأمل: فهو العلم بقرب الرحيل، وسرعة انقضاء مدة الحياة، وهو من أنفع الأمور للقلب؛ فإنه يبعثه على معافصة الأيام، وانتهاز الفرص التي تمر مَرَّ السحاب، ومبادرة طَيِّ صحائف الأعمال، ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء، ويحثه على قضاء جهاز سفره، وتدارك الفارط، ويُزهِّده في الدنيا، ويُرغِّبه في الآخرة؛ فيقوم بقلبه - إذا داوم مطالعة قصر الأمل - شاهدٌ من شواهد اليقين يريه فناء الدنيا، وسرعة انقضائها، وقلة ما بقي منها، وأنها قد ترحلت مُدْبِرَة ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يتصابُّها صاحبها، وأنها لم يبق منها إلا كما بقي من يوم صارت شمسه على رؤوس الجبال، ويريه لقاء الآخرة ودوامها، وأنها قد رحلت مقبلة، وقد جاء أشراطُها وعلاماتها، وأنه من لقائها كمسافر خرج صاحبه يتلقاه، فكل منهما يسير إلى الآخر، فيوشك أن يلتقيا سريعًا.

وقصر الأمل بناؤه على أمرين: تيقن زوال الدنيا ومفارقتها، وتيقن لقاء الآخرة وبقائها ودوامها، ثم يقايس بين الأمرين، ويؤثر أولاهما بالإيثار»[(١)].

سبق وأن قام بهذه المقايسة سفيان الثوري ثم صاغها في بيت من الشعر كان كثيرًا ما يتمثل به:

باعوا جديدًا جميلاً باقيًا أبدًا بدارسٍ خَلَقٍ يا بئس ما اتَّجروا[(٢)]

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٤٥٠.

(٢) حلية الأولياء ٧/ ٥.

يا طويل الأمل.. يا كثير الزلل.. يا عظيم الكسل.. يا عديم الوجل.. الإفاقة الإفاقة قبل نزول الفاقة، فما أطلق عبد العنان لأمله إلا عثر في الطريق بأجله، وإن غاب عن ذهنك الموت فيسأتي ما يذكّرك به لا محالة، كان أبو بكر الصديق إذا أخذته الحمى يقول:

كل امرئ مصبَّحٌ في أهله والموت أدنى من شراك نعله

انتبه.. انتبه؛ فإن اللص حين يريد سرقة مالك يشغلك بأمر آخر؛ حتى يسرق ما في جيبك، وكذلك الشيطان حين يريد إهلاكك، يحاول إغراقك في زحمة الأحداث الدنيوية والأعباء المعيشية ليسرق منك عمرك!! وهل يملك العبد منا زادًا عند الله يوم القيامة سوى ما قدّم من عمل أثناء عمره؛ فإن سرقه الشيطان منك فبماذا تقدم على ربك؟!

سهوتُ وغرَّني أملي وقد قصَّرت في عملي
ومنزلة خُلِقتُ لها جعلتُ لغيرها شغلي
يظل الدهر يطلبني ويمضي بي على عجل
فأيامي تقرِّبني وتُدنيني من الأجل

طول الأمل في الشباب منقصة لكنه في الشيب عار، طول الأمل في الشباب له ما يبرره أما عند الشيوخ وعلى مشارف القبر فلا عذر لصاحبه.. فيا هذا.. «يا من يجمع العيب إلى الشيب.. لا الماء بارد ولا الكوز نظيف»(١)..

يا من شاب في الإسلام.. إذا قرع الشيب بابك فقد استأذن عليك ملك الموت وزارك، لأن الشيب مؤذن الرحيل، ألا فانتبه..

ألا فامهد لنفسك قبل موت فإن الشيب تمهيد الحمام
وقد جدَّ الرحيل فكن مُجِدًّا بحَطِّ الرَّحل في دار المقام

يا من استأنس بظل زائل عن قريب:

اعلم أن الطريق إلى قبرك بعدد أنفاس عمرك، وأن الدنيا قنطرة نحو الآخرة، ومنا من

(١) المدهش ص ٣٩٠.

قطع نصف القنطرة، ومنا من قطع ثلاثة أرباعها، ومنا من لم يبق له على القنطرة إلا خطوة واحدة وهو لا يدري؛ يزيِّن القنطرة ويجدِّدها وهو لا يدرك أنه واقف على حافتها يوشك أن يسقط منها إلى القبر، ونادرًا ما يدرك طويل الأمل سراب أمله إلا عند هجوم أجله، وهنا يستحيل حلو العيش مرًّا، ويعلم المخدوع أن الباقيات الصالحات أنفع ذُخرًا، فليس في الدنيا مقيل ولا عليها تعويل، فبالله كيف يطمع عاقل في الإقامة في دار رحيل؟!

كيف نتنافس فيه؟!

اعلم أن المرضى يتفاوتون في قصر الأمل وطوله، فأطولهم أملاً المشركون الذين قال الله فيهم: ﴿ **يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ** ﴾ [البقرة: ٩٦]، وأقصر منهم أملاً من يأمل البقاء إلى آخر المشيب وهو أقصى عمر شاهده في حياته ورأى أهله، ومنهم من يأمل البقاء إلى سنة مقبلة، ومنهم من قصر أمله إلى إلى أن يصل إلى يوم واحد أو بعض يوم كما في وصية عبد الله بن عمر ﷺ: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء»، وهي عصارة فهمه لحديث النبي ﷺ حين أخذ بمنكبيه وقال له: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**»(١).

لكن لماذا الغريب وعابر السبيل على وجه التحديد وليس غيرهما؟!

والجواب: الغريب يسكن دار الغربة لكن قلبه دائمًا متعلق بوطنه مشتاق إليه، فلا يعلِّق قلبه بشيء من هذا البلد الغريب عنه، لأن إقامته فيه مؤقتة حتى يفرغ من حاجته فيعود إلى مستقره على الفور، وكذلك المؤمن غريب عن هذه الدنيا مشتاق إلى الجنة، والغريب دائمًا قليل الانبساط إلى الناس مستوحش، لا يكاد يمرُّ بمن يعرف فيأنس به.

أما عابر السبيل فهو أصعب من الغريب حالاً وأقصر منه أملاً، وهو المسافر الذي يمر كل ليلة على مكان يبيت فيه فقط لكونه على طريقه، فهو ليلة في بيت صاحب له، وليلة في بيت من بيوت الله، وليلة لا يجد مكانًا ينام فيه إلا جانب الطريق يفترش فيه الأرض ويلتحف السماء، وهو لهذا خفيف الأحمال لأن سفره شاق طويل لا يقطعه إلا المُخِفّون.

---

(١) صحيح: رواه البخاري وأحمد والترمذي وابن ماجة عن ابن عمر كما في ص ج ص حديث رقم: ٤٥٧٩.

قال الحافظ ابن حجر: «عابر السبيل هو المار على الطريق طالبًا وطنه، فالمرء في الدنيا كعبد أرسله سيده في حاجة إلى غير بلده، فشأنه أن يبادر بفعل ما أُرسِل فيه، ثم يعود إلى وطنه ولا يتعلق بشيء غير ما هو فيه»(١).

ورسول الله ﷺ حين أوصى عبد الله بن عمر ﷺ أوصى معه كل من يحب من أمته بأن لا يرضى لقلبه في الدنيا إلا إحدى هاتين الحالتين: إما الغربة وإما حال عابر السبيل، وهز النبي ﷺ عبد الله بن عمر هزًّا حين أمسك بمنكبيه وكأنه يلقِّنه ويحفِّظه هذه الوصية لأهميتها وخطورتها وأثرها في حياة القلب إن روعيت وموته إن أُهمِلت، لكن ما معنى «أو» في هذه الوصية؟!

قال الطيبي: «ليست «أو» للشك بل للتخيير والإباحة، والأحسن أن تكون بمعنى بل، فشبَّه الناسك السالك بالغريب الذي ليس له مسكن يأويه، ولا مسكن يسكنه، ثم ترقَّى وأضرب عنه إلى عابر السبيل؛ لأن الغريب قد يسكن في بلد الغربة بخلاف عابر السبيل القاصد لبلد شاسع، وبينهما أودية مردية ومفاوز مهلكة وقطاع طريق، فإن من شأنه أن لا يقيم لحظة ولا يسكن لمحة»(٢).

والتشابه بين حال الإنسان في الدنيا وحال الغريب أو عابر السبيل واضح بيِّن وهو أن كلاهما على سفر، فإن «الناس منذ خلقوا لم يزالوا مسافرين، وليس لهم حطٌّ عن رحالهم إلا في الجنة أو النار، والعاقل يعلم أن السفر مبني على المشقة وركوب الأخطار، ومن المحال عادة أن يُطلب فيه نعيم ولذة وراحة، إنما ذلك بعد انتهاء السفر، ومن المعلوم أن كل وطأة قدم أو كل آن من آنات السفر غير واقفة، ولا المكلف واقف، وقد ثبت أنه مسافر على الحال التي يجب أن يكون المسافر عليها من تهيئة الزاد الموصل، وإذا نزل أو نام أو استراح فعلى قدم الاستعداد للسير»(٣).

فهذه مراتب الناس في الأمل وهي كما ترى تتفاوت تفاوتًا شاسعًا، ولكل منهم درجة عند الله، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، وصدق أبو حامد الغزالي وهو يقرِّر ذلك في قوله:

---

(١) فتح الباري ١١/ ٢٣٤.
(٢) فتح الباري ١١/ ٢٣٤.
(٣) الفوائد ١/ ١٩٠.

«وليس من أمله مقصور على شهر كمن أمله شهر ويوم؛ بل بينهما تفاوت في الدرجة عند الله، فإن الله لا يظلم مثقال ذرة، ومن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره»[(١)].

وقد وعى عبد الله بن عمر ﷺ الدرس جيدًا؛ لذا أوصانا بعد روايته لهذا الحديث أن نختار مرتبة من أعلى مراتب قصر الأمل وأشرفها؛ بحيث لا نغفل عن الموت ليلاً أو نهارًا، فإن حدث وعشنا إلى المساء شكرنا الله على توفيقه لنا في طاعته نهارًا، وإن حدث وعشنا إلى الصباح شكرناه على مثل ذلك من الليل، وذلك كل يوم.

إذا أمسيتَ فابتدر الفلاحا   ولا تُهمِله تنتظر الصباحا
وتُب مما جنيتَ فكم أناسٍ   قضوا نحبًا وقد باتوا صحاحا

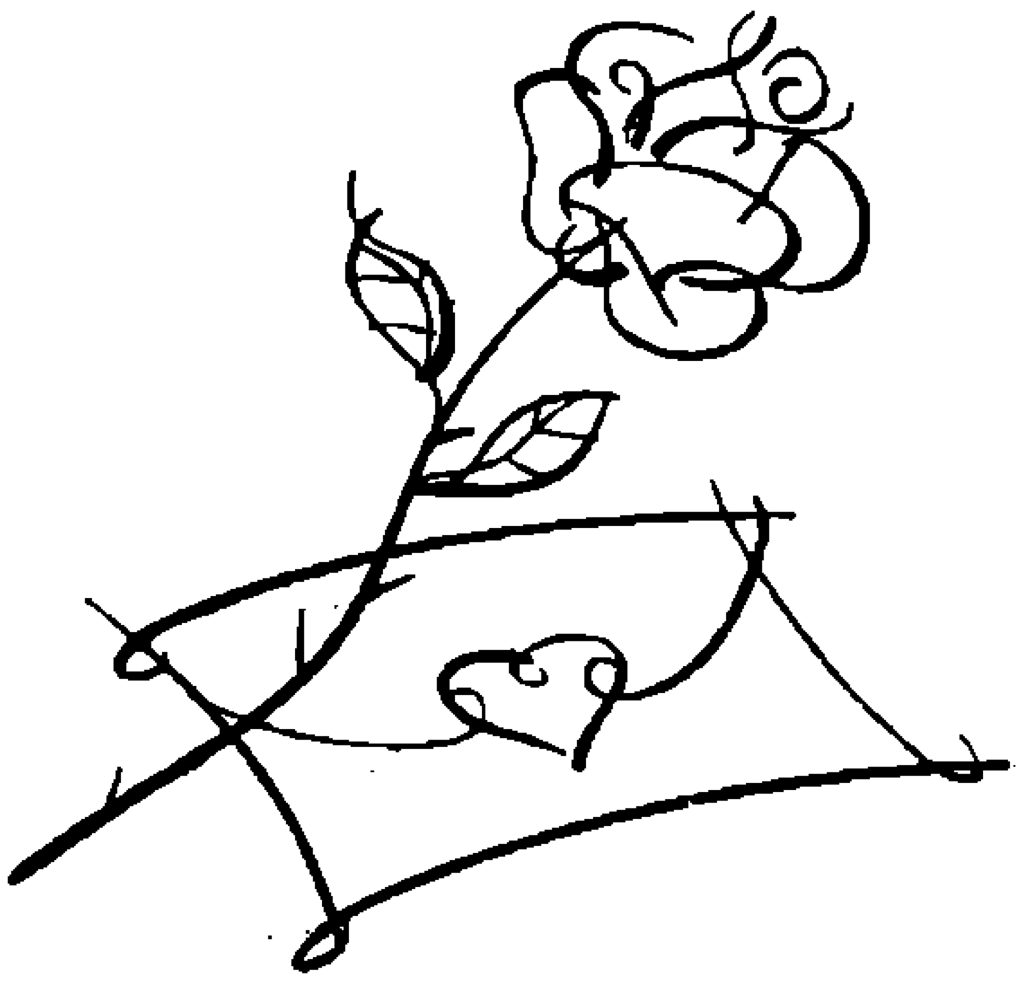

(١) الإحياء ٤/ ٤٥٨.

ثامناً: النظرة الثاقبة

فضل التفكر

هي عبادة جليلة وجرعة ثمينة ذات شأن عظيم، إلا أنها للأسف ضمرت واضمحلَّت في هذا الزمان، حتى كادت تُنسى وسط زحمة الحياة المضطربة، وذلك على الرغم من نجاعتها في العلاج، وقوتها في التأثير، لكنها تحتاج إلى سكينة نفس قد لا يملكها الكثيرون، وفراغ وقتي وعقلي ورُقي روحي يشكو من ندرته المشغولون، وما أقل من اعتبر، وما أندر من اتعظ وادَّكر، واسمعوا قول أطباء القلوب:

قال ابن القيم وهو يتكلم عن:

«فضل التفكر وشرفه، وأنه من أفضل أعمال القلب وأنفعها له؛ حتى قيل: تفكر ساعة خير من عبادة سنة، فالفكر هو الذي ينقل من موت الفطنة إلى حياة اليقظة، ومن المكاره إلى المحاب، ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة، ومن سجن الدنيا إلى فضاء الآخرة، ومن ضيق الجهل إلى سعة العلم ورحبه، ومن مرض الشهوة والإخلاد إلى هذه الدار إلى شفاء الإنابة إلى الله والتجافي عن دار الغرور، ومن مصيبة العمى والصمم والبكم إلى نعمة البصر والسمع والفهم عن الله والعقل عنه، ومن أمراض الشبهات إلى برد اليقين وثلج الصدور، وبالجملة؛ فأصل كل طاعة إنما هي الفكر، وكذلك أصل كل معصية إنما يحدث من جانب الفكرة»[1].

ولأثره الناجع في علاج القلب من أدوائه جزم ابن عطاء:

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ١٨٣.

«ما نفع القلبَ مثل عُزلة يدخل بها ميدان فكرة».

وتابعهما **الغزالي** في سرد فضائل التفكر والإشادة به فقال:

«ولا يخفى أن الفكر هو مفتاح الأنوار ومبدأ الاستبصار، وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم، وأكثر الناس قد عرفوا فضله ورُتْبَتَه؛ لكن جهلوا حقيقته وثمرته ومصدره ومورده ومجراه ومسرحه وطريقه وكيفيته»(١).

اللهم لا تجعلنا من أكثر هؤلاء الناس ونحن لا نعلم!!

ولدوره العظيم ومكانته الرفيعة بين سائر العبادات؛ جعله **سعيد بن المسيب** هو العبادة. قال **مالك**: سمعت **يحيى بن سعيد** يقول: أول من صلى في المسجد بين الظهر والعصر **عبد الملك بن مروان وفتيان معه**، كانوا إذا صلى الإمام الظهر قاموا فصلوا إلى العصر، فقيل لسعيد بن المسيب: لو قمنا فصلينا كما يصلي هؤلاء، فقال سعيد: «ليست العبادة بكثرة الصلاة ولا الصوم، إنما العبادة التفكر في أمر الله، والورع عن محارم الله»(٢).

وسبب آخر لشرف التفكر وفضله، وهو قول الإمام **ابن القيم**: «لأن الفكرة عمل القلب، والعبادة عمل الجوارح، والقلب أشرف من الجوارح، فكان عمله أشرف من عمل الجوارح»(٣).

فلكل عضو من أعضاء الجسد عمل، ويقوم بدور وينشغل بوظيفة، فإن كانت عيون المتقين تبكي؛ فإن قلوبهم تتفكر. قال **أبو سليمان الداراني**: «عوِّدوا أعينكم البكاء وقلوبكم التفكر»(٤).

من أجل ذلك عدَّه خامس الخلفاء ودرة الأمراء **عمر بن عبد العزيز** أفضل أنواع العبادات فقال: «الفكرة في نعم الله – عز وجل– من أفضل العبادة»(٥).

---

(١) الإحياء ٤/ ٤٢٣.
(٢) أخرجه الذهبي في تاريخ الإسلام.
(٣) مفتاح دار السعادة ١/ ١٨٦-١٨٧.
(٤) حلية الأولياء ٩/ ٢٧٤.
(٥) الإحياء ٤/ ٤٢٥.

وهو شرط الانتفاع بالعلم عند شقيق البلخي الذي جزم بقوله:

«ولو أن رجلا كتب جميع العلم لم ينتفع به حتى يكون فيه خصلتان: حتى يكون فعله التفكر والعبر؛ قلبه فارغا للتفكر وعينه فارغة للعبر، كلما نظر إلى شيء من الدنيا كان له عبرة، المؤمن مشغول بخصلتين، والمنافق مشغول بخصلتين، المؤمن بالعبر والتفكر، والمنافق مشغول بالحرص والأمل»[١].

ولفضله كان أكثر عبادة أبي ذر، فعن محمد بن واسع أن رجلاً من أهل البصرة ركب إلى أم ذر بعد موت أبي ذر فسألها عن عبادة أبي ذر فقالت: «كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكر»[٢].

ومن ثمرات التفكر أن الفكرة تلد الفكرة ثم الفكرة تلو الفكرة وهلم جرًّا، وتوالد الأفكار بالاتفاق هو منبع الحكمة. قال الحسن: «إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر، وبالفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم؛ فنطقت بالحكمة»[٣]، ومن كلام الشافعي: «استعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الاستنباط بالفكرة»[٤].

ومن ثمراته التوبة، لأن من تفكَّر فقد صنع مفتاحًا مباركًا يفتح به باب الرحمة الإلهية ليدخل بإذن الله ساحة الغفران مأجورًا مرحومًا، لأنه يتفكر في ذنوبه وجرائمه التي ارتكبها في حق نفسه وحق ربه، ويدرك عندها العواقب ويزداد يقينا بالجزاء فيبكي ويقلع ويتوب. قال سفيان ابن عيينة: «التفكر مفتاح الرحمة، ألا ترى أنه يتفكر فيتوب»[٥].

لذا كانت مجالس التفكر أشهى مجالس المؤمنين وأحلى لحظات العاقلين. قال يحيى بن معاذ الرازي وقد سئل: أي مجلس أشهى و ألذ؟ قال: «الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد

---

(١) حلية الأولياء ٣/ ٣٨١

(٢) الإحياء ٤/ ٤٢٤.

(٣) الإحياء ٤/ ٤٢٥.

(٤) السابق ٤/ ٤٢٥.

(٥) الحلية ٧/ ٣٠٦.

تُشمُّ من رائحة المعرفة وتُسقى من كأس المحبة، سبحان الله ما ألذه من مجلس! وأعذبه من شراب!»(١).

أول طريق النبوة

مع سن السابعة والثلاثين بدأ الرسول ﷺ ينطلق إلى غار حراء، بعد أن حبَّب الله تعالى إليه الخلوة فيه، فكان يخلو بنفسه في شهر رمضان يتحنث، حتى فجأه الوحي بعد ثلاث سنوات، ليلقي على قلبه: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق: ١] .

فما هو هذا الغار؟ وأين موقعه؟ ولماذا كان اختيار الله سبحانه وتعالى له؟ وما نوع التحنث الذي كان يقوم به النبي ﷺ في الغار؟ وما هي الحكمة المستفادة والدرس العملي من وراء ذلك؟!

يقع غار حراء في جبل النور، وهو غار ضيق يتسع لبضعة رجال يصلون فيه ويجلسون، وموقع الغار يشير إلى حكمة الله البالغة في اختياره، ليكون مكان خلوة الرسول ﷺ قبل البعثة، فهو بعيد عن كفار مكة وأصنامها، وبعيد عن مجالس اللهو وإفسادها، وشواغل الدنيا وإلهائها، وضجة الحياة وصخبها، وهموم الناس الصغيرة وتفاهاتها.

ومن جهة أخرى فإنه يُشرِف على الكعبة المشرَّفة؛ كأنه يربط قلب محمد ﷺ بأطهر بقعة على وجه الأرض، ويأخذ به إلى عالم التوحيد الخالص لله رب العالمين من خلال عبادة التفكر، وقد حقق الرسول محمد ﷺ هذا الترابط الوثيق بينه وبين الكعبة، فكان أول ما يفعله بعد تركه للغار هو الطواف بالبيت، ثم يرجع إلى بيته، ليختم فترة طوافه القلبي -وهو التفكر- بطواف جسده حول الكعبة، ليجتمع له مع صفاء القلب طهارة القالب.

وغار حراء يُشرِف كذلك على جبال مكة؛ التي تبدو للناظر إليها من الغار لأول وهلة وكأنها راكعة ساجدة لخالق هذا الكون العظيم، ليلقي هذا المشهد في النفس رهبة يرتجف لها القلب تبجيلاً وتوقيرًا للخالق سبحانه، ويجدِّد مشاعر التقديس والتعظيم للحق سبحانه، ويثير في الشعور الإحساس بالقدرة الإلهية الفائقة في هذا الوجود.

---

(١) شعب الإيمان ١/ ٣٧٤.

وفي هذا الجو الساكن الهادئ وبين حنايا هذا الموقع الفريد، صفا قلب **محمد** ﷺ، وتحرَّرت روحه من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، وتهيَّأ قلبه لاستقبال وحي السماء، وتلقى بذور النبوة، وتباشير الرسالة، وكأن المنح الإلهية والأعطيات الربانية لا تُوزَّع بالمجان، ولا تتنزل إلا قلب صفا بالتفكر وسما بطول التأمل.

أنواع التفكر الثمانية

1 التفكر في الآخرة:

وأول التفكر العلم، والمقصود به العلم بأحوال الآخرة، وأهوال القيامة، وصفة الصراط، وساحة العرض يوم الحشر، ورهبة الموقف يوم الفزع، وعذاب النار، ونعيم الجنة، لكن.. أنَّى لرجل أن يتفكر في مجهول لا يعلم عنه شيئا؟!

إنها الحياة بروحك في أحداث المستقبل القريب وتفاصيل الغيب الرهيب، ومن عاش فيها اليوم متفكِّرًا في هذه الأحداث كانت عليه غدًا بردًا وسلامًا، ومن لم تمر على خاطره اليوم فوجئ بهولها يوم أن يلقاها.

إن برنامج أي رحلة ترفيهية في هذا الدنيا قد يناسبك فتشترك فيها أو لا تشترك، لكن الأمر مع هذه الرحلة الإجبارية مختلف، فلا مجال للاختيار، والبرنامج ثابت لا يتغيَّر، وأحداثها جسام تحتاج إلى عزائم رجال.

وقد أعاننا على تصور الموقف وتخيله ابن القيم -رحمه الله- في مشهد تصويري رهيب ليوم القيامة ووقائعه، وهو يكاد يكون ثلاثي الأبعاد لدقته، وشديد الوقع على القلب لصدقه وجدَّته:

«فإذا صحت فكرته أوجبت له البصيرة فهي نور في القلب، يبصر به الوعد والوعيد، والجنة والنار، وما أعد الله في هذه لأوليائه وفي هذه لأعدائه، فأبصر الناس وقد خرجوا من قبورهم مهطعين لدعوة الحق، وقد نزلت ملائكة السماوات فأحاطت بهم، وقد جاء الله وقد نصب كرسيه لفصل القضاء، وقد أشرقت الأرض بنوره ووضع الكتاب وجيء بالنبيين

والشهداء، وقد نُصب الميزان، وتطايرت الصحف، واجتمعت الخصوم، وتعلق كل غريم بغريمه، ولاح الحوض وأكوابه عن كثب، وكثر العطاش، وقل الوارد، ونصب الجسر للعبور، ولاذ الناس إليه، وقسمت الأنوار دون ظلمته للعبور عليه، والنار يحطم بعضها بعضًا تحته، والمتساقطون فيها أضعاف أضعاف الناجين، فتنفتح في قلبه عين يرى بها ذلك ويقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة يريه الآخرة ودوامها والدنيا وسرعة انقضائها»[(١)].

وقد كان التفكر في الآخرة يأخذ وقتًا طويلاً عند أنقياء القلوب أصفياء النفوس؛ حتى قدَّم بعضهم عبادة التفكر على عبادة قيام الليل، فعن **يوسف بن أسباط** قال لي **سفيان** بعد العشاء: ناوِلني المطهرة- الإناء الذي يتوضأ به- فناولته، فأخذها بيمينه ووضع يساره على يده، فبقي مفكرًا، ونمت ثم قمت وقت الفجر، فإذا المطهرة في يده كما هي، فقلت: هذا الفجر قد طلع، فقال: «لم أزل منذ ناولتني المطهرة أتفكَّر في الساعة!!»[(٢)].

وهذا التأمل يتناول الرحلة الأخروية بتفاصيلها وجميع مراحلها؛ ولذا قال **عبد الله بن المبارك** يومًا **لسهل بن عدي** وقد رآه ساكتًا متفكرًا: أين بلغت؟ قال: «الصراط!»[(٣)].

2 التفكر في عظمة الخلق:

قال **عطاء**: انطلقت يومًا أنا وعبيد بن عمير إلى **عائشة** -رضي الله عنها- فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب، فقالت: يا عبيد.. ما يمنعك من زيارتنا؟ قال: قول رسول الله ﷺ: «**زر غبًّا؛ تزدد حبًّا**». قال **ابن عمير**: فأخبرينا بأعجب شيء رأيتيه من رسول الله ﷺ، قال: فبكت وقالت: كل أمره كان عجبًا، أتاني في ليلتي ثم قال: ذريني أتعبد لربي عز وجل، فقام إلى القربة فتوضأ منها، ثم قام يصلي فبكى حتى بلّ لحيته ثم سجد حتى بلّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه حتى أتاه بلال يؤذنه بصلاة الصبح، فقال: يا رسول الله.. ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال:

---

(١) مدارج السالكين ١/ ١٢٣.

(٢) صفة الصفوة ٣/ ١٤٨، ١٤٩.

(٣) إحياء علوم الدين ٤/ ٤٢٥.

لقد أنزلت عليّ الليلة آيات، ويلٌ لمن قرأها ولم يتدبر فيها، أو كما قال عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»(١).

وقد كان النبي ﷺ يقرؤها كل ليلة كلما قام لصلاة الليل، أجل كل ليلة، وكأنه يستشعر أن الكون كله بسماواته وأرضه وليله ونهارة قام في هذا الوقت من الليل يسبِّح الله ويذكره، وما هو بصلاته إلا متناغم مع الطبيعة، سائر في ذات الركب.

وهذا التفكر في بديع صنع الله له ثمرة ما بعدها ثمرة، وأثر يمحو كل أثر، ألا وهو الوقاية من الذنوب في المستقبل لأنه يلقي في النفس تعظيم الخالق ويبعث في النفس المهابة منه والوجل، يقول بشر بن الحارث: «لو تفكر الناس في عظمة الله ما عصوا الله عز وجل»(٢).

ولأثره العظيم ودوره المدهش تعجَّب إقبال غاية التعجُّب ممن لم يُجْلِ بنظره في الكون، ولم يعطِ نفسه حظها من هذا المعين الإيماني العذب، ولم يُطعم روحه هذا المطعم الشهي، فانطلق يقرِّر:

كل ما في الكون من بحر وبر ... لوح تعليم لأرباب النظر
أيها المقصود من قول انظروا ... كيف في آفاقها لا تنظر(٣)

إن إدامة النظر في عظمة هذا الكون كافٍ لإزالة مرض الشك في القلب، وحسم الصراع النفسي مع الشيطان إن وُجِد، وزيادة اليقين بالخالق، وزرع التواضع لله في النفس، والخضوع لأمره، وينزع كذلك فتيل الإعجاب المهلك قبل أن ينفجر مخلِّفًا الهلاك والدمار، وكل هذا دون حاجة إلى إطالة واعظ أو براعة خطيب، وهو ما ترجمه شوقي شعرًا فقال:

تلك الطبيعة قف بنا يا ساري ... حتى أُريك بديع صنع الباري
الأرض حولك والسماء اهتزَّتا ... لروائع الآيات والآثار
من كل ناطقة الجلال كأنها ... أمُّ الكتاب على لسان القاري
دلَّت على ملك الملوك فلم تدع ... لأدلة الفقهاء والأحبار

---

(١) صحيح: صححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم: ٦٨.
(٢) الحلية ٨/ ٣٣٧.
(٣) ديوان الأسرار والرموز ص ١٢٩.

من شكَّ فيه فنظرة في صنعه تمحو عظيم الشك والآثار[1]

إن تكرار النظر في اللوحة الجميلة يومًا بعد يوم قد يُفقد الإنسان الإحساس بروعتها، ويُعمي الأبصار عن آيات الجمال فيها، لكن تنوع الألوان، وتعدد أنواع الجمال في الكون كفيل بإزالة أي سآمة أو ملل.

قل للجنين يعيش معزولاً بلا — راعٍ ومرعى ما الذي يرعاكا؟
قل للوليد بكى وأجهش بالبكا — عند الولادة ما الذي أبكاكا؟
وإذا ترى الثعبان ينفث سمه — فاسأله من ذا بالسموم حشاكا؟
واسأله كيف تعيش يا ثعبان أو — تحيا وهذا السم يملأ فاكا؟
واسأل بطون النحل كيف تقاطرت — شهدًا وقل للشهد من حلاّكا؟
بل سائل اللبن المُصَفّى كان بين — دم وفرث من الذي صفّاكا؟
وإذا رأيت الحي يخرج من ثنايا — ميت فاسأله من أحياكا؟
قل للهواء تحسه الأيدي ويخفى — عن عيون الناس من أخفاكا؟
وإذا رأيت البدر يسري ناشرًا — أنواره فاسأله من أسراكا؟
وإذا رأيت النخل مشقوق النوى — فاسأله من يا نخل شق نواكا؟
وإذا رأيت النار شبَّ لهيبها — فاسأل لهيب النار من أوراكا؟
وإذا ترى الجبل الأشم مناطحًا — قمم السحاب فسله من أرساكا؟
وإذا ترى صخرًا تفجَّر بالمياه — فسله من بالماء شق صفاكا؟
وإذا رأيت النهر بالعذب الزلال — جرى فسله من الذي أجراكا؟
وإذا رأيت البحر بالملح الأجاج — طغى فسله من الذي أطغاكا؟
وإذا رأيت الليل يغشى داجيًا — فاسأله من يا ليل حاك دجاكا؟
وإذا رأيت الصبح يُسفر ضاحيًا — فاسأله من يا صبح صاغ ضحاكا؟
هذي العجائب طالما أخذت بها — عيناك وانفتحت بها أذناكا
والله في كل العجائب مُبْدع — إن لم تكن لتراه فهو يراكا

---

(١) الشرقيات ٢/ ٣٦.

3 التفكر في عيوب النفس:

قال الفضيل مبيِّنًا هذه الثمرة من ثمرات التفكر: «الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك».

إنها ليست تربية الزهاد والعباد فحسب، بل تربية الأمراء وتهذيب الخلفاء كذلك على مكارم الأخلاق وفضائل الخصال، فقد كان الخليفة أبو جعفر المنصور يقول لابنه المهدي أمير المؤمنين: «يا أبا عبد الله!! إذا أردت أمرًا ففكِّر فيه، فإن فكرة العاقل مرآته تريه حسنه وسيئه»[١].

والتفكر في النفس يشمل التفكر في عيوبها ونقائصها، والتفتيش عن مواضع الفجور فيها، ولا يمكن عمل أي تقويم أو تصحيح وتحسين إلا بعد هذا التفكر الصادق، وما أكثر الصفات السيئة التي قد يُبتلى بها المرء: غضوب.. حاد الطبع.. عجول.. عصبي.. جبان.. ظلوم.. معتدي.. بصير بعيوب غيره.. أعمى عن عيوب نفسه.. يفتري الكذب.. يقع في أعراض الخلق.. وهكذا.

إنها جلسات التفكر اليومية والمحاسبة الدورية؛ تنظر فيها إلى المرآة الإيمانية لترى الصورة نفسك على حقيقتها دون تزييف أو تزيين، في غيبة من خديعة الناس لك بثنائهم عليك؛ إذ لا يرون غير ظاهرك، وخديعتك أنت لنفسك أن ترى حسناتها دون سيئاتها، وتنظر إلى من هو أدنى منك دينًا وخلقًا، ولا يتم هذا الاستشفاء إلا في لحظة مكاشفة ومصارحة لمن أراد الله له الخير والعافية.

4 التفكر في عواقب الأمور:

وهو تفكُّر أوجبه الله على عباده قبل القيام بأي عمل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ [الحشر: ١٨]، وهو توطئة لعمل الخير أو الشر كما قال ابن عباس: «التفكر في الخير يدعو إلى العمل به، والندم على الشر يدعو إلى تركه»[٢].

---

(١) شعب الإيمان ٦/ ٦٥.

(٢) السابق ٤/ ٤٢٥.

قال ابن القيم شارحًا مستفيضًا:

«إذا فكَّر في عواقب الأمور، وتجاوز فكره مبادئها وضعها مواضعها وعلم مراتبها، فإذا ورد عليه وارد الذنب والشهوة، فتجاوز فكره لذّة وفرح النفس به إلى سوء عاقبته، وما يترتب عليه من الألم والحزن الذي لا يقاوم تلك اللذّة والفرحة، ومن فكَّر في ذلك فإنه لا يكاد يُقدِم عليه.

وكذلك إذا ورد على قلبه وارد الراحة والدَّعة والكسل والتقاعد عن مشقّة الطاعات وتعبها؛ حتى عبر بفكره إلى ما يترتب عليها من اللذّات والخيرات والأفراح التي تغمر تلك الآلام في مبادئها بالنسبة إلى كمال عواقبها، وكلما غاص فكره في ذلك اشتد طلبه لها وسهل عليه معاناتها، واستقبلها بنشاط وقوة وعزيمة»[(١)].

بل حتى وإن كان العمل صالحًا وخرج من دائرة السوء، فلابد لك من التفكر في النية فيه والغرض من ورائه، حتى لا يشوبه رياء محبط أو عجب مهلك، وحتى إن برئ القلب من هذه الآفات، كان من النافع له غاية النفع أن يتفكَّر تفكُّرًا يدفعه إلى تعديد نواياه الصالحة ومضاعفتها حتى يضاعف الله له أجره في مقابل هذا أضعافًا مضاعفة.

5 التفكر في كل ما حولك:

ولنا خير قدوة وأعظم أسوة في رسول الله ﷺ بموقفين أستشهد بهما على سبيل المثال لا الاستقصاء:

الأول:

مشهد سباق إبل!!

عن أنس ﷺ قال: كانت ناقة لرسول الله ﷺ تُسمَّى العضباء، وكانت لا تُسبق فجاء أعرابي على قعود له فسبقها، فاشتد ذلك على المسلمين، فقال رسول الله ﷺ: «إن حقًّا على الله:

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ١٨٦، ١٨٧.

أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه»(١).

وماذا يستفيد المرء من سباق ومرح وتنافس وفرح؟! لكن قلب النبي ﷺ ليس أي قلب؛ لذا وسط هذا الموقف يقتنص قلبه ﷺ هذا الدرس البليغ، ويربط الحدث العابر بالحكمة الدائمة والدرس الخالد، إنه التفكر الذي ينظر في أحداث الحياة اليومية بمنظار دقيق وعدسة مكبِّرة، فيرى ما وراء الحدث، وينظر إليه بروحه لا بعينه، ويبصر بقلبه مع بصره، وكلما سمت روح المرء وطهر قلبه رأى ما لا يراه الآخرون، وانتفع بما حُرِم منه الغافلون، متربصًا بكل حادث يربطه بربه ويوصله إليه.

الثاني:

مشهد امرأة مرضع!!

عن **عمر بن الخطاب** ﷺ قال: قدم على النبي ﷺ سبي فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسعى، إذ وجدت صبيًّا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: «**أترون هذه طارحة ولدها في النار؟**»، فقلنا: لا وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال: «**لله أرحم بعباده من هذه بولدها**»(٢).

وانتفع ابن الجوزي بهذين الموقفين وغيرهما من سيرة النبي ﷺ، ثم خرج بما يلي:

«لو صفت لك فكرة كان لك في كل شيء عبرة، كل المخلوقات بين مخوِّف ومشوِّق، حر الصيف يُذكِّر حر جهنم، وبرد الشتاء محذِّر من زمهريرها، والخريف يُنبِّه على اجتناء ثمار الأعمار، والربيع يحثُّ على طلب العيش الصافي»(٣).

وعاش رجالات السلف الصالح هذه المواقف، وبرهنوا على صدق اتباعهم لنبيهم واقعًا عمليًّا ومواقف يومية، فهذا **عطاء السلمي** نسج ثوبًا فأحكمه وحسَّنه، ثم حمله إلى السوق، فعرضه فاسترخصه البزَّاز (الخيَّاط)، وقال: إن فيه عيوبًا كيت وكيت، فأخذه عطاء وجلس

---

(١) رواه البخاري وهو في السلسلة الصحيحة رقم: ٣٥٢٥.
(٢) رواه الشيخان عن عمر بن الخطاب كما في اللؤلؤ والمرجان رقم: ١٧٥١.
(٣) المدهش ص ٣٩١.

يبكي بكاء شديدًا، فندم الرجل على ذلك، وجعل يعتذر إليه، ويبذل له في ثمنه ما يريد، فقال عطاء: «ليس ذلك ما تظن؛ إنما أنا عامل في هذه الصناعة، وقد اجتهدت في إصلاح هذا الثوب وإصلاحه وتحسينه حتى لا يوجد به عيب، فلما عُرِض على البصير بعيوبه، أظهر فيه عيوبًا كنت عنها غافلاً، فكيف أعمالنا هذه إذا عُرِضت غدًا على الله سبحانه؟! كم يبدو فيها من العيوب والنقصان؟!»[(١)].

وهذا هشام الدستوائي يطفئ السراج إلى الصبح ويقول: إذا رأيت الظلمة ذكرت ظلمة القبر!!

وكان بعض السلف إذا شرب الماء البارد في الصيف بكى وتذكر أمنية أهل النار حينما يشتهون الماء، وينادون أهل الجنة: ﴿ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾.

وصُبَّ على رأس بعض الصالحين ماءٌ فوجده شديد الحر، فبكى وقال: ذكرتُ قوله تعالى: ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴾.

وأحد الصالحين يمشي ذات يوم فوجد رجلاً يشوي لحمًا فبكى، فقال له الرجل: ما يبكيك؟ أو محتاج إلى اللحم؟! قال: لا.. إنما أبكي على ابن آدم يدخل الحيوان النار ميتًا وابن آدم يدخلها حيًّا.

وطفل مبارك يعلِّم الكبار رأى أهله يوقدون نارًا للطعام، فلما نظر إليها جعل يبكي، فقالوا له: لماذا تبكي؟ قال: وجدتكم تبدؤون بصغار الحطب قبل كباره.

وكان البعوض إذا وقع على ظهر إبراهيم العجلي وكتفه يتأذى منه ثم يقول لنفسه:

وأنت تأذّى من حسيس بعوضة فللنار أشقى ساكنين وأوجع[(٢)]

ونختم بموقف الحسن البصري الذي حضر مجلسًا جمع شيوخًا وشبابًا فقال: معشر الشيوخ.. ما يُصنع بالزرع إذا طاب. قالوا: يُحصد. ثم التفت فقال: معشر الشباب! كم من زرع لم يبلغ قد أدركته الآفة فأهلكته، وأتت عليه الجائحة فأتلفته، ثم بكى وتلا: ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٢٥][(٣)].

---

(١) منهاج العابدين ٢٣٤، ٢٣٥.
(٢) التخويف من النار ص ١١٢ – ابن رجب – ط دار ابن خلدون بالإسكندرية.
(٣) الحسن البصري ص ٩٧، ٩٨.

6 التفكر في الدنيا:

عن أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز أنه بكى يومًا بين أصحابه، فسُئل عن ذلك، فقال: «فكَّرت في الدنيا ولذاتها وشهواتها، فاعتبرت منها بها، ما تكاد شهواتنا تَنْقَضي حتى تكدِّرها مرارتُها، ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر إن فيها مواعظ لمن ادَّكر»(١).

إن على الحلاوة أن لا تنسيك المرارة، بمعنى أن حلاوة أيام عليها ألا تنسيك مرارة أعوام، فالدنيا إن سرَّتك أحيانًا أبكتك كثيرًا، وصدق من قال:

نصبَت لنا الدنيا زخارف حسنها ... مكرًا بنا وطبيعة ما غيَّرت
وهي التي لم تَخْلُ قطُّ لذائق ... إلا تغيَّر طعمُها وتمرَّرت
خدَّاعة بجمالها إن أقبلت ... فجَّاعة بزوالها إن أدبرت
وهَّابة سلاَّبة لهباتها ... طلاَّبة لخراب ما قد عمَّرت
وإذا بنت قصرًا لصاحب ثروة ... نصبت مجانقها عليه فدمَّرت

وهذا ما يحيي في قلبك الزهد فيها، والتهيؤ لما بعد الموت، والاستعداد للرقدة الكبرى في روضة جنة أو حفرة نار هي عما قريب قبركَ.

7 التفكر في أحوال الأمة:

روى ابن الجزري عن أبي عبد الله الحافظ أن الروم الإسبان لما استولوا على إشبيلية سنة ست وأربعين وستمائة هال صوت الناقوس وخرس الأذان أبا الحسن علي بن جابر الدباج اللخمي الأشبيلي، فما زال يتأسف ويضطرب إلى أن قضى نحبه بعد أيام رحمه الله، وقد عاش ثمانين سنة(٢).

وإن كان نصيب أبي الحسن من هزيمة المسلمين وانكسار الأمة هو الألم والحسرة القاتلة؛ إلا

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٨٠.

(٢) غاية النهاية لابن الجزري ١/ ٥٢٨ نقلاً عن كتاب مشاهد الناس عند الموت ص ٩٦ - عبد الرحمن خليف - ط ٢ سنة ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

أن الإمام البنا تجاوزهما إلى العمل والحركة، نعم كان يبكي الليالي الطوال، لكنها الدموع التي تحوَّلت إلى طاقة عمل هائلة جابت ربوع القطر المصري؛ حتى أثمرت جهوده نشر دعوته في أرجاء الأرض من الصين حيث الحكم الشيوعي الحاقد إلى أمريكا حيث الشيطان الاستعماري المارد، ووصولاً إلى أدغال إفريقيا وأطراف روسيا. يقول الإمام البنا عن نفسه وهو يصف تفكره المثمر النافع:

«ليس يعلم إلا الله كم من الليالي كنا نقضيها نستعرض حال الأمة وما وصلت إليه في مختلف مظاهر حياتها، ونُحلِّل العلل والأدواء، ونُفكِّر في العلاج وحسم الداء، ويفيض بنا التأثر لما وصلنا إليه إلى حد البكاء»[(١)].

وكثرة من مسلمي اليوم تطاولوا في بنيان القول والبيان، حتى غدت أقوالهم قصورًا شاخات، بينما أفعالهم أنقاض وحطام، لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا، وكم ناصرنا إخواننا المستضعفين في أرجاء الأرض بالثرثرة والزفرات وبكائيات اللسان، مع أن أفعالنا تعين عليهم وتبطش بهم حتى صدق فينا قول القائل:

نبني من الأقوال قصرًا شامخًا　　　والفعل دون الشامخات ركامُ

8 التفكر في نعم الله:

وأجلُّ وأعظم وأشرف هذه النعم: نعمة الإسلام، فعن زبدة أخت بشر بن الحارث قالت: دخل بشر عليَّ ليلة من الليالي، فوضع إحدى رجليه داخل الدار والأخرى خارج الدار وبقي كذلك يتفكر حتى أصبح، فلما أصبح قلت له: في ماذا تفكرت طول الليلة؟! قال: «تفكَّرتُ في بشر النصراني وبشر اليهودي وبشر المجوسي ونفسي واسمي بشر، فقلت: ما الذي سبق منك حتى خصَّك؟! فتفكَّرت في تفضله علي وحمدته علي أن جعلني من خاصته وألبسني لباس أحبائه»[(٢)].

---

(١) حسن البنا: الداعية الإمام والمجدد الشهيد ص٢٧.
(٢) صفة الصفوة ٢/ ٣٣١.

وإلا..

إذا لم تنشغل بالفكر النافع غزاك الفكر الهادم الضار، قال ابن القيِّم:

«فأنفع الدواء أن تشغل نفسك بالفكر فيما يعنيك دون مالا يعنيك، فالفكر فيما لا يعني باب كل شر، ومن فكَّر فيما لا يعنيه فاته ما يعنيه، واشتغل عن أنفع الأشياء له بما لا منفعة له فيه، فالفكر والخواطر والإرادة والهمة أحق شيء بإصلاحه من نفسك، فإن هذه خاصتك وحقيقتك التي تبتعد بها أو تقرب من إلهك ومعبودك؛ الذي لا سعادة لك إلا في قربه ورضاه عنك، وكلُّ الشقاء في بعدك عنه وسخطه عليك، ومن كان في خواطره ومجالات فكره دنيئًا خسيسًا لم يكن في سائر أمره إلا كذلك، وإياك أن تمكن الشيطان من بيت أفكارك وإرادتك، فإنه يفسدها عليك فسادًا يصعب تداركه، ويلقي إليك أنواع الوساوس والأفكار المضرة ويحول بينك وبين الفكر فيما ينفعك، وأنت الذي أعنته على نفسك بتمكينه من قلبك وخواطرك فملكها عليك»(١).

شروط الانتفاع بالتفكُّر

- التحرر من قيود الدنيا المقعدة ساعة من الزمن؛ لأن «الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية، والفكر في الآخرة يورث الحكمة ويحيي القلوب»(٢).
- تخيُّر أوقات التفكر المباركة كما تخيَّرها الخليل إبراهيم عليه السلام: عند حلول الليل، وظهور الكواكب، وبزوغ القمر، وشروق الشمس؛ فإنها أوقات لا تُضيَّع يجب أن يكون لك فيها من هذه العبادة نصيب.
- التماس أماكن الهدوء والسكون والبعد عن مصادر الجلبة والمشوشات.
- التريث وعدم الاستعجال، وذلك بالفراغ من شغل البدن قبل البدء في شغل الروح.

---

(١) الفوائد ١/ ١٧٥-١٧٦.

(٢) الإحياء ٤/ ٤٢٥.

✍ وأخيرًا طهارة القلب من الذنوب ونقاؤه من المكدِّرات حتى ترى مرآته صور الحقائق واضحة نقية.

ثمرة التفكر

كما أنه ليس المراد من السحابة الأمطار وإنما وجود الأثمار، فكذلك ليس المراد من التفكر إلا العمل؛ ولذلك قال وهب: «ما طالت فكرة امرئ قط إلا علم، وما علم امرؤ قط إلا عمل»[(١)].

وكل من لم يخرج من عبادة التفكر بمزيد من العمل فإن تفكره ضائع ضائع، وستظل كلمات هذا الفصل كلام منابر وحبرًا يملؤ الأوراق ما لم يتحوَّل إلى طاقة حركة ودفقة عمل، وبهذا كتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز مبرزًا هذه القاعدة:

«اعلم أن التفكُّر يدعو إلى الخير والعمل به، والندم على الشر يدعو إلى تركه»[(٢)].

---

(١) السابق ٤/ ٤٢٥.

(٢) حلية الأولياء ٢/ ١٣٤، ١٣٥.

تاسعًا: معاهدة الصلح

يا من كل يوم من الذنب يغترف وهو مصرٌّ على أن لا يعترف، اسمعها مني عالية مدوِّية:

طهِّر قلبك من دنس ذنبك بالمتاب، قبل أن يُكبك على وجهك غدًا في أشد العذاب.

لكن لماذا بدأنا بالتوبة كأول علاج؟!

والجواب: التوبة النصوح تزيل أخطر السموم على الإطلاق، ولا سُم أخطر على القلب من الذنوب؛ لذا كانت التوبة أعظم جرعة مضادة لأثر الذنب، والترياق المناسب لرد الهجوم على القلب، والكفيل برد العدو على أدباره بل والقضاء عليه، المعاصي طوق في عنق العاصي لا يفكه منها إلا التوبة، ولهذا سماها علماء القلوب وظيفة العمر؛ لأنها تلزم الشاب والشيخ والطائع والعاصي والمتقدِّم والمتعثِّر.

وقد بيَّن أبو حامد الغزالي علاقة التوبة بالطاعات، وكيف أن التوبة شرط لازم للإقبال على الطاعة وشرط لازم كذلك لقبول أي طاعة، فقال رحمه الله في كتابه منهاج العابدين:

«عليك يا طالب العبادة –وفقك الله لطاعته- بالتوبة، وذلك لأمرين:

أحدهما: ليحصل لك توفيق الطاعة، فإن شؤم الذنوب يورث الحرمان، ويُعقِب الخذلان، وإن قيد الذنوب يمنع من المشي إلى طاعة الله عز وجل، والمسارعة إلى خدمته، وإن ثِقل الذنوب يمنع من الخفة للخيرات، والنشاط إلى الطاعات، فيا عجبًا!! كيف يُوفَّق للطاعة من هو في شؤم معصية والقساوة؟! وكيف يُدعى إلى الخدمة من هو مُصِرٌّ على المعصية والجفوة؟! وكيف يُقرَّب للمناجاة من هو متلطِّخ بالأقذار والنجاسات؟! فلا جرم أن لا يجد المُصِرُّ على العصيان توفيقًا، ولا تخف أركانه للعبادة، وإن اتفق؛ فبِكَدٍّ لا حلاوة معه ولا صفوة، وكلُّ ذلك لشؤم الذنوب وترك التوبة.

والثاني من الأمرين: أنه تلزمك التوبة لقبول عبادتك، فإن رب الدَّين لا يقبل الهدية، وذلك أن التوبة عن المعاصي وإرضاء الخصوم فرض لازم، وعامة العبادة التي تقصدها نفل، فكيف يقبل تبرعك والدَّين قد حلَّ عليك لم تقضه؟! أم كيف تترك لأجله الحلال والمباح وأنت مُصِرٌّ على فعل المحظور والحرام؟! وكيف تناجيه وتدعوه وتثني عليه؛ وهو والعياذ بالله عليك غضبان؟!»[١].

معدلات التوبة!!

لكن كم مرة عليك أن تعلن توبتك كل يوم؟! وما هو معدَّل رجوعك إلى ربك وإعلان خضوعك له؟!

تتنوع الأحاديث التي تتناول ذلك:

- فمنها ما يربط التوبة بوقوع الذنب من العبد، فيجعل عليه كلما أذنب توبة كما في قوله ﷺ: «**ما من عبد يذنب ذنبا فيتوضأ فيحسن الطهور، ثم يقوم فيصلي ركعتين، ثم يستغفر الله لذلك الذنب إلا غفر الله له**»[٢].

- ومنها ما يجعله عادة للعبد أذنب أم لم يذنب باعتبار أن العبد خطَّاء على الدوام عرف ذنبه أم لم يعرفه؛ لذا قال النبي ﷺ مرسيًا معدلاً يوميًّا للتوبة:

«**إني لأتوب إلى الله تعالى في اليوم سبعين مرة**»[٣].

- ومنها ما يجعلها خمس مرات على الأقل كل يوم كما في حديث أبي هريرة ﷺ: كان رسول الله ﷺ يسكت بين التكبير وبين القراءة إسكاتة هُنَيَّة، فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! إسكاتتك بين التكبير والقراءة ما تقول؟! قال: «**أقول: اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقِّني من خطاياي كما يُنقَّى الثوب الأبيض من الدنس،**

---

(١) منهاج العابدين ص٣١، ٣٢.
(٢) صحيح: رواه الأربعة وأحمد وابن حبان عن أبي بكر كما في صحيح الجامع رقم: ٥٧٣٨.
(٣) صحيح: رواه النسائي وابن حبان عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ٢٤٧٧.

اللهم اغسل خطاياي بالماء والثلج والبرد»[1].

فتجديد التوبة إذن في ضوء هذا الحديث لا بد أن يتم كل يوم خمس مرات على الأقل، فتجدِّد توبتك كل صلاة، وتستفتح صلاتك بالاعتذار، **والسؤال الأول** الذي يتبادر إلى الأذهان: لماذا يردِّد المسلم هذا الدعاء في اليوم خمس مرات على الأقل، فإن حافظ على السنن الرواتب ردَّده إحدى عشرة مرة؟!

والجواب:

لأن الله سبحانه جعل الدخول عليه مشروطًا باستيفاء الطهارة، فلا يدخل المصلي عليه حتى يطهر، وكذلك جعل الدخول إلى جنته موقوفًا على الطيب والطهارة، فلا يدخلها إلا طيب طاهر، فهما طهارتان: طهارة البدن، وطهارة القلب، ولهذا شُرِع للمتوضىء أن يقول عقب وضوئه:

«أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهِّرين».

فطهارة القلب بالتوبة، وطهارة البدن بالماء، فلما اجتمع له الطهران صلح العبد للدخول على الله تعالى، والوقوف بين يديه ومناجاته.

والسؤال الثاني: لماذا قال: **«اللهم طهِّرني من خطاياي بالماء والثلج والبرد»**، وما فائدة تخصيص الثلج والبرد بل ورد في لفظ آخر والماء البارد، مع أن الماء الحار معروف بأنه أبلغ فى التنقية وغسل الأوساخ وإزالة الأذى؟!

سأل الإمام ابن القيِّم شيخه ابن تيمية نفس السؤال فأجاب رحمه الله بقوله:

«الخطايا توجب للقلب حرارة ونجاسة وضعفًا، فيرتخي القلب، وتضطرم فيه نار الشهوة وتنجسه، فإن الخطايا والذنوب له بمنزلة الحطب الذى يُمِدُّ النار ويوقدها، ولهذا كلما كثرت الخطايا اشتدت نار القلب وضعفه، والماء يغسل الخبث ويطفىء النار، فإن كان باردًا أورث الجسم صلابة وقوة، فإن كان معه ثلج وبرد كان أقوى في التبريد وصلابة الجسم

---

(١) صحيح: رواه الشيخان عن أبي هريرة كما في اللؤلؤ والمرجان رقم: ٣٤٩.

وشدته، فكان أذهب لأثر الخطايا»(١).

وهذا مصداق قول النبي ﷺ:

«تحترقون تحترقون، فإذا صليتم الصبح غَسَلَتْها، ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم الظهر غَسَلَتْها، ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم العصر غَسَلَتْها، ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم المغرب غَسَلَتْها، ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم العشاء غَسَلَتْها، ثم تنامون فلا يُكْتب عليكم حتى تستيقظوا»(٢).

نحترق بالذنوب كل يوم خمس مرات كما نصَّ الحديث، فالذنوب إذن نار، نعم الذنوب مُحرِقة، وإذا أحرقت أهلكت، لولا أن منَّ الله علينا بصلوات طيبات تطفئ لهب السيئات المهلكات.

الذنوب نار والقلب الحي مع النار كالشجرة الخضراء إذا أُدخِلت النار؛ تبدأ تعرق وتلفظ ماءها أو بالأحرى دموعها، وكذلك القلب الحي إذا وقع عليه الذنب ارتجف وجلاً ودمعت عين صاحبه خوفًا.

الذنوب نار والقلب الميت مع النار كالشجرة اليابسة إذا دخلت النار علا دخانها وتفحَّمت في الحال ولم تخرج منها دمعة واحدة، وكذلك صاحب القلب الميت إذا نزل عليه الذنب لم يتأثَّر بل ربما امتلأ سرورًا بذنبه وفرحًا بمعاندة ربه.

لكن كثيرًا من الناس من لا يحس بلفح نار الذنب وحرِّها لأن قلبه تفحَّم من أثر الذنوب منذ زمن، ولم يعُد فيه سوى الرماد، وهل تأكل النار من الرماد شيئًا؟!

يا قلب ما لي لا أراك تطيعني ... أتحثُّ نحو المهلكات خطاكا
يا أيها القلب المُكبَّل بالأسى ... مزِّق بعزم التائبين أساكا
تُب واعتبر واندم على ما قد مضى ... وادفن بأمواج الرشاد هواكا
واغسل ذنوبك بالمدامع ساجدًا ... فعساك تبلغ ما تريد عساكا

---

(١) إغاثة اللهفان من مكائد الشيطان ١/ ٥٧.

(٢) حسن: رواه الطبراني في الصغير والأوسط عن عبد الله بن مسعود، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب رقم ٣٥٧.

مضاعفات القوة

1 التوبة العملية:

لا تعتمد على الصدمة الأولى، بل استثمرها في البناء، واستغِلَّها في تشييد مناعة إيمانية حصينة تقضي على كل ما تسلل إليك من عدوى الذنوب وجراثيم الهوى، واسمع كلام ابن **القيِّم** وقد فطن إلى هذا المعنى مبكِّرًا:

«وليست التوبة تركًا، وإن كان الترك من لوازمها، وإنما هي فعل وجودي، يتضمن إقبال التائب على ربه وإنابته إليه والتزام طاعته، ومن لوازم ذلك: ترك ما نُهي عنه، ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ** ﴾ [هود: ٣]، فالتوبة رجوعٌ مما يكره سبحانه إلى ما يحب، وليست مُجرَّد الترك، فإن من ترك الذنب تركًا مُجرَّدًا، ولم يرجع منه إلى ما يحبه الرب تعالى؛ لم يكن تائبًا، فالتوبة: رجوع وإقبال وإنابة»(١).

وقد فهم **مطرف** أن من لوازم التوبة: الرجولة الحقة والوفاء الصارم، فقد سمع رجلا يقول: أستغفر الله وأتوب إليه، فأخذ **مطرف** بذراعه وقال: «لعلك لا تفعل! من وعد فقد أوجب»(٢).

لذا عرَّف **سهل بن عبد الله التسترى** التوبة بأنها: «تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة»(٣)، وأكَّد ذلك **ابن الجوزي** في نغمة لها نفس التردد وذات الصدى لتُحدِث نفس الأثر في الروح:

«قد ثبت في الحكمة أن شفاء الأمراض قصد أسبابها، فمن استشفى لمرضه بغير ذلك فقد أتى البيوت من غير أبوابها، فمن كان داؤه المعصية فشفاؤه الطاعة، ومن كان داؤه الغفلة فشفاؤه اليقظة، ومن كان داؤه كثرة الاشتغال فشفاؤه في تفريغ البال»(٤).

---

(١) الفوائد ص ١٦٤ - ط دار النفائس.
(٢) نثر الدر ٢/ ٦٧
(٣) الإحياء ٤/ ٤.
(٤) التذكرة في الوعظ ص ٥٣.

وسماه المقدسي سبيل المضادة حين قال:

«فاسلك سبيل المضادة، فإن الأمراض إنما تعالج بضدها»(١).

فكل من أدمن الاستماع إلى الغناء المحرَّم وجلس مجالس الغيبة لا يكفِّر ذلك عنه إلا سماع القرآن ومجالس الذكر، وكل من أطلق بصره في حرام لا تتم توبته إلا بتقليب نظره إما في كتاب الله المنظور وهو كونه العظيم أو كتاب الله المقروء وهو قرآنه الكريم، وكل من سعت قدمه إلى أماكن الحرام لا بد له من إتعاب هذه القدم في السعي إلى الخيرات والقربات حتى يشفى، وكل من تلوَّث لسانه بالفحش من القول والسباب والغيبة لا بد له من تطهيره بالذكر؛ لذا أوصاك ابن المبارك:

اغتنم ركعتين زلفى إلى الله ... إذا كنت فارغًا مستريحا
وإذا ما هممت بالنطق في الباطل ... فاجعل مكانه تسبيحا(٢)

والشاهد: فاجعل مكانه تسبيحًا...

إن العمل وحده هو الذي يمحو العمل، والسعي والجد بحزم في تكفير السيئات هو العملة المعتمدة في شراء العفو، «وأما انتظار عفو الله تعالى، فعفو الله سبحانه ممكن، إلا أن الإنسان ينبغي له الأخذ بالحزم، وما مثال ذلك إلا كمثل رجل أنفق أمواله كلها، وترك نفسه وعياله فقراء ينتظر من الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز في خربة، وهذا ممكن إلا أن صاحبه ملقب بالأحمق»(٣).

فهم كعب بن مالك ﷺ مفهوم التوبة العملية بفطرته الإيمانية، وكان قد تخلَّف عن غزوة تبوك دون عذر، ثم اعترف بذلك صادقًا أمام رسول الله ﷺ، ومع أن الله جلَّ في علاه قد شهد له بقبول توبته وأنزل في ذلك قرآنًا يُتلى إلى قيام الساعة: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: ١١٨]

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص ٢٦٠.
(٢) شعب الإيمان ٤/ ٢٧٥.
(٣) مختصر منهاج القاصدين ص ٢٦٧.

لكن كعبًا لم يركن بعد هذه التبرئة الإلهية إلى الراحة والسكون بل فهم أن له دورًا آخر وعملاً لم يتم فقال:

«يا رسول الله! إن الله إنما أنجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أُحدِّث إلا صدقًا ما بقيت، قال: فوالله ما علمت أن أحدًا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا أحسن مما أبلاني الله به، والله ما تعمَّدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي».

وأصرَّ على تأكيد توبته بعمل صالح آخر حين قال:

«يا رسول الله! إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله». قال رسول الله ﷺ: «**أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك**». قلت: فإني أُمسك سهمي الذي بخيبر[(1)].

وإشارة أخرى نلتقطها من سهل بن عبد الله التستري، وهي أن العمل الصالح توطئةٌ للمغفرة وعلامة لازمة من علاماتها. قال رحمه الله:

«من وفَّقه الله لصالح الأعمال، فذاك دليل على أنه مغفورٌ له، لأن الله تعالى قال: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧١].

2 أبعاد الندم الثلاثية:

كلما كان ندمك أصدق كلما كان شفاؤك أسرع، وكلما زاد ندمك كلما حسُنت توبتك، وكلما طال ندمك كلما ثقلت موازينك وعلت درجتك، فصدق الندم وقدره وطول بقائه بالقلب ثلاث صفات يتنافس فيها طالبو الشفاء اليوم ويقتسمون بها المنازل عند رب كريم.

وممن حقق هذه الأبعاد الثلاثية صحابي بدري مبارك هو أبو حذيفة هشيم ابن عتبة بن ربيعة ﷺ، وأبوه هو من هو في زعامة الكفر، لكنه سبحانه يخرج الحي من الميت، واسمع خبر

---

(١) صحيح: رواه الشيخان عن كعب بن مالك كما في اللؤلؤ والمرجان حديث رقم: ١٧٦٢.

هذا الحي صاحب القلب الحي على لسان ابن كثير:

«عن عبد الله بن عباس أن النبي ﷺ قال لأصحابه يوم بدر: إني قد عرفت رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أُخرجوا كرهًا لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحدًا من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري بن هشام بن الحارث ابن أسد فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ فلا يقتله، فإنه إنما خرج مستكرها، فقال أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا ونترك العباس!! والله لئن لقيته لألجمنه بالسيف، فبلغَتْ رسول الله ﷺ، فقال لعمر: يا أبا حفص!! قال عمر ﷺ: والله إنه لأول يوم كناني فيه رسول الله ﷺ بأبي حفص.. أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟! فقال عمر: يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه بالسيف، فوالله لقد نافق، فقال أبو حذيفة: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذٍ، ولا أزال منها خائفًا إلا أن تُكفِّرها عني الشهادة، فقُتِل يوم اليمامة شهيدًا ﷺ»[1].

فانظر رحمك الله إلى صدقه حيث لم يتراجع عن موقفه أبدًا ولم يتغيَّر لا كمن يعزم على التوبة لحظيًا ثم ينكص عنها بعد قليل، وانظر مقدار ندمه الذي دفعه إلى اختيار الموت في سبيل الله وحده كوسيلة وحيدة يكفِّر بها عن خطيئته لا كمن لا يساوي مقدار ندمه حزنه على ترقية وظيفية أو مكافأة مالية زائلة، وتأمل طول بقاء ندمه في القلب طوال قرابة عشر سنين لا كمن ينسى ذنبه فور حصوله أو بعد ساعة أو ساعتين على الأكثر، لكن.. ما هو تعريف الندم كي نحققه وما هو الباعث عليه حتى نصل إليه؟

قال أبو قدامة المقدسي: «والندم هو توجع القلب عنده شعوره بفراق المحبوب، وعلامته طول الحزن والبكاء، فإن من استشعر عقوبة نازلة بولده أو من يعزُّ عليه، طال بكاؤه، واشتدت مصيبته، وأي عزيز أعز عليه من نفسه؟ وأي عقوبة أشد من النار؟ وأي سبب أدل على نزول العقوبة من المعاصي؟ وأى خبر أصدق من رسول الله؟ ولو أخبره طبيب أن ولده لا يبرأ من مرضه لاشتد فى الحال حزنه، وليس ولده بأعز من نفسه، ولا الطبيب أعلم من الله ورسوله، ولا الموت بأشد من النار، ولا المرض أدل على الموت من المعاصي على سخط الله، والتعرض بها للنار»[2].

(١) البداية والنهاية ٣/ ٢٨٤، ٢٨٥.

(٢) مختصر منهاج القاصدين - ص ٢٥٩ - ط دار التراث.

3 التوبة النصوح:

قال الزرعي في شرح المنازل:

«النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:

أحدها: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بحيث لا تدع ذنبًا إلا تناولته.

والثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها بحيث لا يبقى عنده تردد ولا تلوُّم ولا انتظار، بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادرًا بها.

والثالث. تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقعها لمحض الخوف من الله تعالى وخشيته والرغبة فيما لديه والرهبة مما عنده، لا كمن يتوب لحفظ جاهه أو حرفته أو منصبه، أو لحفظ حاله أو ماله أو استدعاء حمد الناس أو الهرب من ذمهم أو نحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله تعالى.

ولا ريب أن التوبة الجامعة لما ذُكِر تستلزم الغفران وتتضمنه وتمحق جميع الذنوب، وهي أكمل ما يكون من التوبة»(١).

إن التوبة النصوح هي مجال تنافس عملي بين المرضى، فمن أراد أن يضاعف أثر التوبة ودواءها فليحقق شروط التوبة النصوح الثلاثة.

فالشرط الأول للتوبة النصوح أن تكون توبة شاملة، وليس بالضرورة أن يكون صاحب التوبة مرتكب كبيرة أو مصرًّا على صغيرة، بل قد تشمل كل واحد منا ولو كان صالحًا كالتوبة من الغفلة، والتوبة من عدم شكر النعمة، والتوبة من إيثار حب غير الله على حب الله، والتوبة من عدم إتقان العبادة، والتوبة من استقلال العبد المعصية وهو عين الجرأة على ربه، والتوبة من إضاعة الوقت، والتوبة من التقصير في الدعوة ونصرة الدين، والتوبة من غلبة الهوى عند لحظات الضعف، بل والتوبة من التوبة أي من عدم استكمال شروط التوبة.

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ص ٥٨ – محمد علي بن محمد علان بن إبراهيم البكري الصديقي المكي – الدار العثمانية ودار ابن حزم – الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.

ولذا كان من حرص النبي ﷺ بنا ورحمته بأمته أن علمنا أن نقول في سجودنا -وهو أكثر المواضع قربًا من الله- هذا الدعاء الجامع المانع، وهو دعاء يجبر كسر أوبتنا وما أشده، ويسد خرق توبتنا وما أوسعه، فعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ كان يقول في سجوده: «**اللهم اغفر لي ذنبي كله، دِقَّه وجِلَّه، وأوله وآخره، علانيته وسِرَّه**»[1].

والشرط الثاني للتوبة النصوح كما حكاه **الزرعي**: المبادرة بها على الفور وعدم تسويفها.

والثالث: اتهام التوبة، وهو أن لا يتيقن العبد أنه أدى توبته على الوجه المطلوب الذي ينبغي له، بل يجب أن يخاف أنه ما وفاها حقها فلم تُقبل منه، وأنه لم يبذل جهده في صحتها فلم تمحُ ذنبه.

4 التكرار يعلِّم الأبرار:

في كثير من الأحيان.. خسارة معركة تُعلِّمك كيف تربح الحرب، والوقوع في الذنب يعرِّفك كيف تتجنبه في المستقبل، ومما يضاعف أثر دواء التوبة هو أن تعرف كيف استزلك الشيطان وأوقعك في الذنب، ثم ما هي المقدمات التي سلكتها ابتداء فأدَّت بك إلى العصيان انتهاء، وذلك لتتجنَّبها في المستقبل، وتستخلص الدروس مما وقعت فيه، ولا ترجع إليه مرة أخرى «**لا يُلدغ المؤمن من جُحرٍ مرتين**».

فقد تكون الخلوة هي من أدت بك إلى السقوط، أو الفراغ، أو الصحبة السيئة هي التي زيَّنت لك الحرام، أو مكان معصية سعيت إليه بقدميك حتى هويت، وتكون من علامات التوبة المقبولة أن تُثبِت لربك أنك استفدت مما جنيت.

ليست التوبة إذن جلدًا للذات ولا غرقًا في أخطاء الماضي؛ لأن الاشتغال بضياع وقتٍ ماضٍ تضييعٌ لوقت ثانٍ، وإنما التوبة استخلاص للعبر من ماضيك لتستقبل بها حاضرك، وتستشرف بها مستقبلك، وإن المريض الذكي اليوم هو من يتعلَّم من أخطائه، ويعقد مع نفسه جلسات

---

(١) صحيح: رواه مسلم وأبو داود عن أبي هريرة كما في صحيح أبي داود رقم: ٧٨١.

محاسبة دورية يخرج منها بتوصيات عملية تصحح مسيرته وتُقوِّم اعوجاجه وتعيده إلى الجادة، وربما صحَّت الأجساد بالعلل.

5 تعجيل التوبة:

من سوَّف لنفسه بالتوبة على الدوام تراكمت ظلمة الذنوب على قلبه، وتعذَّر عليه الاستدراك، لأن القليل يدعو إلى الكثير، والذنب يستدعي ذنبًا آخر، فيقوِّي أحدهما الآخر، ثم يستدعيان ثالثًا، ثم تجتمع الثلاثة فتستدعي رابعا، وهلم جرًّا حتى تغمره الذنوب، وتحيط به خطيئته من كل جانب، فيصير القلب مقيدًا بسلاسل الشهوات لا يمكنه التخلص من مخالبها، وهذا من معاني انسداد باب التوبة، ولعله المراد بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩].

وتأخير التوبة من أضراره كذلك نسيان ذنبك، ومعنى نسيان ذنبك أن يضيع في مجاهل النسيان من كثرة توارد الذنوب بعده؛ لذا كانت المبادرة إلى التوبة على الفور هي عمل كل عاقل رأى العواقب وأبصر المصير الذي ينتظره إن تأخَّر، وكان تأخير التوبة هو الذنب الثاني في سلسلة الذنوب المتصلة التي رآها ابن القيِّم فقال:

«المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور ولا يجوز تأخيرها، فمتى أخَّرها عصى بالتأخير، فإذا تاب من الذنب بقي عليه توبة أخرى؛ وهي توبته من تأخير التوبة، وقلَّ أن تخطر هذه ببال التائب، بل عنده: أنه إذا تاب من الذنب لم يبق عليه شيء آخر، وقد بقي عليه التوبة من تأخير التوبة»[1].

أخي.. إن أخَّرت توبتك فقد أعطيت أول خيط من ثوب إيمانك لشيطانك، فأخذ ينسل الثوب خيطًا من بعد خيط حتى يدعك في عراء الأهواء عريانًا من خير لباس.. لباس التقوى ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

---

٥ الأجر على قدر المشقة:

إن توبةً مِن أصعب ما يكون هي توبة **الغامدية** في عهد النبي ﷺ، فقد وقعت في جريمة الزنا، لكنها تابت وأرادت أن تكفِّر عن هذه الخطيئة بإقامة الحد عليها، فأمرها النبي ﷺ أن تذهب حتى وضعت حملها، ولم تُنسِها مشقة الحمل مرارة الذنب ووجوب التكفير عنه؛ لذا رجعت إلى النبي ﷺ ثانية تطلب إليه أن يُطهِّرها، فردَّها النبي ﷺ حتى تفطم طفلها، ولم يُنسِها حنان الأمومة وشدة تعلقها بطفلها يومًا بعد يوم مرارة ذنبها؛ لذا رجعت إلى النبي ﷺ ثالثة ليطهِّرها، وتطهيرها هو رجمها حتى الموت، وإلى هذا المصير قادها قلبها، فامتثلت قدماها للأمر، وأتت رسول الله ﷺ معترفة، فنالت وسام الشرف على لسان نبينا ﷺ:

«لقد تابت توبة لو قُسِّمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله»[(١)].

توبة امرأة تعدل توبة سبعين من الصحابة، فتوبتها تعدل توبة كم واحد منا!!

لكن لماذا؟!

أقول: لأنها التوبة الأصعب ولا شك!! فهي توبة تساوي موتة، وليست أي موتة بل رجمًا بالحجارة حتى تزهق الروح، ثم هي فراق الولد الذي اشتد تعلق القلب به، ثم هو قمة الصدق الذي دام رغم مرور سنتين.

وحين تناثرت قطرات دمها الزكي على ثوب **خالد بن الوليد** ﷺ غضب وسبَّها ناظرًا إلى هول جريمتها محتقرًا لها باعتبارها زانية، فنهاه النبي ﷺ مبيِّنًا حقيقة ما فعلت:

«مهلاً يا خالد! لا تسُبَّها، فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس[(٢)] لغُفِر له»[(٣)].

---

(١) صحيح: رواه أحمد ومسلم أبو داود والنسائي عن عمران بن حصين كما في صحيح الجامع رقم: ٥١٢٨.

(٢) المكوس: هي الضرائب التي كانت يأخذها العشَّارُون، وقد غلب استعمال المكس فيما يأخذه أعوان السلطان ظلمًا عند البيع والشراء، والمكس من أقبح المعاصي والذنوب الموبقات وذلك لكثرة مطالبات الناس له وظلاماتهم عنده، وتكرر ذلك منه، وانتهاكه لحرمات الناس، وأخذ أموالهم بغير حقها، وصرفها في غير وجهها.

(٣) حسن: رواه أحمد ومسلم أبو داود والنسائي عن بريدة كما في صحيح الجامع رقم: ٦٦٢٨.

إن توبة من اقتات المال الحرام والربا دهرًا، أو توبة من عاش وسط بيت غير ملتزم مليء بالملهيات والموبقات، أو توبة من يعمل في بيئة لا تتقيد بتعاليم الإسلام بل تتحرر منها ولا تعين على التوبة بل تصرف عنها، أو توبة شاب قضى زهرة شبابه في الشهوات والمغريات والكبائر، توبة كل هؤلاء هي سباحة ضد التيار، ومن ثم فهي أشرف قدرا وأكبر أجرًا، ولعلها في ميزان الله أثقل من توبة أتقى العباد وأزهد الزهاد.

مدّعي النبوة الشهيد!!

لا تيأسوا معاشر المذنبين من فداحة ذنوبكم وطول عصيانكم، بل انظروا دائمًا إلى الجانب المشرق والوجه الساطع من الخطيئة، والمحوا فيها الفرصة السانحة كي ترتقوا أعلى المقامات وتحوزوا غاية الفضل، فالذنب مفتاح التوبة، وكلما كان السقوط أدهى كان الصعود أعلى.

وليس هناك ذنب أخطر من ادعاء النبوة، ومع ذلك غفر الله هذا الذنب، بل وارتقى بصاحبه إلى أسمى مقام يطمح إليه بشر ألا وهو مقام الشهادة، فاعرفوا قدر الرب سبحانه وأنتم تتعاملون معه، واذكروا ما ذكرته كتب التاريخ عن **طليحة بن خويلد الأسدي** الذي ادَّعى النبوة ثم ماذا؟! اقرؤوا ما بعد ماذا:

«وقد خرج **عكاشة** مع **خالد** يوم إمرة **الصديق** بذي القصة، فبعثه **خالد** هو **وثابت بن أقرم** كطليعة بين يديه، فتلقاهما **طليحة الأسدي** وأخوه **سلمة** فقتلاهما، ثم أسلم **طليحة** بعد ذلك، وكان عُمر **عكاشة** يومئذٍ أربعًا وأربعين سنة، وكان **طليحة** ممن شهد الخندق من ناحية المشركين ثم أسلم سنة تسع ووفد على رسول الله ﷺ إلى المدينة، ثم ارتد بعد وفاة رسول الله ﷺ في أيام الصديق وادَّعى النبوة، ثم رجع إلى الإسلام واعتمر، ثم جاء يُسلِّم على **عمر**، فقال له: اغرب عني فإنك قاتل الرجلين الصالحين: **عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم**، فقال:

يا أمير المؤمنين؛ هما رجلان أكرمهما الله على يديَّ ولم أهنأ بأيديهما، فأُعجب عمر بكلامه، ورضي عنه، وكتب إلى الأمراء أن يُشاوَر ولا يُوَلَّى شيئًا من الأمر، ثم عاد إلى الشام مجاهدا، فشهد اليرموك وبعض حروب كالقادسية ونهاوند الفرس، وكان من الشجعان المذكورين والأبطال المشهورين، وقد حسن إسلامه بعد هذا كله، وكان يُعَدُّ بألف فارس لشدته وشجاعته وبصره بالحرب، واستشهد طليحة بنهاوند سنة إحدى وعشرين مع النعمان بن مقرن وعمرو بن معدي كرب»[1].

إن في هذه القصة كذلك إشارة إلى أن تكرار التوبة والإكثار منها والمواظبة عليها يجعل فرص الخاتمة الحسنة والنهاية الأروع كبيرة، لأن المرء يموت على ما عاش عليه، مما يحث كل عاقل فينا على إدمان التوبة تمهيدا لإحسان خاتمته.

(١) البداية والنهاية ٦/ ٣٣٩.

الدواء الأخير:

عاشرًا: صرخات الاستغاثة

وهو دواء لا يقدَّر بثمن وكنز لا يُشترى بمال؛ ولذا لما رأى النبي ﷺ انصراف الناس عنه وعدم انتباههم إلى قدره انطلق يهتف في شداد بن أوس بن ثابت بن المنذر ﷺ وهو ابن أخي حسان بن ثابت الأنصاري الخزرجي ﷺ:

«يا شداد بن أوس.. إذا رأيتَ الناس قد اكتنزوا الذهب والفضة فاكنز هؤلاء الكلمات: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد، وأسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك، وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك، وأسألك قلبًا سليمًا ولسانًا صادقًا، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شرِّ ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم إنك أنت علام الغيوب»[(١)].

وهو الحل الأخير والدواء الذي ليس بعده دواء. قال ابن القيِّم:

«فإن عجزت عنه هذه الأدوية كلها لم يبق له إلا صدق اللجأ إلى من يجيب المضطر إذا دعاه، وليطرح نفسه بين يديه على بابه مستغيثًا به متضرِّعًا متذللاً مستكينًا، فمتى وُفِّق لذلك فقد قرع باب التوفيق»[(٢)].

واسأل نفسك وأنت تتناول هذا الدواء: من الذي بيده أن يهب القلوب حياتها؟! من الذي يتفضل عليها بخشوعها وانكسارها؟! من الذي إذا شاء قلَّبَ القلب؛ فأصبح أرق ما يكون لذكره، وأخشع ما يكون لآياته، وأبعد ما يكون عن سخطه وغضبه؟

فسبحان من ألان القلوب القاسية ولو كانت الجبال الراسية، فتجد العبد أقسى ما يكون

---

(١) السلسلة الصحيحة ٩/ ٨ رقم: ٣٢٢٨.

(٢) زاد المعاد ٤/ ٢٥١.

قلبًا، وأضعف ما يكون عزمًا، وتأبى رحمة الله إلا أن تناله، فيجود عليه ويكرمه، لتزوره تلك اللحظة العجيبة الرائعة التي يتغلغل فيها الإيمان إلى شغاف القلب بعد أن أذن الله لصاحبه في الشفاء، فمن ديوان الشقاء إلى ديوان السعادة، ومن أهل الجفا إلى أهل الوفا، وبعد أن كان مدبرًا غير مقبل، إذا به يتوجه إلى الله بقلبه وقالبه، وإذا بقلبه ينقلب في لحظة واحدة بل ينعدل في لحظة واحدة، ويصبح بصيرًا متبصرًا بموضع الخطوة القادمة في رحلته نحو الجنة.

ومما يغري النفس باللجوء إلى هذا الدواء: (حياء الرب تعالى من عبده: فذاك نوع آخر لا تدركه الأفهام، ولا تكيفه العقول، فإنه حياء كرم وبر وجود وجلال، فإنه تبارك وتعالى حيي كريم يستحيي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردَّهُما صفرًا، وكان يحيى بن معاذ يقول: سبحان من يذنب عبده ويستحي هو!!)[1].

أمل العشاق الوحيد

يا رازحًا تحت وطأة الهوى والحب المحرَّم.. يا من استزله الشيطان وعذَّب قلبه المتيَّم ..يا باكيًا على فراق الحبيب.. يا من طرد ظلام عشقه أنوار فطرته.. يا من أغرق نفسه بيده.. أتؤثر العذابات على اللذات؟! ألا تريد النجاة والفوز؟! تعال أدلك:

عن قتادة قال: «كان عامر بن عبد قيس يسأل ربَّه أن ينزع شهوة النِّساء من قلبه، فكان لا يُبالي أذكرًا لقِيَ أم أنثى»[2].

واستجاب الله دعاءه حتى لقِّب بعدها براهب هذه الأمة، وتبدل هواه إلى هداه، وانطفأت نار شهوته ليشرق نور صحوته، وانظروا إلى مشاعره حين حضرت وفاته:

لما احتضر عامر بكى، فقيل: ما يبكيك؟ قال: ما أبكي جزعًا من الموت، ولا حرصا على الدنيا، ولكن أبكي على ظمأ الهواجر وقيام الليل.

---

(١) مدارج السالكين ٣/ ٢٠٧.
(٢) صفة الصفوة ٢/ ٢٦١.

مضاعفات القوة

مما يضاعف أثر جرعة الدواء في قلب المريض، ويجعلها تقطع أشواطًا أطول وأسرع في رحلة الشفاء:

1 موعد في السحر:

تعطَّر بالاستغفار إن كانت قد فضحتك روائح الذنوب، مع العلم أن للدواء موعدًا لا ينبغي التخلف عنه حتى يُحدِث أعظم الأثر، وهذا الموعد لم يحدِّده طبيب من الأطباء بل حدَّده رب الأطباء فقال سبحانه: ﴿ **وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴾ [الذاريات: ١٨].

وقد بلغ من أهمية هذا الدواء في علاج القلب حدًّا جعل الأطباء لا يتصورون أن يتخلف أحد عن موعدٍ واحد من مواعيد تعاطيه، أو يهمل تناول جرعة من جرعاته؛ لذا رُوِي أنَّ **طاووس اليماني** جاء في السَّحَر يطلب رجلاً، فقالوا: هو نائم، فقال: ما كنتُ أرى أنَّ أحدًا ينام في السَّحَر!![1]

بل وفوق ذلك ما روى **يحيى بن عبد الحميد الحمَّانيُّ** عن أبيه أنَّه صحِب **أبا حنيفة** ستة أشهر. قال: فما رأيتُه صلَّى الغداة إلا بوضوء عشاء الآخرة، وكان يختم كُلَّ ليلة عند السَّحَر.

لكن تُرى.. ما الذي رفع سعر هذا الدواء وغلَّاه؟!

إنه الله.. الذي يتنزل بنفسه ليعرض عليك جرعة الدواء بلا رسول أو وسيط أو حاجب أو رقيب، ولأن الجرعة غالية فلا بد حتمًا من غلو الثمن، وهو ترك الفراش الدافئ ومجافاة الزوجة وهجر النوم اللذيذ؛ ولذا ليس في غير هذا الوقت تجد هذه الجرعة: «**من ذا الذي يدعوني فأستجيب له**»، ومتى غير الآن تنعم بشفاء: «**من ذا الذي يسألني فأعطيه**»، ومن أين لك في غير السحر روعة بشارة: «**من ذا الذي يستغفرني فأغفر له**».

---

(١) حلية الأولياء ٤/٦.

أخـي.. مـن وظـائف ريـاح الأسـحار نقـل رسـائل الاعتـذار، ووالله لـو أحسسـنا ببلائنـا لانقطعـت أصـواتنا مـن دعائنـا، وقرحـت أجفاننا من بكائنا، ولكننا قوم محرومون، فسبحان مستخرج الدعاء بالبلاء، فكل من شرد عنه لابد وأن يعيده إليه، إما لطفًا باختياره، أو قسرًا بابتلائه، لأن من لم تأسره حلاوة النعمة أدبته ضراوة المحنة.

لا يترك الله عبدًا ليس يذكره ممـن يؤدّبه أو مـن يؤنّبه
أو نعمة تقتضي شكرًا يدوم له أو نقمة حين ينسى الشكر تنكُبه

2 المداومة شرط:

إن أفدح الأخطاء أن يترك المريض الدعاء اليوم؛ لأنه يرى أنه لم يُستجب له ورسول الله ﷺ يقول: «**يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول: قد دعوت فلم يستجب لي**»(١).

(وهو إما استبطاء أو إظهار يأس وكلاهما مذموم، أما الأول فلأن الإجابة لها وقت معين كما ورد أن بين دعاء **موسى وهارون على فرعون** وبين الإجابة أربعين سنة، وأما القنوط فلا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون؛ مع أن الإجابة على أنواع منها تحصيل عين المطلوب في الوقت المطلوب، ومنها ادخاره ليوم يكون أحوج إلى ثوابه، ومنها وجوده في وقت آخر لحكمة اقتضت تأخيره، ومنها دفع شر بدله)(٢).

قال **ابن القيم**: «ومن الآفات التي تمنع ترتب أثر الدعاء عليه أن يستعجل العبد ويستبطئ الإجابة فيستحسر ويدع الدعاء وهو بمنزلة من بذر بذرًا أو غرس غرسًا فجعل يتعاهده ويسقيه، فلما استبطأ كماله وإدراكه تركه وأهمله»(٣).

وصدق ﷺ حين قال: «**إن الله لا يملُّ حتى تملّوا**»(٤).

---

(١) صحيح: رواه البخاري ٦٣٤٠ ومسلم ٢٧٣٥.
(٢) عون المعبود في شرح سنن أبي داود ٤/ ٢٥٠.
(٣) الجواب الكافي ١/ ٥ – ط دار الكتب العلمية.
(٤) صحيح: رواه البزار عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع حديث رقم: ١٨٥٩.

والمعنى: إن الله لا يمل من الثواب والعطاء على العمل حتى تملوا أنتم من العمل وتنقطعون عنه؛ فينقطع ثوابه عنكم، ولا يسأم من إنعامه عليكم إلا إن سئمتم من عملكم لديه.

واقتدِ **بمُورِّق العجلي** وهو يقول: «ما امتلأت غضبًا قط، ولقد سألت الله حاجة منذ عشرين سنة فما شفَّعني فيها، وما سئمت من الدعاء»[1].

لذا نزع **ابن القيم** اليأس من قلبك وقذف فيه بذرة الأمل عندما قال:

«لا تسأم الوقوف على الباب ولو طُرِدت، ولا تقطع الاعتذار ولو رُدِدت، فإن فُتِح الباب للمقبولين دونك، فاهجم هجوم الكذابين وادخل دخول الطفيلية، وابسط كفَّ ﴿ **وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ** ﴾ [يوسف: ٨٨]»[2].

مرقاة لثقافة مؤصلة

(١) نزهة الفضلاء ص ٣٩٨.
(٢) الفوائد ص ٥١.

3 التطويل مستحب:

أقصر طريق إلى الإجابة طول الدعاء، فلا تضيِّعن اليوم لحظة واحدة مقتديًا في ذلك بنبيك ﷺ الذي شغله الذكر والدعاء يوم عرفة عن كل شيء حتى عن طعامه وشرابه، حتى ظنَّ كثير من الصحابة أنه صائم، فعن أم الفضل بنت الحارث أن ناسًا تماروا عندها يوم عرفة في صوم رسول الله ﷺ، فقال بعضهم هو صائم وقال بعضهم ليس بصائم، فأرسلت إليه بقدح لبن وهو واقف على بعيره بعرفة فشرب[(١)].

نعم لم يضيِّع لحظة واحدة، وكأنه يقول لك: الوقت لا يقدر بثمن، فكل لحظة تُنفقها في غير طاعة أعظم خسارة ، ودعاك إلى ذلك بفعله لتكون استجابتك أسرع وطاعتك أقرب، فعن أسامة بن زيد ﷺ: «كنتُ رديف النبي ﷺ بعرفات فرفع يديه يدعو، فمالت به ناقته فسقط خطامها، فتناول الخطام بإحدى يديه وهو رافعٌ يده الأخرى»[(٢)].

واسمع إلى حديث جابر ﷺ وتعلم منه:

«......، ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف فجعل بطن ناقته إلى الصخرات ، وجعل جبل المشاة بين يديه، واستقبل القبلة فلم يزل واقفًا حتى غربت الشمس»[(٣)].

تأمل قوله:

«فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس»... داعيًا دون ملل، راجيًا دون كلل، وظل على تلك الحال حتى بعد غروب شمس عرفة وأثناء سيره لمزدلفة، وهو وقت ينشغل فيه الناس بالزحام إن لم يكن بالجدال واللغو من الكلام، لكن رسول الله ﷺ يُعلمنا غير ذلك حيث أفاض ﷺ وردفه أسامة بن زيد، فجالت به الناقة وهو رافع يديه لا تجاوزان رأسه فما زال يسير على هيئته حتى انتهى إلى جَمْع (مزدلفة).

---

(١) صحيح : رواه الشيخان وأبوداود عن أم الفضل بنت الحارث كما في صحيح أبي داود حديث رقم : ٢١٣٢.
(٢) صحيح : انظر حديث رقم : ٢٩٦١ في سنن النسائي وحديث رقم : ٢٠٨٢٠ في مسند أحمد.
(٣) صحيح : انظر حديث رقم : ٢٤٩٤ في صحيح ابن ماجة وحديث رقم : ١٦٧٦ في صحيح أبي داود.

4 الفقراء فقط يدخلون:

ما لكل طارق يُفتح الباب كلاًّ، ولا كل ضيف يُستهل بأهلا وسهلاً، فإن الدعاء إذا لم يكن فيه ذلٌّ وخضوع لله تعالى وانكسار وانطراح بين يديه ذهب أدراج الرياح. قال ابن رجب رحمه الله تعالى: «وقد كان بعض الخائفين يجلس بالليل ساكنًا مُطرِقًا برأسه ويمد يديه كحال السائل، وهذا من أبلغ صفات الذل وإظهار المسكنة والافتقار، ومن افتقار القلب في الدعاء، وانكساره لله عز وجل، واستشعاره شدة الفاقة، والحاجة إليه، وعلى قدر الحُرقة والفاقة تكون إجابة الدعاء».

ونفس المعنى ذكره ابن القيِّم في (الوابل الصيب) فقال:

«فمن أراد الله به خيرًا فتح له باب الذل والانكسار ودوام اللجأ إلى الله تعالى والافتقار إليه ورؤية عيوب نفسه وجهلها وعدوانها، ومشاهدة فضل ربه وإحسانه ورحمته وجوده وبره وغناه وحمده، فالعارف سائر إلى الله تعالى بين هذين الجناحين لا يمكنه أن يسير إلا بهما، فمتى فاته واحد منهما فهو كالطير الذي فقد أحد جناحيه»[١].

وذكره كذلك ابن عطاء حين قال:

«ما الشأن وجود الطلب، إنما الشأن أن تُرزق حسن الأدب».

أيها المريض.. استعن به على مرضك، اطلب نصره على هواك، لا تدخل المعركة وحدك، كيف وأنت معك المدد كله.. كيف وبجوارك القوة التي لا تُغلب.. أحسن الكلام في الشكوى سؤال المولى.. ولا يدفع أمواج البلاء سوى صيحات الدعاء.

واظب على النياحة والبكاء.. استعن بأرحم الراحمين.. اشكُ إلى أكرم الأكرمين.. أدمن الاستغاثة.. لا تمل طول الشكاية ، فإن مصيبتك عظيمة، وبليتك طمَّت، وتماديك طال، وداؤك أعيا، حتى انقطعت حيل الأطباء، وراحت كل محاولاتهم معك سدى؛ ولم يعد لك مطلب ولا مستغاث ولا مهرب ولا ملجأ ولا منجا إلا إلى مولاك، فافزع إليه بالتضرع، واخشع على قدر

---

(١) الوابل الصيب ص ١٤ – ط دار الكتاب العربي.

جرمك وهول ذنبك، فهو لا يرحم إلا المتضرِّع الذليل، ولا يُغيث إلا الطالب المتلهِّف، وقد أصبحت اليوم أحوج ما تكون إلى نظرة ربانية واحدة، ولمسة إلهية حانية.

أخي.. ضاقت بك السبل، وانسدت عليك الطرق، وتقطَّعت بك الأسباب، واستفرد بك الشيطان، وخَفَت فيك وهج الإيمان، ولم تنجح فيك العظات ولا تشييع الأموات، ولم يكسرك التوبيخ، ومع ذلك كله.. المطلوب منه كريم، والمسئول جواد، والمُستغاث رحيم، والرحمة واسعة، والكرم فياض، والعفو شامل، فيا من حال الشيطان بينه وبين التوبة.. يا صاحب القلب المريض.. قل:

أيا ملك الملوك أقل عثاري ... فإني عنك أقصتني الذنوب
وأمرضني الهوى لضلال نفسي ... ولكن ليس غيرك لي طبيب
أيا ديَّان يوم الدين فرِّجْ ... همومًا في الفؤاد لها لهيبُ

اصرخ الى الله صراخ من نفدت كل حيله وبلغ منتهاه، ثم اهتف بلسان الذل والانكسار:

يا فالق الحب والنوى.. يا منشئ الأجساد بعد البلى.. يا ملاذ الراجعين إليه.. يا كافي المتوكلين عليه.. انقطع كل رجاء إلا منك.. خابت ظنوننا إلا فيك.. ضعف اعتمادنا إلا عليك.. وهن استنادنا إلا إليك.. نسألك بالرحمة التي كتبتها على نفسك، وبالكرامة التي أخفيتها لأوليائك أن تمطر قلوبنا بسحائب برك، وأن تعجِّل غوثنا بوابل إحسانك، وأن تجبر كسرنا بآثار رحمتك، وأن تفرِّج ما نحن فيه ببرد عفوك، وأن تقوِّي عزائمنا بقوة عظمتك.. يا أرحم الراحمين.

يا رب.. إليك منا نتظلم، أحوالنا تنطق عنا دون أن نتكلم، وقلوبنا من ذنوبنا تشكو وتتألم، فاللهم بعلمك بحالنا، وقدرتك على شفائنا، وأدراك بعلاجنا، ورحمتك التي لم تزل تعاملنا بها منذ خلقتنا، وخفي لطفك الذي غمرنا رغم خطيئاتنا، داونا بدوائك، فلا شفاء غير شفائك، وأتمم علينا نعمتك وأوجب لنا رضاك وأجزل مثوبتك واجعل جائزتنا منك الجنة.

يا من قلت: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾: المحبّ لا يُعذِّب حبيبه، فكيف تعذِّبني غدًا يوم ألقاك؟! أو يُتصور من أم أن تضيِّع وليدها، أو تتركه هملاً دون رعاية وحنان؟! وكيف نظن بك أن تضيِّعنا أو تتركنا هملاً في أودية الدنيا وفريسة لمكائد الشيطان، وقد أرسلت لنا عن طريق نبيك ﷺ أنك أرحم بنا من الأم بولدها.

أخي راية الفقراء فارفع، ودلائل العجز والتفريط جهِّز، وصحائف الذنوب قدِّم، والساعات الضائعة من عمرك واللهو في زمن الصبا كل هذا طلِّق، فكم أتعبت الحفظة سنين، وسهرت في المعاصي حينًا بعد حين، وأظهر الفاقة والمسكنة حتى تكون ممن يستحق الصدقة، ألم تقرأ قول ربك: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠].

وتعبيرًا عن ذلك: ارفع يديك إلى صدرك متمثِّلاً أعلى درجات الذل والعبودية مقلدًا نبيك الذي قال عنه ابن عباس ﷺ: رأيتُ رسول الله ﷺ يدعو بعرفة ويداه إلى صدره كاستطعام المِسكين.

عسى الله فالق الحب والنوى، ومنشئ الأجساد بعد البِلى، ومحيي الأرض بعد موتها؛ الذي أخرج الأخضر من اليابس أن ينقلنا مما يكره إلى ما يحب، ويبدلنا بهمِّ الدنيا الدنية همًا أخرى علية، فطالما أغاث المجدبين عندما قحطوا، وأنزل الغيث من بعد ما قنطوا، فلماذا لا نتكل على رحمته وكيف لا نطمع في غوثه ومعونته؟!

حلاوة الدعاء شرط الشفاء

وهذا الفقر واستشعار الذل كان اسمه حلاوة الدعاء في قاموس سعيد بن جبير، فعن داود بن أبي هند قال: لَمَّا أخذ الحجَّاج سعيد بن جبير قال: ما أُراني إلا مقتولا وسأُخبِركم:

«إنِّي كنتُ أنا وصاحبان لي دعونا حين وجدنا حلاوة الدُّعاء، ثم سألنا الله الشَّهادة، فكِلا صاحبيَّ رُزِقها، وأنا أنتظِرها، قال: فكأنَّه رأى أنَّ الإجابة عند حلاوة الدُّعاء»(١).

وحلاوة الدعاء من الثمرة المعجَّلة للعبد في الدنيا، ومن علامات وإرهاصات القبول في الآخرة، بل وفي الدنيا قبل الآخرة، فمن أراد معرفة حظ دعائه من الإجابة والقبول فلينظر كيف وجد طعمه، لأن الأمر كما قال ابن عطاء:

«من وجد ثمرة عمله عاجلاً، فهو دليل على وجود القبول آجلاً»(٢).

---

(١) حلية الأولياء ٤/ ٢٧٤.
(٢) الحكم العطائية ص ٣٢.

5 إخفاء الدعاء:

فإذا جمع المريض إلى ما سبق أن أخفى دعاءه، فلم يعرف به سوى من قصد به وجهه، فقد حاز الفضل وقصب السبق. قال ابن القيِّم وقد أحصى عِشر فوائد لإخفاء الدعاء:

«وفي إخفاء الدعاء فوائد عديدة:

أحدها أنه أعظم إيمانًا لأن صاحبه يعلم أن الله تعالى يسمع دعاءه الخفي، وليس كالذي قال أن الله يسمع إن جهرنا، ولا يسمع إن أخفينا.

ثانيها أنه أعظم في الأدب والتعظيم، ولهذا لا تُخاطَب الملوك ولا تسأل برفع الأصوات، وإنما تُخفض عندهم الأصوات، ويخفُّ عِندهم الكلام بمقدار ما يسمعونه، ومن رفع صوته لديهم مقتوه، ولله المثل الأعلى.

ثالثها أنه أبلغ في التضرع والخشوع الذي هو روح الدعاء ولبه ومقصوده، فإن الخاشع الذليل الضارع إنما يسأل مسألة مسكين ذليل قد انكسر قلبه وذلت جوارحه وخشع صوته؛ حتى إنه ليكاد تبلغ به ذلته ومسكنته وكسرته وضراعته إلى أن ينكسر لسانه فلا يطاوله بالنطق.

رابعها أنه أبلغ في الإخلاص.

خامسها أنه أبلغ في جمعية القلب على الله تعالى في الدعاء، فإن رفع الصوت يفرِّقه ويشتته.

سادسها أنه دال على قرب صاحبه من الله وأنه لاقترابه منه وشدة حضوره يسأله مسألة أقرب شيء إليه، فيسأله مسألة مناجاة للقريب لا مسألة نداء البعيد للبعيد.

سابعها أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال، فإن اللسان لا يمل والجوارح لا تتعب بخلاف ما إذا رفع صوته، فإنه قد يكِلُّ لسانه وتضعف بعض قواه.

ثامنها أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوِّشات والمضعفات، فإن الداعي إذا

أخفى دعاءه لم يدرِ به أحد، فلا يحصل هناك تشويش ولا غيره، وإذا جهر به تفطنت له الأرواح الشريرة والخبيثة من الجن والإنس فشوَّشت عليه ولا بد، ومانعته وعارضته، ولو لم يكن إلا أن تعلقها به يفرق عليه همته فيضعف أثر الدعاء لكفى.

تاسعها أن أعظم النعم الإقبال على الله والتعبد له والانقطاع إليه والتبتل إليه، ولكل نعمة حاسد على قدرها، دقَّت أو جلَّت، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة، فأنفس الحاسدين المنقطعين متعلقة بها، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد، وأن لا يقصد إظهارها له، وكم من صاحب قلب وحال مع الله قد تحدث بها وأخبر بها فسلبه إياها الأغيار، فأصبح يقلِّب كفيه، ولهذا يوصي العارفون والشيوخ بحفظ السر مع الله، وأن لا يطلعوا عليه أحدًا، ويتكتمون به غاية التكتم؛ كما أنشد بعضهم في ذلك:

من ساروه فأبدى السرَّ مجتهدًا ... لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا

وأبعدوه فلم يظفر بقربهم ... وأبدلوه مكان الأنس إيحاشا

لا يأمنون مذيعًا بعض سِرِّهم ... حاشا وِدادهم من ذلكم حاشا

والقوم أعظم شيء كتمانًا لأحوالهم مع الله وما وهب الله لهم من محبته والأنس به؛ ولا سيما للمبتدئ والسالك، فإذا تمكن أحدهم وقوي وثبتت أصول تلك الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء في قلبه؛ بحيث لا يُخشى عليه من العواصف، فإنه إذا أبدى حاله وشأنه مع الله ليُقتدى به ويُؤتَمَّ به لم يبالِ.

عاشرها أن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه متضمن للطلب منه والثناء عليه بأسمائه وأوصافه فهو ذكر وزيادة»[1].

(١) بدائع الفوائد ٣/ ٥١٨-٥٢٠ بتصرف.

6 كلمة السر: آخرة:

اختبر نوعية دعائك وسائل نفسك: آخر مرة دعوتَ الله فيها: هل خطر لك الدعاء لآخرتك أمَ أن كل أدعيتك كانت دنيوية؟! هل رجوت الله يومًا أن يرزقك قيام ليلة أو حسن عبادة أو صنيعة معروف أو تفريج كرب أم أن غير زيادة الرزق وتوسيع الدنيا لا يهمك؟! هل تدعو الله في سجودك أن يزيد إيمانك ويرقِّيك في مدارج الهداية كما تدعوه أن يزيد مالك ويُرقِّيك في مراتب الوظيفة؟!

إن الذكي اليوم هو من يعرف أنه إذا أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس، وأنه إذا جعل الآخرة همه كفاه الله أمر دنياه بل وأتته الدنيا راكعة ذليلة، فإن حدث ولم تأته الدنيا ملأ الله قلبه بالزهد فارتاح ولم يحزن على فقدها، ومن هنا يجعل لدعاء الآخرة أكبر الحظ من دعائه.

وهو حصيلة تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية الإيمانية وجولاته الروحية حين خاض غمار الأدعية وجرَّبها كلها ، ثم خرج لك بالنتيجة الآتية بعد أن وفَّر عليك عناء البحث ، ثم قدَّمها لك على طبق نوراني هادي في قوله :

« تأمَّلت أنفع الدعاء فإذا هو : سؤال الله العون على مرضاته »(١).

وقد فهم ابن عطاء ذلك جيدا فصاغه حكمة من حكمه قال فيها:

«خير ما تطلبه منه هو ما يطلبه منك».

(١) مدارج السالكين ١/ ٧٨

لكن.. لماذا لم يستجب؟!

- لم يستجب لك لأنك لم تستجب له، وقد سبق وأن قال لك: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].
- لأن تتابع جرعات الدواء وتوالي مرات الدعاء يضمن حدوث الشفاء.
- لأن الداعي قد يطرق الباب لطلب حاجة واحدة لسد ثغرة يتيمة فتنهمر عليه الخيرات بسبب الدعاء من أبواب كثيرة.
- لتتمتع بطول المناجاة، فكلما تأخرت الإجابة طالت المناجاة فحصلت اللذة وزاد القرب، ولو عُجِّلتْ الإجابة لفاتت هذه الثمرات. قال **سفيان الثوري**: لقد أنعم الله على عبد في حاجة أكثَرَ من تضرعه إليه فيها»[1].
- لأنه أعلم بك منك، وأحرص عليك من نفسك، وأدرى بما ينفعك وما يضرك.

وقد لايستجاب للدعاء لحكمة ربانية كأن يصرف عنه بدعائه سوءًا أو يدخر له من الأجر عند الله، أو بسبب أكل الداعي ومشربه من حرام، أو ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو ارتكاب بعض الذنوب والمداومة عليها وعدم التوبة منها.

قال ابن القيم:

> **«فقضاؤه لعبده المؤمن المنع عطاء، وإن كان في صورة المنع، ونعمة وإن كانت في صورة محنة، وبلاؤه عافية وإن كان في صورة بلية، ولكن لجهل العبد وظلمه لا يعُدُّ العطاء والنعمة والعافية إلا ما التذَّ به في العاجل، وكان ملائما لطبعه ولو رُزِق من المعرفة حظا وافرا لعَدَّ المنع نعمة والبلاء رحمة، وتلذذ بالبلاء أكثر من لذته بالعافية، وتلذذ بالفقر أكثر من لذته بالغنى، وكان في حال القلة أعظم شكرًا من حال الكثرة»[2].**

---

(١) عدة الصابرين ص ١١١.

(٢) مدارج السالكين ٢/ ٢١٥، ٢١٦ - دار الكتاب العربي.

قبل المغادرة

يا سالك طريق الهدى..

اقرأ هذا الكتاب مرتين يضاعف الله لك الاستفادة ضعفين، ويؤتك أجرك مرتين، ويبدو ذلك على عملك جليًّا فتعمل عمل اثنين.

ثم سائل نفسك بعد القراءة:

منذ متى وأنت تسير في هذا الطريق؟! أتراك وصلت أو قاربت؟! أم أنك لا زلت بعدُ في البدايات؟! أم غرَّك أنك ابتدأت فاطمأننت وتوقفت!!

كلنا اشترك في رحلة الشفاء حين رُفعت له قارورة الدواء..
وسار في الطريق كثير..
حتى مضت فترة من الزمن.. توقف خلالها البعض
وتاه عن الطريق نفر
وبدَّل الطريق وسار عكس الاتجاه فريق
وملّ من طول السير طائفة
ومات قبل أن يصل الضعفاء
ولم يصل إلى ساحل العافية إلا..

كل بطل همام وصابر مقدام

أخي.. هذه آثار أقدام السابقين لنا في هذا الطريق واضحة محفورة في الأرض، لكن... أتراها تبقى هذه الآثار تهدي وتُرشد أم ستعفوها رياح الشر العاصفة ويمحوها تتابع أقدام العابثين عليها!!

لقد آذن الوقت بالنفاد، وأذَّن المنادي بالرحيل، وكاد القلم يفارق صاحبه، وقد بذلت

جهدي في نصحك، ونصح نفسي قبل نفسك، فبالله.. هلا شمَّرت عن ساعد الجد لتبدأ البداية الجديدة وتستقبل الحياة السعيدة، وبالله عليك لا تركن، فأمتنا مقهورة، وكرامتها مسلوبة، وآمالها عليك معقودة، وهي الآن قابعة في قيود الذل بعد أن كانت سيدة الدنيا، ولم يعد لها مهرب ولا خلاص إلا عن طريق إصلاح قلبك، فلا تُضيِّع نفسك، فتضيع الأمة بسببك.

يا أيها الناس فلتنجوا بأنفسكم ... ولا تكونوا كمن ضلّت مساعيه
عودوا إلى الله ينقذكم برحمته ... من الشقاء الذي بتنا نعانيه
ولتستقوا من كتاب الله منهجكم ... فليس في الأرض منهاج يُدانيه

فهلا شُفيت أرواح من أمراضها وذاقت حلاوة الدواء، ثم سمت وارتقت في سلم الشفاء حتى دعت غيرها إلى ما اهتدت إليه، وشفته مما أصيبت به من قبل، ثم تسامت وتسامت حتى كسرت قيد الشهوة التي طالما ملكها واستعبدها، لتعود الروح إلى بارئها، وتطير بشوق نحو ما يُفرِحها، وتصبح مهيَّئة لتعبر بوابة الخلود عن طريق الشهادة لتتوشح أشرف الأوسمة، فإن لم تنل هذا الشرف كانت مشاريع شهادة تنتظر؛ تملؤها الرغبة في البذل، ويحدوها الشوق إلى العمل، لتنال أجر الشهداء دون دماء، وتجني كما جنوا في الجنة ثمرة الهناء.

وعندما تسري هذه الروح في الأمة، عندها فقط تتحرَّر من أسر أعدائها بعد أن تحرَّرت من أسر أهوائها، وتنتصر على عصابة من يهود ما استأسدت علينا إلا لوهن قلوبنا.

وعندما تتحرَّر روحك، وعندما تصرع الشيطان في نفسك، وعندما تنتصر على النفس الشاردة، وعندما تطوِّع الطبيعة المتمرِّدة، وعندما تكون آخرتك أغلى عندك من عاجلتك.. أي عندما يُشفى قلبك من كل هذه الأمراض والأسقام.. عندها يتحقق حتمًا الوعد الإلهي الحق، وألقاك وقتها حتمًا على أعتاب بيت المقدس، وأصلي بجوارك متنشيًا في ساحة الأقصى، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾.

محتويات الكتاب

الموضـــــــوع	الصفحة
مقدمة	٥

5 قبل تناول الدواء

مضاعِفات القوة العامة	٧
١) لا تردَّ الدواء أو تتهاون فيه	٧
٢) أيقن بفاعلية الدواء	٨
٣) داوِم تصـل	٩
٤) لحظة التأخير القاتلة	١١
كم عمرك الآن؟!	١٣
٥) اختر دواءك بنفسك	١٣
٦) شدِّد ثم أرخِ	١٥
الهـــول المفـــزع	١٧
يرحمك الله!!	١٨
همـــة هـــرَّة!!	١٩
٧) أرخِ ثم شـدِّد	١٩
٨) نقطة الضعف المدمِّرة	٢١
يوم العرض على القلب	٢٢
٩) أغلى ذرة جهد	٢٥
١٠) لذة التفرد الدافعة	٢٥
١١) مواسم الاستشفاء	٢٦

١٢) السـر الدفيـن ٢٨
الخلوة سلاح ذو حدين ٢٩
للخلوة ست فوائد ٣١
١٣) أنفق يُنفق عليك ٣٤
العدو الصديق! ٣٥
١٤) دواء الملـول ٣٧
التفاعل مع سنة الفترات ٣٨
١٥) ارتدِ العدسة المصغِّرة ٣٩

٥ جرعات الدواء

غرس الأرض بالخيرات ٤٥
تقديم ابن القيم ٤٨
جرعات الدواء ٤٩
أولاً : عشارية القرآن ٥١
أيكم سجد!! ٥٢
قلوب المستمعين ثلاثة ٥٤
١) افهم ما تقرأ : ٥٥
الحسن يشتكي أهل زمانه!! ٥٧
٢) التكرار يورث الاعتبار ٥٨
٣) أنت المخاطب ٥٨
٤) تذوق حلاوة المناجاة ٦٠
قُبلة الملك ٦٢
رِقَّة قلب ٦٢
٥) الليل أحلى ٦٣

٦) الصوت الحسن ٦٤
٧) التلذذ بالثواب ٦٤
الدموع : كنز المرأة الثمين ٦٥
٨) ما المطلوب مني ٦٦
٩) فيم الاستعجال ٦٧
الشيطان يسرق!! ٦٨
١٠) خوف الطرد يطاردك ٦٩
ثانيًا : الجوع الشافي ٧١
١) الحريـــة ٧١
٢) التدريب التربوي ٧٣
٣) صناعة النفس الذلول ٧٤
٤) قتل بذور الشر ٧٤
٥) دواء الدنيا والآخرة ٧٥
مضاعفات القوة ٧٧
١) الصوم في الحر الشديد ٧٧
٢) رفع عملك أثناء صومك ٧٩
٣) صيام داود ٧٩
٤) الصوم الحقيقي ٨٠
٥) إخفاء الصوم ٨١
ثالثًا : نفقات العلاج ٨٣
قصة وعبرة ٨٤
البخلاء يختنقون ٨٥
معلِّم نبي وشارح وفي ٨٧
مضاعفات القوة ٨٩
١) مفتاح بوابة البر ٨٩

قصة آية ٨٩
٢) أخرجها من قلبك أولاً ٩٢
احذر : آفتان قلبيتان ٩٣
٣) البعد عن المَنِّ والأذى ٩٤
لكل شيء علامة ٩٦
٤) الصدقة المتجرِّدة ٩٨
٥) وقت الإنفاق ٩٩
٦) سر الأسرار ١٠١
٧) عشرة من عشرة ١٠١
رابعًا : استراحة القلب ١٠٥
١) هدف كل العبادات وثمرتها ١٠٥
٢) أمارة القلب الحي ١٠٦
٣) نسيان الذكر هلاك ١٠٧
٤) أعنف معارك الشيطان ١٠٧
٥) مذيب القسوة الفعال ١٠٨
مضاعفات القوة ١١٠
١) التنويع ١١٠
٢) الذكر الكثير ١١١
٣) لا تطع غافلاً ١١٣
٤) بركة المضاعفات النبوية ١١٥
٥) سباعية الذكر الرائعة ١١٥
خامسًا : قوة التحمل ١٢١
بين الطاعة والبلاء ١٢١
بين الطاعة والمعصية ١٢٣
١) الصبر على طاعة الله ١٢٤

أنواع خمسة ١٢٥
٢) الصبر عن معصية الله ١٢٦
زاد الصابرين!! ١٣٠
١) تلمح لذة العاقبة ١٣٠
٢) الاستعانة بالله ١٣١
٣) صبر أعدائك يُعدي ١٣٢
٤) جهاد النفس ١٣٣
تجربة جهادية!! ١٣٤
جهاد النفس وجهاد العدو ١٣٥
مضاعفات القوة ١٣٧
١) الصبر الدائم ١٣٧
٢) صبر التميُّز والانفراد ١٣٧
٣) صبر الزمن الصعب ١٣٨
٤) صبر الشباب ١٣٩
٥) الصبر على ما تم اعتياده ١٤٠
٦) أشق الصبر ١٤٠
٧) الصبر عند مواسم الجزر ١٤١
٨) قوة الصبر الثلاثية ١٤١
٩) الصبر على ما بعد الصبر ١٤٢
سادسًا : فرق الإنقاذ ١٤٣
التآخي والاستشفاء ١٤٥
١) ابدأ وعينك على القمم ١٤٥
٢) غيِّر وسطك تنطلق ١٤٦
٣) مرآة العيوب ١٤٨
٤) تقليد الإصلاح ١٤٩

٥) الأنس وعدم الوحشة........ ١٥١
مضاعفات القوة........ ١٥٢
١) التماس العذر........ ١٥٢
ممنوع العتاب!!........ ١٥٤
٢) الزيارة........ ١٥٥
٣) النصح........ ١٥٧
٤) الأخوة الخاصة........ ١٥٨
٥) الإعانة على الخير........ ١٥٩
استشارة قلبية........ ١٦١
سابعًا : البيت الجديد........ ١٦٣
مضاعفات القوة........ ١٦٥
١) اسمع كلام الموتى........ ١٦٥
٢) ربط الموت بالعمل........ ١٦٩
تجهَّزتم؟!........ ١٧٢
ذكر الموت حياة!!........ ١٧٣
٣) دوام الذكر........ ١٧٤
حدة السباق........ ١٧٥
٤) الدعوة........ ١٧٦
٥) قصر الأمل........ ١٧٨
كيف نتنافس فيه؟!........ ١٨١
ثامنًا : النظرة الثاقبة........ ١٨٥
فضل التفكر........ ١٨٥
أول طريق النبوة........ ١٨٨
أنواع التفكر الثمانية........ ١٨٩
١) التفكر في الآخرة........ ١٨٩

٢) التفكر في عظمة الخلق ١٩٠

٣) التفكر في عيوب النفس........................ ١٩٣

٤) التفكر في عواقب الأمور........................ ١٩٣

٥) التفكر في كل ما حولك........................ ١٩٤

مشهد سباق إبل!!........................ ١٩٤

مشهد امرأة مرضع!!........................ ١٩٥

٦) التفكر في الدنيا........................ ١٩٧

٧) التفكر في أحوال الأمة ١٩٧

٨) التفكر في نعم الله ١٩٨

وإلا ١٩٩

شروط الانتفاع بالتفكر........................ ١٩٩

ثمرة التفكر ٢٠٠

تاسعًا : معاهدة الصلح ٢٠١

معدلات التوبة!!........................ ٢٠٢

مضاعفات القوة........................ ٢٠٥

١) التوبة العملية ٢٠٥

٢) أبعاد الندم الثلاثية ٢٠٧

٣) التوبة النصوح ٢٠٩

٤) التكرار يعلِّم الأبرار ٢١٠

٥) تعجيل التوبة ٢١١

٦) الأجر على قدر المشقة........................ ٢١٢

مدَّعي النبوة الشهيد!!........................ ٢١٣

الدواء الأخير........................ ٢١٥

عاشرًا: صرخات الاستغاثة ٢١٥

أمل العشاق الوحيد........................ ٢١٦

مضاعفات القوة.. ٢١٧
١) موعد في السحر.. ٢١٧
٢) المداومة شرط.. ٢١٨
٣) التطويل مستحب.. ٢٢٠
٤) الفقراء فقط يدخلون.. ٢٢١
حلاوة الدعاء شرط الشفاء.. ٢٢٣
٥) إخفاء الدعاء.. ٢٢٤
٦) كلمة السر : آخرة.. ٢٢٦
لكن .. لماذا لم يستجب؟!.. ٢٢٧
قبل المغادرة.. ٢٢٨
محتويات الكتاب.. ٢٣١

د. خالد أبو شادي

رُدَّ إليَّ روحي

١ موضع الإصابة

٢ قصة القلوب الثلاثة

٣ رحلة سقوط

٤ حراسة الأبواب الستة

٥ قبل تناول الدواء

٦ جرعات الدواء